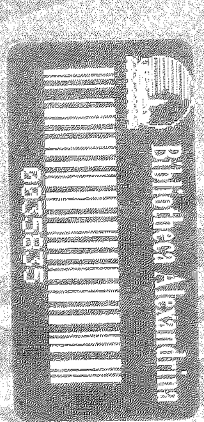
المسيحيون

دكتور زاهر رياض





المسيحيون والقومية المصرية

فى العصر الحديث

تأليف

دكتور زاهر رياض

رئيس قسم الدراسات الافريقية
بمعهد الدراسات القبطية



صدر عن دار الثقافة ص . ب ١٣٠٤ — القاهرة .
 ١٠/٣٠٥ ط ١/٧٩ (أ) ٣ — ٣
رقم الايداع : ٣٢٢٢ / ٧٩ ترقيم دولى : ٢ — ٨٦ — ٧٠٧١
طبع بمطبعة **دار الطباعة القومية بالفجالة**

فى هذا الـكتاب

تقـــديم

كتبت هـــذا الــكتاب منذ أمد ليس بالقصير من أجل هدفين وضعتهما امام عينى . أولهما تدعيم الوحدة الوطنية وهو هدف كل مصرى لا فى الوقت الحــاضر فحسب . بل طــوال تاريخنــا كله . منذ أن ضم اهلهــا وطن واحد . فالعمل على تفتيت هذه الوحدة أو على الأقل الوقوف منها موقفــا ســلبيا جريمة معناها القضاء على مستقبل هذا الوطن ، قضاء لا رجعة فيهـــا .

أما الهــدف الثانى فهــو الوقوف أمام سيئى النية والحـــاقدين والدساسين الذين لا يفتـــأون يسيئون الى هذا الوطن بترديد دعوى أن المسيحيين تواكلوا دائما عن اداء دورهم الوطنى . بل كانوا فى أوقات كثيرة دعائم الاستعمار الأجنبى . وجعـــلوا يشوهون مواقف من برز منهم فى المناسبات الوطنية المختلفة من أمثال المعلم يعقوب حنا وبطرس باشا غالى . فالمسيحيون لم يتوانوا مطلقا عن أن يأخذوا مكانهم بين صفوف المجــاهدين من أجل هذا الوطن ، بل وقفوا فى بعض الظروف وحدهم . فرغم أنهم أقلية عـــددية الا أنهم لم يتملكهم يوما شعور الأقليات فى غير مصر من البـــلاد . بل شعروا ويشعرون دائما أنهم أصحاب هذا البلد . وأن ليس لهم وطن آخر يلجأون اليه اذا عز عليهم المقام . أو يطلبون الحماية من بلد أجنبى ، فالوطن وطنهم وان ســخط الحاقدون . فأكون قــد أردت بهذا الهدف أن أجلو صفحة المسيحيين بعامة وصفحات هؤلاء الناس بخاصة .

واذ كنت قد ألمحت فى معرض الكلام — الى بعض سوء المعاملة الذى وقع بالمسيحيين فى بعض فترات التاريخ الاسلامى فانى أرمى بذلك الى هدفين أيضا أولهما أن اظهر أن هذا لم يكن فى يوم من الأيام سياسة عامة تتبعها الدولــة ازاءهم بل كان سياسة بعض الولاة أو الخلفاء أو السلاطين من أجل دوافع شخصية أو استجابة لدعوات أجنبية لظروف خاصة اما الهدف الآخر فهو

أن يقرأها المسيحيون فيحمدون الله على ما يعيشون فى ظله الآن من أمن وطمأنينة وسلام وارف وحرية يحسدهم عليها كثيرون ، وأن يقرأها المسلمون فيعملون دائما على أن لا تتكرر لمواطنيهم فى المستقبل هــذه المحنة . فالقوى أن تسامح فعن قوة ، وأن منع فعن تجبر غليس اوقع فى نفس المسيحى من أن يخلو الى نفسه والالم يعتصره ويردد مع الشاعر :

وظلم ذوى القـــربى أشد غضاضة
على النفس من وقع الحسام المهنــد

أول اكتوبر سنة ١٩٧٨

زاهــر رياض

الباب الأول

الحكم العثمانى

أجمع المؤرخون جميعا على أن حكم الدولة العثمانية للولايات التى خضعت لها كان فاسدا بالغ الفساد . وكأن أنواع الفساد الموجودة فى جميع نظم الحكم العالمية ، قد اجتمعت فى بوتقة واحدة لتنصهر وتكون هذا الحكم العثمانى ، الذى اتسم بالجمود والعزلة وسوء العلاقة بين الحاكم والمحكوم . فبينما كان العالم خارج الامبراطورية التركية ينمو وينشط ويتعلم كانت الشعوب الخاضعة للحكم التركى جامدة على الحالة التى وجدت عليها فى أوائل القرن السادس عشر ، بل أسوأ مما كانت . فقد كانت الدولة التركية دولة حربية قائمة على القوة وحدها ، لا يعنيها الا الفتح . أما غير ذلك فمحتقر غير جدير بالعناية . ولكى تضمن هذه الامبراطورية خضوع الولايات الاسلامية صورت لهم — منذ منتصف القرن الثامن عشر — العالم الخارجى مجموعة من الكفرة الذين لا يستظلون بنعمة الاسلام . ففى الاتصال بهم نوع من الرجس والكفر لا يرضى عنه المسلم الصالح فكفى بالاسلام نعمة تظللهم وكفى بخضوعهم لأمير المؤمنين وخليفة المسلمين فخرا . ومن المؤلم أن هذه الشعوب الكبيرة من الشعوب الاسلامية التى تفوق الأتراك فى ثقافتهم وعلمهم وسمو ادراكهم قد صدقتهم وبقى هذا الطلسم يحول بين هذه الشعوب النشطة المجدة وبين نور العالم .

وحالت الدولة بين معظم رعاياها وبين الخارج ، فمنعتهم من الخروج الا باذن من السلطان ، ودون هذا الاذن خرط القتاد وكان من أثر هذه السياسة على اقليم مصر أن تحولت القومية الوطنية فيه الى قومية اسلامية وبات الناس لا يفكرون فى بلدهم قدر ما يفكرون فى الرابطة الاسلامية ويجدون فى هذه الأخيرة بديلا عن قوميتهم . فكان الحكم التركى بذلك نكبة على قوميتنا . ولكن القومية المصرية الصحيحة قوية ، قديمة ، راسخة ، عميقة الجذور . ولذا لم تلبث الحوادث أن أظهرتها .

وفى خلال هذا العمر الطويل الذى عاشته الدولة التركية ظلت العــلاقة بين الحاكم والمحكوم قائمة على سوء الظن وعدم الثقة سواء من السلطان بمن حوله من افراد عائلته أو بينه وبين الحــــاشية أو بين هؤلاء والجيش والموظفين ، وامتدت هذه الصفة الى عدم الثقة بالحــكام المعينين لحـــكم الولايات . ولذا كان هؤلاء الحكام يعينون لعام واحد ، وقد تمتد مدتهم الى عامين أو ثلاث أو اكثر . ولكن نادرا ما كان يحدث ذلك . وحتى السلطة التى يتمتع بها الوالى كثيرا ما كان يقاسمه فيها غيره من رؤساء الفرق . الذين كانت سلطتهم فى ذلك مطلقة ولذا كانت النتيجة الحتمية لهذا الحال انهيار الدولة انهيارا سريعا . وان ظلت محتفظة بهيكلها الخارجى لاكثر من أربعة قـــرون .

ومصر التى كانت درة العالم فى القرن السادس عشر ، بالرغم من سوء حكم المماليك لهـــا ، قضى عليها هذا الحكم التركى الفـــاسد . فقـــد أسرع السلطان سليم فحمل مهرة الصناع الى استنبول . وكانت بينهم نسبة كبيرة من المسيحيين فكانت تلك أولى النكبات التى شهدتها البلاد من هذا القادم الجديد ، علاوة على ضياع استقلالها . وشهدت البلاد بعد ذلك قرونا من الانهيار والفساد . فقـــد اهتدى البرتغاليون قبل الاحتلال التركى بسنين قليلة الى طريق راس الرجاء الصالح من أجل الوصول الى الهند . ثم ملكوا الهند فخسرت مصر ما كانت تحصل عليه من مكوس التجارة الهندية الوفيرة . وبدا الفقر يخيم عليها ، وكان الفلاح أول من شعر بهـــذه النكبة ، حين انصب الحكام على هـــذا المسكين يذيقونه مر العـــذاب ليستخلصوا منه ما كانوا عليه من دخل التجارة .

وكان النظـــام الذى فرضه الأتراك لحـــكم الولايات لا يقصد منه الا مصلحة (الأم) فقد كان تحديده مدة الولاية باعثا لأن يجعل هذا المنصب مثارا لـــكثير من « المزادات » فى العـــــاصمة (استنبول) واتجه حكام الولايات الصغيرة الى نيل هذه الولاية الغنية بالرشى التى اتخذت شكل الوعود ، أو المال المؤجل . أو المدفوع ، أو النساء ، أو صلة القرابة ، أو المصاهرة . حتى اذا فاز الغانم بهـــا لم يكن هدفه موجها الا الى الاسراع فى جمع الثروة

بطرق اقل ما يقال عنهـا انهـا بعيدة عن النزاهة . فكان من جراء ذلك أن هرب الفلاحون تاركين الأرض دون زراعة . فلم يـكن يمر جيل واحد الا وتحدث مجاعة أو مجاعتان أو ثلاث كما حدث فى السنوات ١٦٠٣ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٤٢ .

ويحدثنا التاريخ أن هذه المجاعة الأخيرة افنت مائتين وثلاثين قرية . واعقبها قحط وغلاء . وداب الجند العثمـانى خلاله على النهب والسلب ، حتى عجز الولاة عن قمعهم وصارت كل طائفة من الجند تأخذ فى حمايتها عددا من التجار أو المزارعين ليقتسموا معهم الأرباح نظير حمـايتهم من غيرهم ، ومن أداء حقوق الحكومة .

ويحفظ لنا « السنكسار » من أمثال هذه الحوادث كثيرا . فهو يذكر من حوادث سنة ١٦٢٤ أنه حدث وباء عظيم فى أرض الصعيد ولبث قائما من طوبة الى برمودة حتى فنيت الناس وخربت البيوت .

وفى سنة ١٦٢٦ ظهر وباء عظيم فى كل الأرض . كما يذكر عند ذكر حياة الأنبا بطرس السادس أنه فى سنة نياحة هذا البابا (وقع وباء الطاعون مع قحط شديد فتنيح قسس كثـيرون ، وأساقفة ووقع الموت على النـاس من الاسكندرية الى أسوان واضطر الناس الى ترك الزرع حتى صاروا يدفنون الناس فى الحصر من قلة الأكفان ، وفى تلك السنة تلفت زراعة القمح فلم يسد حاجة البلاد ووقع القحط والغلاء) .

كما يذكر عن حياة البابا مرقس السابع (١٧٤٥ — ١٧٦٩) أنه بعـد سنتين من رئاسته « حدثت فتنة عظيمة بين العسكر فى مصر قتل فيهـا كثـيرون من الأمراء وهرب البعض منهم الى الصـعيد ثم هاجروا الى الحجاز » .

وكانت الحالة تزداد سوءا حين يسود نفوذ بعض قبائل العرب . ففى بعض الأوقات سيطرت الهوارة على الصـعيد واغاروا على القرى ونهبوها (١) وأكثر من ذلك حين يتحد الأمراء مع العرب على هذا النهب .

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٤٩ .

فكثيرا ما جمعوا المراكب وحجزوها ، وعطلوا أسباب التجارة ،والمسافرين، وجمعوا الأموال من المصادرات والملتزمين والفلاحين (١) .

وكان الاستعداد للحج وقيام المحمل ، يبدأ فى العادة فى شهر جمادى الأول ، حين يقلد أمير الحج . فاذا ما أهل رجب ، فرضت ضريبة خاصة على التجار (٢) وصودرت البهائم ، واخصها الخيول والبغال (٢) . ولكن الناس سرعان ما ينسون ما حل بهم اذا ما رأوا جمل المحمل يتبختر بأحماله الثمينة فى شوارع القاهرة فيسرعون الى مشاهدته والتبرك به . ولاضطراب حبل الأمن فى الطريق قلما كان المحمل يصل الى الحجاز سالما . اذ تتلقفه قبائل الأعراب فتنهب ما يحمله الحجاج من مال بل يصل الامر الى قتلهم .

واذا نجح فى الوصول الى غرضه فقلما كانت هذه الفرصة تفوت الأعراب عند عودته . فكثيرا ما وصف الجبرتى فى صفحاته المختلفة دخول الحجاج العائدين وهم فى أسوأ حال ، من جراء هجوم الأعراب عليهم وسلبهم ما يحملون .

ولم يكن أمام الفلاحين الهاربين سوى أن يسعوا الى الرغيف من أهون طرقه وهى اللصوصية وقطع الطريق فاختل الأمن وفسد الحال . فلا غرابة اذا وجدنا الأرض الزراعية قد نقصت مساحتها وأغارت الصحراء عليها برمالها وطمرت الترع والمصارف .

وكثيرا ما ضاق السلطان بنفوذ المماليك فيمنع السفن الاجنبية من الملاحة فى البحر الأحمر والوصول الى السويس لئلا يكون ما تدفعه من مكوس سببا فى زيادة قوة المماليك (٤) وان كان السبب الظاهرى الذى ذكره السلطان لذلك هو حماية الأراضى المقدسة وقد يكشف السلطان عن تناعه فيرسل لهم من يقاتلهم كما فعل حين أرسل حسن باشا القبطان لمقاتلة ابراهيم بك ومراد بك فوصل على رأس اسطول هزم أسطول المماليك فى نوه

---

(١) الجبرتى ج ٢ ص ٧٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٧٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٢ .
(٣) الجبرتى ج ٢ ص ٥٥ .
(٤) الجبرتى ج ٢ ص ٩ .

وتقدم الى القاهرة ، ففر المماليك الى الصعيد الا أن جنوده سرعان ما عاثوا فى القاهرة فسادا كمـــا استخرج هو أموال المماليك واستولى عليها واخرج جواريهم وامهات أولادهم بل وأولادهم وعرضهم للبيع . ولم يكد ينتهى من ذلك حتى التفت الى التنكيل بالاقباط فأمرهم أن يقيدوا أسمائهم وأن يعفوا من كان عندهم من المسلمين من خدمتهم كمـــا صادر أملاكهم وفرض عليهم الجزية (١) .

وكان اثر اختـــلال الأمن على التجـــارة الداخلية توقفا تاما . وعملت كل قرية على أن تكفى نفسها وتركزت التجـــارة الكبيرة فى القـــــاهرة والاسكندرية وقوص . وكان التجـــار يتخذون من مداخل بيوتهم معـــارض لبضاعتهم حتى اذا شعروا أن الاضـــطراب وشيك الوقوع ، أو أن المماليك بسبيل النزاع بين فرقهم المختفلـــــة اغلقوا عليهم الأبواب وتحصـــنوا ونساءهم وابنائهم داخل بيوتهم لبوم أو اكثر حتى تنتهى الغمة . ولـــكنهم فى اغلب الأحيان كانوا اذا ما عادوا اليهـــا وجدوا اغلبهم منهوبا ، فيجمعون ما تبقى منهـــا وهم يصبون لعناتهم على كل من المماليك والأتراك ، ولجأوا بالشكوى الى سر التجار فلجأ هذا الى شيخ البلد فيعده هذا بالحماية وعدم العـــودة الى مثل ذلك ، ولكن بعـــد أن يدفع واخوانه بعض المـــال ثمنا لهذه الحماية . ولن أحاول هنـــا أن أطيل فى وصف أحوال المصريين ، بل سوف أكتفى بأن انقل لك صورة منه كما كتبها الجبرتى مؤرخ هذا العصر . فأنت اذا قلبت صحائف هذا الكتاب الجامع فلن تجـــد الا عبارات تكاد تتكرر فى كل صفحة من صفحاته اليك بعضها .

« وقبضوا على كثير من مساتير الناس والتجار والمتسببين وحبسوهم وصادروهم فى أموالهم وسلبوا ما بأيديهم فجمعوا من المال ما جاوز الحـــد ولا يدخل تحت العد (٢) .

واشتد الكرب والضنك على النـــاس وأهل البلاد . وانقطعت الطرق القبلية والبحرية،برا وبحرا . وكثر تعدى العسكر وغلت الأسعار،وشح وجود

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .

الغلال وزاد أسعارها . وكثر عبث المفسدين والفحش جماعة لبكوات فى السلب والنهب ولم يتركوا على وجه الأرض عودا أخضر (١) » .

« وكثر اشتغال طائفة العسكر بالبيع والشراء فى أصناف المأكولات وتسلطوا على الناس » (٢) ومن حوادث هذا الشهر زيادة تعدى العسكر على النساء وأخذ ثياب من ينفردون به من النـــاس ، وهاج الفلاحون من من الأرياف لمـا نزل بهم من جور العسكر وعسفهم فى البلاد » (٣) .

« سارت زفة عروس بالنحاسين فهجم عليها الانكشارية وخطفوا ما على العروس وبعض النساء من المصاغ والزينات » (٤) .

أما الاقباط فلم يكن عددهم يزيد على أكبر تقدير عن مائة وخمسين الفا مبعثرين فى طول البــلاد وان زادت فى الصعيد عنها فى الوجه البحـــرى ولا تصل نسبتهم مطلقا الى ان يكونوا اغلبية فى قرية من القرى وان خلت منهم بلاد كثيرة .

وقبل أن نستطرد الى وصف أحوالهم فلابد أن نذكر شيئا عن المسيحيين عامة تحت الحكم التركى . فقد كانت الدولة حتى بداية القرن السادس عشر تحكم من أوربا شبه جزيرة البلقان حتى نهر الدانوب ومن آسيا شبه جزيرة الاناضول ولا تحكم من أفريقيا شيئا . فكانت الحكومة اسلامية وان كان شعبها مسيحيا وكلهم من الأرثوذكس الذين يعترفون بالرئاسة الدينية لبطريرك استنبول ولذا وجدت الحكومة نفسها أمام شعب لا يفهم شيئا فى طقوسه ولا فى طريق حياته فاضطروا لأن يتركوا لهم حريتهم الدينية يديرها لهم البطريرك واكتفت معهم بمجرد دفع الضرائب والولاء التام للدولة . وكان جزء من هذه الضرائب يدفع على شكل أطفـــال صغار لا يتجاوز الاثنى عشر سنة تجمعهم الدولة سنويا ، وتفصلهم عن أهليهم فصلا تاما على أن يربوا فى قصر السلطان تربية خاصة تؤهلهم لأن يشغلوا وظائف الدولة ويكونوا جيشها فخرج هـــذا النوع من الافراد وهم لا يعرفون لهم أهــــلا الا الولاء

---

(١) الجبرتى حـ ٢ ص ٨٤ .
(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٠٣
(٣) نفس المصدر ص ٢١٣ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

للسلطان ، والولاء له يعنى حياتهم ومستقبلهم مجرد الشك فى هذا الولاء يقضى عليهم القضاء الأخير . وهذا النوع من الافراد هو الذى عرف باسم الانكشارية . وكان هذا العسكر ممتازا عن الأهلين فى كل شيء فرفضوا أن ينتظم غيرهم فى سلكهم حتى لا يحظى بما يتمتعون به . وقد حاول أحد ولاة مصر وهو ادريس باشا (١٥٨٧ — ١٥٩١) أن يدخل المصريين فى الجيش فاشتعل لهيب الفتنة ولم يقبلوا أن يتشبه بهم أحد فى لباسهم وهجموا على ادريس باشا وأهانوه فاضطر الى الاذعان لهم . وغنى عن الذكر ان هذا الاجراء فوت على الولايات تكوين القوة الوطنية التى تستند عليها اذا ما أرادت لنفسها الاستقلال . اذ لابد أن تستند مثل هذه الحركات على قوة وطنية تعضدها والا كتب عليها الفشل مقدما .

ومنذ بداية القرن السادس عشر أخذت الدولة تتطلع نحو الشرق . فغزت العراق ، ثم فارس فالشام فمصر والجزيرة العربية ولم ينقض الربع الأول من القرن حتىكانت هذه البلاد خاضعة للامبراطورية التركيةوبذلكانقلب الميزان وأصبحت الدولة الاسلامية شعبا وحكومة . وكانت مصر ولا تزال تضم أقلية مسيحية كونت جزرا صغيرة وسط محيط اسلامى . وخضعت هذه الأقلية لبطريركية خاصة هى بطريركية الاسكندرية التى كانت منذ نشأة المسيحية موضع الحسد والكراهية من بطريركيتى استنبول وروما كما أن هذه البطريركية الصغيرة كانت فى حالة انحطاط وتفكك منذ أكثر من عشر قرون سابقة ظلت خلالها محرومة من كل ثقافة دينية ، كما كانت محرومة من الموارد الخارجية التى يمكن أن تستخدمها فى زيادة ثقافتها ولذا لم تجد هذه الأقلية المسيحية التى تعيش فى مصر من يعنى بها بشكل جدى . فبينما كان مسيحيو أوربا يتمتعون بحريتهم كاملة سواء من الناحية الدينية أو الاجتماعية أو الثقافية كما كان مسيحيو الشرق من الروم الأرثوذكس يجدون مثل هذه الحماية بفضل رئاسة بطريرك استنبول لهم . كان مسيحيو مصر محرومين من هذا كله . فلم تعن الدولة بايجاد تشريعات خاصة تحدد مركزهم ، ولذا خضعوا لأنواع من الاحكام التقليدية التى كانت تجرى عليهم قبل الاحتلال التركى وهذه العبارة المنقولة عن الجبرتى تصور بعض حالهم .

---

(١) تاريخ مصر من الفتح العثمانى ص ٨١ .

« قصد بعض نصارى القبط حج بيت المقدس وكان كبيرهم اذ ذاك نوروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبد الله الشبراوى فى ذلك وقدم له هـــدية والف دينار فكتب له فتـــوى وجوابا ملخصه أن أهل الذمة لا يمنعون من ديانتهم وزيارتهم فلمـــا تم لهم ذلك شرعوا فى قضـــاء أشغالهم وتشهيل اغراضهم وخرجوا فى هيئة وأبهة واحمال وتختراوانات فيها نساؤهم وأولادهم ومعهم طبول وزمور ونصبوا لهم عرضيا عند تبة العرب واحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم واعطوهم أموالا وخلعا وكساوى وانعـــامات وشاع أمر هذه القضية فى البلد . فحضر الشيخ عبد الله الشبراوى الى بيت الشيخ البكرى كعادته . وكان على افنـــدى أخو سيد بكرى متمرضا فدخل عليـــه يعوده فقال له « أى شىء هذا الحال ياشيخ الاســـلام . كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الأفعال . الكونهم ارشوك وهادوك » . فقال لم يكن ذلك . فقال « بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى هذا تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من ذلك . ويصنعون لهم محملا ويقال حج النصارى وحج المسلمين . وتصير سنة عليك وزرها الى يوم القيامة . فقام الشيخ وخرج من عنده مغتاظا واذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم . وخرج كذلك معهم طائفة من مجـــــاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دامرداش . وانتكس النصارى فى هذه الحـــــادثة نكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء (١) ».

وقد حاول الأجانب اكثر من مرة ان يستغلوا سوء حال الاقباط تحت الحكم التركى ليتدخلوا فى الحكم والحكومة الوطنية بدعوى حمايتهم ، فرفض الاقباط هذا التدخل وهذه الحماية رافضين أن يبيعوا بلدهم مقـــابل الحرية الدينية فقد سعى بابا روما خـــلال بطريركية يؤنس الثامن عشر (١٧٦٩ — ١٧٩٦) لاجتذابكنيسة الاسكندرية لتعترف برئاسته فأرسل اليهرسولايحمل رسالة يدعوه فيها الى الاتحاد مقابل الحماية فتسلم البابا هذه الرسالة الى

---

(١) الكافى جـ ٤ ص ١٤٠ نقلا عن الجبرتى .

الانبا يوساب اسقف جرجا وكلفه بدراستها والرد عليها . فقام هذا العلامة بالرد عليها وتفنيد دعواها لانه كان من المتضلعين فى العلوم اللاهوتية . وقد حدث مثل ذلك مما فعله القائد التركى حسن باشا قبل ذلك من مصادر خزينة البطريركية واخذ اموالها الأمر الذى اضطر البطريرك الى أن يتوارى ويختفى من جور هذا الحاكم (١) كما هجم على بيوت النصارى ونقض ناموس الانسانية فنهب وجنوده اثاث المنازل وقام العسكر بالقبض على زوجة المعلم ابراهيم الجوهرى وارغموها على اخراج اموال زوجها وتحفه الثمينة بعد أن هرب مع ابراهيم بك ومراد بك فى ثورتهما ولم يتورع عن فرض الضرائب الباهظة على النصارى بصفة تشبه النهب والسلب .

وكان الشيء الوحيد الذى يزاولونه فى حرية واختيار هو حق انتخاب البطريرك فاذا ما مات أحدهم اجتمع الآباء والاساقفة والكهنة وبعض البارزين من افراد الشعب لاختيار الراعى فينتخبون عددا من الكهنة والرهبان فيقيمون القداسات لثلاثة أيام تنتهى بعمل قرعة هيكلية طالبين من الله أن يرشدهم الى من يصلح لرعاية شعبه (٢) وعلى هذا النحو انتخبت أربعة عشر بطريركيا خلال العهد التركى وهم :

١ — غبريال السابع (٩٥) الذى انتخب سنة ١٥٢٥ ومكث ثلاث واربعين سنة مات اثناء هربه من الوالى التركى الذى طالبه بمبلغ من المال .

٢ — يؤنس الرابع عشر (٩٦) الذى انتخب سنة ١٥٧١ ومكث خمس عشرة سنة .

٣ — غبريال الثامن (٩٧) الذى انتخب سنة ١٥٨٧ ومكث ست عشر سنة .

٤ — مرقس الخامس (٩٨) الذى انتخب سنة ١٦٠٣ ومكث ست عشرة سنة .

---

(١) السنكسار من تذكرات ٢ بؤونة .
(٢) السنكسار ١٠ بؤونة و ٢٦ برمهات و ١٣ برمودة ٢ بؤونة .

٥ — يؤنس الخامس عشر (٩٩) الذى انتخب سنة ١٦١٩ ومكث عشرة سنوات .

٦ — متاوس الثالث (١٠٠) الذى انتخب سنة ١٦٣٣ ومكث أربع عشرة سنة .

٧ — مرقس السادس (١٠١) الذى انتخب سنة ١٦٤٦ ومكث عشرة سنوات .

٨ — متاوس الرابع (١٠٢) الذى انتخب سنة ١٦٦٠ ومكث خمس عشرة سنة .

٩ — يؤنس السادس عشر (١٠٣) الذى انتخب سنة ١٦٧٦ ومكث اثنتى واربعين سنة .

١٠ — بطرس السادس (١٠٤) الذى انتخب سنة ١٧١٨ ومكث ثمان سنين .

١١ — يؤنس السابع عشر (١٠٥) الذى انتخب سنة ١٧٢٧ ومكث ثمان عشرة سنة .

١٢ — مرقس السابع (١٠٦) الذى انتخب سنة ١٧٤٥ ومكث أربعا وعشرين سنة .

١٣ — يؤنس الثامن عشر (١٠٧)

١٤ — واخيرا مرقس الثامن (١٠٨) الذى انتخب عند بداية حكم محمد على .

ومن تكرار القول أن نذكر ان البطاركة كانوا ينتخبون دائما من بين الرهبان الذين يعيشون فى الأديرة وقد نذروا أنفسهم للبتولية والمعيشة الانفرادية داخل الاديرة وكان للأقباط منها سبعة أديرة أربعة منها فى وادى النطرون وهى دير السيدة العذراء المعروف بالسريان ودير انبا بشوى بالصحراء الشرقية مقابل مدينة بوش بمديرية بنى سويف ويقطع الطريق منها الى الدير فى ثلاثة أيام بالقوافل ثم دير انبا بولا الذى يقع بين جبال البحر الأحمر ثم دير السيدة العذراء الشهير بالمحرق الذى يقع فى سفح جبل قسقام تجاه بلدة القوصية وعلى خمسة عشر كيلو مترا منها وكان بكل دير

مكتبة تحوى المخطوطات الدينية التى توافر الرهبـــان على نسخها خـلال اقامتهم بالدير الا أن تعرضتهذه الأديرة خلال العصور المتعاقبةلهجوم الغزاة وقبائل البربر والعرب عليها أضاع كثيراً من هذا التراث الثقافى الثمين .

ولم يكن الاقباط رغم قلتهم وضآلة أمرهم فى نظر الحكومة متحـــدين ولا متعاونين فكثيرا ما اختـلفوا مع بعضهم وتراشق زعماؤهم بالتهم حتى كانوا فى كثير من الأحوال سببا فى تأخير انتخاب البطريرك مددا امتدت فى بعض الأحيان الى أربع سنين كما حدث عقب وفـاة مرقس الســـادس البطريرك الحادى بعد المائة وقبل انتخاب متـاوس الرابع ولم يكن ينتخب البطريرك فى العادة الا بعد سنة أو سنتين كمـا حدث عند انتخاب يؤنس الرابع عشر ومتاوس الثالث وغبريال الثـــامن ومرقس السادس ويؤنس السادس عشر ويؤنس السابع عشر يقضيهـا الاقبـاط فى نبش الخـلافات القديمة واختراع خلافات جديدة تزيد من احتقار الحـكومة لهم واستهتارا بأمرهم بل وصل الحال أيام غبريال الثامن (١٥٨٧ — ١٦٠٣)(١) أن أقيم اربعة من البطاركة فى وقت واحد ينصر كل بطـريرك فريق من الأقباط (٢) بل بلغ الحال ببعض الاقباط بأن يحاولوا منع البطريرك بطرس السادس أن يحترم الدين بمنع الطـلاق فاعترضه بعض المسيحيين لأغراضهم الشخصية فسار الى السنجق ابن ايواز وباحث علماء المسلمين فكتبوا له فتاوى « بأنه المقرر على أصول مذهبه دون غيره وليس لأحد أن يعارضه فى أحكامه » .

وكان من التقاليد التى ورثهـا العهـد التركى عن المماليك وحرص على الابقاء عليها وساعد على ذلك ما كان عليه الأقباط من جهل واختلاف وتفكك عدم بناء كنائس جديدة أو تجديد أخرى قديمة حتى اذا جرأوا على ذلك قامت قيامة الحاكم عليهم ومنعوا من اتمام ما بدأوه بل وسلط عليهم العـامة يخربون ما أتموه . فقـــد روى السنكسار فى حوادث ١٠ بؤونة أنه فى شهر أبيب سنة ١٤١٧ ش .

---

(١) الدليل العام للأقباط ص ٦٢ — ٧٠ .
(٢) السنكسار ٩ بشنس .

وقع اضـــــطهاد على الشعب الأرثوذكسي بمصر المحروسة فى زمن الوالى محمد باشا بسبب وشاية وصلته بأن طائفة النصارى القبط أحدثوا بنيانا جديدا فى كنائسهم فعين على الكنائس اغا من قبله وجاء رجال المعمار وقضاة الشرع للقيـــام بالكشف على الكنائس فنزلوا وكشفوا واثبتوا أن فى الكنائس بناء جديدا . ولكن عناية الله لم تتخل عن شعبه بصلوات أبيهم الطاهر فحنن على أمته القبطية قلوب جماعة من أمراء مصر وأكابر الدولة وتشفعوا عند الوالى فقرر عليهم غرامة فاجتمع السيد البابا بالسادة المخاديم المعلم يوحنا ابو مصرى المعلم جرجس ابو منصور والمعلم ابراهيم ابو عوض واتفق الرأى بينهم على أن يطوف البابا المكرم حارات النصارى ويزور البيوت ويحصل منهم على ما يمكن تحصيله الى أن يتم جمع الغرامة المطلوبة .

كما جاء فى سيرة الانباء بطرس السادس (١٧١٨ — ١٧٢٦) أنه « عمر بيعــا كثيرة فناله بسبب هذا التجديد أن غرمه الوزير أربعين كيسا دفعهـــا من ماله المعلم لطف الله يوسف ناظر دير القديس انطونيوس » .

وبسبب هذه الغرامات التى لم يكن البطاركة يجدون وسيلة لدفعها أو تسديدها ، لم يحجم بعضهم عن ارتكاب الآثام كبيع المناصب الدينية أو فرض الضرائب السنوية على بعض الاقباط يجمعونها فى بعض المواسم مما اثار استياء كثيرين فقد روى أن مرقس السادس (١٦٤٦ — ١٦٥٦) طلع الى الصعيد واقام أربع سنوات جمع فى اثنائها اموالا طائلة وكان كثير الحمق فضج من أعماله الناس وسائر الأساقفة والقسوس والأراخنـــة واستمرت العداوة قائمة بينه وبين المعلم بشارة حتى عاد الى مصر فتواقع عليـــــه واصطلح معه (١) .

ولذا خضع الأقباط طوال العهد التركى لأنواع من المظالم ورثها الأتراك عن المماليك وجروا على احيائها فى فرص مختلفة (٢) ومن العبث أن نذكرها أو بعضا منها فهى كلها معروفة والباعث اليهـــا سواء كان من الأتراك أو المماليك انهم غرباء عن البلاد لا يعنيهم شيء قدر الاحتفاظ بسلطتهم لا تعنيهم

---

(١) السنكسار ١٥ برمودة .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٣ .

مصلحة البلاد فى قليل أو كثير .

ولم تكن هذه المظالم فى الحقيقـــة سوى نكأة لنهب أموالهم فغالبـــا ما كانت هذه المظالم تتوقف يوم صدور الاعلان بهـــا أو فى اليوم التالى اذا ما اتفق على دفع مبلغ من المـــال يصل فى العادة الى الف ريال (١) ولكنها كانت أيضا فرصة ثمينة لتعدى الغوغاء على بيوتهم ونهبها (٢) .

وهناك حقيقة لابد أن نعترف بها وهى أن جانبا كبيرا من مسئولية هذه الحالة السيئة يقع على عاتق الرئاسة الدينية التى كانت تعيش فى بحـــر مغلق من التقاليد دون أن تحاول التطلع الى الخارج أو الاتصال بغيرها من الرئاسات الدينية كما انها لم تحاول أن تقوم بالدور الذى قامت به الرئاسات الاخرى التى كانت خاضعة للدولة التركية من محاولة تثقيف الشعب أو حتى محاولة تثقيف رجالها مما يؤهلها لأن تحتـــل مكانة الزعامة من الشعب وفى نفس الوقت يجب أن نعترف انه لم يكن هناك من القوانين ما يمنعهـــا من أن تفعل شيئا من ذلك .

ويمكننا بعد هذا الاجمال أن نعطى بعض التفصيلات عن أقباط القاهرة فقد عاشوا فى ثلاث مناطق احداها فى الطرف الشمالى من المدينة وهى المنطقة التى تمتد حاليا من الخازندار حتى باب الحديد وكانت تحدها بركة الأزبكية من الجنوب وتطل من الشمال على منطقة زراعية واسعة هى منطقة الفجالة الحالية كما تحدها من الغرب ترعة تخرج من النيل شمالى المتحف المصرى الحالى وتسمى الترعة البولاقية لأنها كانت تفصلها عن بولاق وكانت تصلها بالمنطقة قنطرة تسمى بقنطرة الليمون وما زال هذا الحى يحمل اسمه حتى الآن وهو حارة النصارى ويحترف أهل هذا الحى بتجـــارة العلف والشموع والبخور والعطارة . وقامت على أطرافها قلعة بناها المعلم يعقوب حنـــا عند حارة الجبرونى وكان الحراس يحرسونها ليل نهار .

---

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ١٥ .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ١٢٨ .

وتقوم المنطقة الثانية على ضفة النيل اليمنى فى مواجهة النهاية الجنوبية لجزيرة الروضة وهى منطقة مصر القديمة حيث يوجد دير ماركوريوس الشهير بأبى سيفين وكنيسته التى تعتبر من أجمل الكنائس لاحتوائها على جملة احجبة من خشب الابنوس المطعم بالعاج ومجموعة من ايقونات قديمة . كما يوجد بعض الكنائس القديمة مثل انبا شنودة واستفانوس الشهيرة بالمعلقة لبنائها بأعلى أحد أبراج الحصن الرومانى المعروف بقصر الشمع وكانت مقرا للبطريركية حتى القرن الحادى عشر حين انتقلت منها الى أبى سيفين الى حارة زويلة فحارة الروم (١) وهناك أيضا كنيسة أبى سرجة التى تقع بأسفلها كنيسة أخرى صغيرة يقال انها انشئت مكان المنزل الذى أقامت به السيدة العذراء والمسيح وخطيبها يوسف أثناء وجودهم بمصر هربا من وجه هيرودس ثم كنيسة السيدة بربارة وكنيسة مار جرجس .

أما المنطقة الثالثة فتنحصر بين خان الخيلى والخليج المصرى وهى الصاغة الحالية واحترف أهلها صياغة الذهب والفضة وتسليف النقود مقابل الرهون والمنسوجات وكان فلاحو القرى يقصدونها حال نزولهم للقاهرة لتجهيز بناتهم وسكن قليل منهم الغورية وبولاق والحمزاوى واشتغلوا بالتجارة (٢) .

وكانت دكاكينهم التى تراكم فيها تجارتهم تطل على الحارات الضيقة وهى فى نفس الوقت مداخل بيوتهم وهى تقود الى حوش كبير غالبا ما يحمل اسم صاحبه مثل حوش الشماع تطل عليه المنازل التى على هيئة مربع يحيط بهذا الحوش .

وكان سكان القاهرة من المسيحيين يعيشون فى رفاهية نسبية عن سكان القرى كما كانوا يهتمون بتعليم أولادهم الحساب والقراءة العربية وبعض التراتيل الدينية بل اهتم بعضهم بدراسة اللغة القبطية واتقانها وغالبا ما كان يقوم بمهمة التعليم بعض القسس يعاونهم بعض المدنيين الفقراء

---

(١) الكافى ج ٤ ص ١٠٦ .
(٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٢٨ .

وكان يطلق عليهم اسم الخوجة بل تعلم بعضهم اللغات الأجنبية بفضل اتصالهم ببعض التجار الأجانب الذين كانوا يعيشون فى القاهرة .

وقد سكن كثير من الاقباط الصعيد لا سيما مدن أخميم وقوص ونقادة واسيوط وقد كان ثراء تجار اسيوط يصور لنا مثلا حسنا لمقدرة الاقباط التجارية . فقد اشتغل كثير منهم بالتجارة مع السودان فكانوا يستقبلون ما يرد منه من العاج وريش النعام والرقيق ويقومون بتوزيعه فى جميع انحاء البلاد فعند اسيوط ينتهى درب الأربعين الذى يبدأ من الفاشر ويقطع الصحراء الغربية شمالا حتى ينتهى الى اسيوط فلا غرابة اذا اتخذ سلطان دارفور المعلم غبريال شنودة أحد تجار أسيوط وكيلا له فى مصر ليستقبل قوافله الواردة وكانت تبلغ فى بعض الأحيان خمسة عشر الف جملا كما يجهز القوافل الصادرة ويحصل له أثمان ما يبيعه حيث كان السلطان هناك يحتكر معظم تجارة سلطنته . وكانت علاقة هذا السلطان بالمماليك متوترة دائما لا يثق بهم ولا يأمن اليهم فاذا بلغه نبأ وصول نابليون واتجاهه الى القضاء على المماليك أرسل اليه يهنئه قائلا « لى الشرف أن أبلغكم ان اخبار انتصاراتكم قد وصلت الينا وعلمنا بالسرور نبأ انتصاركم على المماليك واسلامكم ومداومتكم على مراعاة جانب الاجانب وقد أعطينا هذا المرسوم الى قائد القافلة يوسف الجلابى ليؤكد لكم صداقتنا التى سوف تكون دائمة باذن الله . ونحن نؤكدها لكم بكل حرارة لأجل أن تحافظوا عليها ونقدم اليكم ألف تحية وتحية (١) .

ويجب أن نسجل لاقباط هذا العصر كثيرا من المفاخر التى استحقوا لأجلها كثيرا من المديح والثناء أولها انهم تلهلا ما كانوا يخضعون لما يصدر اليهم من الأوامر والنواهى التى تتعلق بمعاملاتهم وأزيائهم وركوبهم وغير ذلك فكثيرا ما ابتنوا البيوت العالية وسكنوها رغم أوامر الحكومة بأن لا تعلو منازلهم فوق منازل جيرانهم وكثيرا ما ركبوا الخيول وساروا بها فى شوارع القاهرة واتخذوا لهم الأتباع والأعوان . وتمتع بعضهم بكثير من أسباب الجاه والثروة فتقرب اليهم الناس طلبا لحمايتهم .

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٦٧ .

وشىء آخر يجب أن يفتخر به اقبـــاط مصر أنهم فى وسط هذا الخضم من القومية الاسلامية لم يكن هناك من دليل واحد على بقاء القومية المصرية الحية سوى هؤلاء الأقبـــاط الذين احتفظوا بأسمائهم القبطية دليلا على مصريتهم بل حرصوا على أن يعطوا أولادهم هـــذه الأسماء المميزة ليميزوا انفسهم كمصريين فى وسط هذا البحر الذى لم يكن يعرف فيه المصرى من غيره من رعاية الدولة . فكانوا مثلا حيا للقومية المصرية حتى اذا رأوا بوادر أمل فى احياء هده القومية لم يكونوا يترددون فى تشجيعها واذا كان التاريخ قـــد سجل لنا ثورة على بك الكبير على الحكم التركى ومحاولته الاستقلال بمصر عن السلطان وسعيه فى استعادة القومية المصرية واحيائها فى رأى بعض المؤرخين (١) أو محاولته فقط التمع بمركز مرموق فى الدولة فى رأى البعض الآخر (٢) فان الاقباط كانوا من ورائه يشجعونه وينظمون له حركته ويعينونه على القيام بهـــا فقد كان المعلم رزق اليد اليمنى لعلى بك الكبير والقـــــوة الدافعة من ورائه (٣) واليه يرجع الفضل فى التنظيم المالى الذى استند اليه على بك سواء فى مصر او سوريا . كما كان المعلم يعقوب والمعلم الياس بقطر اكبر عون لمراد بك فى محاولة الخـــــروج عن السلطان وكذلك المعلم غبريال سيداروس من ابراهيم بك بل اشترك هؤلاء فى تدريب الجند المصرى وابلوا بـــلاء حسنا فى المواقع التى دارت وان انتهت بفشلهما وعودتهما الى طاعة السلطان .

ويحدثنا الجبرتى فى جزئه الاول عن المعـــلم رزق أنه كان رجلا حازما ومدبرا يقظا وانه كان على شىء من العلم وعلى الأخص علم الفلك الذى مهر فيه بينما كان على بك من المصدقين بصدق المنجمين .

بدأ فى اول عهده سكرتيرا لدار سك النقود ورفعته ثقة على بك الكبير به الىمدير حسابات الحكومة وقتئذ وذلك على الرغم من قســـوة على بك

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٣٨١ — مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ٧٠ .
(٢) على بك الكبير ص ٦٠ .
اسمه الاصلى يوسف بن داود ، ولد سنة ١٧٢٨ بالاناضول ، أبوه قس رقيقا الى أبراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنا أعتنق الاسلام وتسمى يونانى وبيع رقيقا الى ابراهيم بك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وهنـــا اعتنق ألاسلام وتسمى باسم على .   (٣) محمد فؤاد شكرى ص ٢٦ .

على القبط ثم رفعته هذه الثقة أيضا الى رئاسة الدواوين واعتمد على بك عليه فجعله مع القيام بوظيفته مستشاره الخاص فى تدبير شئون الدولة وعاون على بك معاونة صادقة فى تحقيق أغراضه التى كان يهدف اليها من الاستقلال بمصر ورفع الحكم العثمانى عنها فتوافر للمعلم رزق من النفوذ والسلطة ما لم يتوافر لأحد من رجال الدولة . وقد استخدم المعلم رزق لمعاونته فى عمله كثيرين من الأقباط رغم كراهية على بك الكبير لهم فكان المعلم رزق بذلك صاحب مدرسة تؤهل الأقباط لأن يحتلوا أكبر مناصب الدولة لكفائتهم وأمانتهم وسعى فى أوقات كثيرة كما يقول الجبرتى فى منع الاضطهاد عن القبط ورفع الذلة عنهم .

ولم يحاول الأمراء والمماليك استخدام هؤلاء الاقباط لكفائتهم البارزة فى الامور المالية فحسب فكانوا بمثابة وزراء المالية لهم ويبدو ان كفائتهم فى هذه الناحية كانت فذة وأمانتهم فوق مستوى الشبهات مما جعل مرتباتهم مرتفعة لا يدفعها الا من وصل حدا كبيرا من الثراء حتى اننا نجد الجبرتى عندما يريد أن يبالغ فى اظهار ثراء أحد الناس فانه لا يجد عبارة يدلل بها على عظم ثروته غير عبارة (واستخدم الأقباط) وربما يكون هناك هدف آخر من وراء انضمام الاقباط الى المماليك فقد كان هؤلاء الآخرون العنصر الذى اغتصب منه الاتراك السلطة والذى كان تواقا للخلاص منه ويتطلع الى اليوم الذى تتخلص فيه البلاد من هذا الحكم التركى الاجنبى البغيض لتعود الى استقلالها السابق فكان اتحاد الاقباط معهم بمثابة اتحاد العناصر الثائرة ضد الاستعمار الاجنبى ترقبا ليوم الخلاص اى وحدة الغاية والهدف هى التى جمعت بين هذين الخصمين السابقين .

ويبدو ان نشاط المعلم رزق كان متجها أكثر ما يكون الى الاخلاص فى خدمة سيده على بك الكبير بينما كان تلميذه المعلم ابراهيم الجوهرى متعدد جوانب النشاط فالى جانب تدبيره مالية على بك ثم محمد بك أبو الدهب ثم ابراهيم بك لم يكن يألو جهدا فى خدمة طائفته ما وسعه ماله ونشاطه فيذكر عنه السنكسار انه كان من عادته على ما روى معاصروه أن يقسم ماله الى ثلاثة اقسام يخصص منها الثلثين للفقراء والانفاق على نسخ الكتب ووقفها وتقديمها من حين الى آخر الى البطريرك يؤنس الثامن

عشر وقد كانت كثرة الكتب التى قدمهـــا منسوخة الى البطريرك سببا فى دهشته حتى ســـــأله فى ذلك فكشف له عما يفعله فسر البطريرك من غيرته وتقواه وباركه قائلا (ليرفع الرب اسمك ويبـــارك عملك وليقم ذكراك الى الأبد) .

ولم يحدثنا التاريخ عن موطن ابراهيم الجوهرى أو نشأته فما زال نسبه مجهولا . كان فى أول أمره كاتبا لأحد الامراء المماليك ثم ترك خدمته وأصبح عاطلا فالتمس من البطريرك التوسط له لدى المعلم رزق الذى كان موضع ثقة على بك الكبير فاتخذه كاتبا خاصا به .

واذا ما عصفت ريح السياسة بعلى بك وخلفـــــه محمد أبو الدهب استبقى ابراهيم الجوهرى فى خدمته استقر الرأى بين جميع كتبة مصر على أن يخلف ابراهيم رزقا فى وظيفته فانتهت اليه رئاسة الدواوين .

وانتهت أيام محمد أبو الذهب وذهبت سلطته كما ذهبت سلطة سلفه على بك الكبير وانتهى الأمر الى يـــد ابراهيم بك ومراد بك على أن يتبادلا مشيخة البلد وامارة الحج سنويا فقلد ابراهيم الجوهرى رئاسة الدواوين فى مصر كلهـــا وهنا تجلت مواهبه فأصبح صاحب الكلمة المسموعة لا يعلوه غير الحـــاكم الأعلى .

وقد استطاع الرجل فى هذا المنصب رغم ما ناله فى بعض الأحيان من اضطهاد ومصادرة أن يمنع عن الأقبـــــاط بعض الأذى اذ تمكن بنفوذه من استصدار بعض الفتاوى التى تجيز اعادة ما تهدم من الكنائس وأوقف عليها الأموال الكثيرة اذ لم يكن له الا ولد واحد مات فى شبابه (١) .

وقد ذكر الجبرتى مؤرخ هذا العصر ان المعلم ابراهيم (كان رجلا عظيما فى خلقه وفى علمه . سخيا كريما الى أبعد حدود الكرم . أما عن خلقـــــه الشخصى فقد كان وقورا فى دعة . متواضعا فى رفق ولين . طيب السريرة . عطوفا . يرفق بالمحتاجين يواسى البائسين كمـــا كان رحب الصدر واسع

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٢٨٩ .

الحلم . عادلا فى معاملة جميع النـــاس) . واذ ما مات فى ٣١ مايو سنة ١٧٩٥ حزن عليه ابراهيم بك حزنا شديدا وخرج ليشهد جنازته أثناء مرورها بالقصر العينى وقد رثاه الجبرتى مع ما عرف عنه من تحيز ضد المسيحيين فقال : (ومات الذمى المعلم ابراهيم الجوهرى . رئيس كتبـــة الأقبـــاط فى مصر . أدرك فى هذه الدولة من العظمة ونفـــاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة ما لم يسبق لمثله من ابناء جنسه . وكان من دهاتين العــــالم . ودهاتهم . لا يغرب عن ذهنه شىء من دقائق الأمور . ويدارى كل انســـان بما يليق من المداراة . ويحابى . ويهادى.ويواسى الأمراء عند دخول رمضان وعمرت فى أيامه الكنائس وديور النصارى وأوقف عليهـــا الأوقاف الجليلة والأطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والارزاق الدارة والغلال) (١) .

ولعلنا لا ننسى ان بناء الكنيسة المرقسية فى شارع كلوب بك يعود الى حسن تصرفه وذكائه كما يعـــود الى كرمه اذ انتهز فرصة مرور احـــدى الأميرات بمصر لأداء فريضة الحج فخدمها بنفسه واكرمهـــا اكراما زائدا فى ذهابها وعودتها وأهدى لهـــا الهدايا الفاخرة فحصل بواسطتها على فرمان برفع الجزية عن الرهبان وأذن ببناء الـــكنيسة الكبرى بالأزبكية حيث مقر سكنه ولكنه توفى قبل بنائها فقام بذلك أخوه المعلم جرجس (٢) .

أما عن نفوذ الكنيسة القبطية خارج اقليم مصر فقد كانت رئاستها تمتد الى اثيـــوبيا والسودان منـــذ أن دخلت المسيحية الاولى فى القـــرن الرابع الميـــلادى أيام البطريرك اثناسيوس الرسولى . الثانية فى القــــــــرن السادس (٣) .

أما فى الأولى فقد كان البطريرك المصرى هو الذى يعين المطران هنـــاك وكان فى العادة مصريا ولم يكن للكنيسة القبطية الا اثر قليل هناك حتى القرن الثالث عشر رغم ما ترجم من الكتب القبطية واليونانية الى اللغـــة الاثيوبية

---

(١) الجبرتى جـ ٢ .
(٢) السنكسار جـ ٢ .
(٣) يرجع الى كتاب (كنيسة الاسكندرية فى افريقيـــا) للمؤلف لمزيد من التفاصيل .

وما كان من سفر الرهبان المصريين الى هناك وانشائهم الآديرة ثم تعليمهم المبادىء المسيحية للكهنة والشعب .

الا ان المسيحية بدات تؤثر تأثيرا ظاهرا وتتغلغل فى الشعب منذ القرن الثالث عشر حين اهتمت الأسرة السليمانية وعلى رأسها الأمبراطور يكونو ملاك ثم ابنه يجبيا صيون بالتنازل للكنيسة عن ثلث أراضى الدولة (١) ثم انشاء منصب الاتشيجى ليكون حلقة اتصال بين الأكليروس الوطنى والمطران (٢) وكذلك انشاء المدارس الدينية الملحقة بالأديرة والكنائس لتعليم الناس أصول الدين ثم تخرج الكهنة اللازمين للشعب (٣) .

ومنذ هذا الوقت أخذ الأباطرة متوالين فى الاكثار من بناء الكنائس ووقف الأوقاف عليها وانشاء المدارس الدينية فكان من أثر ذلك انتشار المسيحية وازدهارها هناك والقضاء شيئا فشيئا على الديانات القديمة والمعتقدات القديمة وان بقيت بعض الطقوس التى لا تتنافى مع المسيحية فى شىء .

وجرت العادة ان يكون تعيين المطران اثر مجىء وفد اثيوبى مكون من بعض المدنيين والكهنة يحمل خطابا الى البطريرك فيه نبأ وفاة المطران السابق مع رجاء تنصيب مطران جديد وكذلك خطابا آخر الى صاحب السلطة فى مصر برجاء السماح للبطريرك بتنصيب المطران من أجل دوام العلاقات الطيبة بين اثيوبيا ومصر كما جرت العادة أيضا أن يحمل الوفد معه هديتين ثمينتين احداهما الى البطريرك والأخرى الى السلطان (٤) .

ويعتبر المطران منذ رسامته رأسا للكنيسة الاثيوبية وأهم واجباته تنصيب الكهنة الاثيوبيين بعد استشارة الاتشيجى بينما كان أهم حقوقه تتويج الأباطرة وعزلهم اذا ما ارتكبوا ما يهدد سلامة البلاد أو عقيدة الشعب (٥) .

---

(١) Bulletin T. VIII, Bridge, Vol I p - 312.

(٢) تاريخ تكلا هيمانوت الحبشى مخطوط رقم ٢٠ بمكتبة بطريركية الاقباط الأرثوذكس .

(٣) Bridge P. 304

(٤) السنكسار ج ٢٦٢ برمهات ١٣ بئونة ، ١٢ بشنس برمودة .

(٥) Bridge, Vol. II P. 545

وكان البطريرك فى مصر يراقبـــه عن كثب ويكتب اليه مرتين كل عام مستفهما عن اخبار رعيته هناك وكثيرا ما كان الحكام المصريون يضيقون بهذه الكتب عندما تحمل اخبارا من مصر عن اضطهاد بعض الحكام للأقباط (١) فيكون ذلك سببا فى تدخل أباطرة اثيوبيا لدى السلاطين كى يحسنوا معاملة الاقباط فى مصر لقاء حسن معاملتهم للمسلمين هناك فيستدعون البطـــريرك ويهددونه بل قد يسجنونه انتقاما منه لأنه حمل اخبار هذه الاضطهادات (٢) .

ولكن هذا البطريرك المصرى وهذه العـــلاقة بين مصر واثيوبيا كثيرا ما كانت ايضا سببا لرباط من العودة والصداقة يربط كلا من مصر واثيوبيا فتسير الرسل والوفادات من مصر واليها (٣) ، كما تكون سببا لنشاط تجارى بينهما أيضا . وكثيرا ما كان الأباطرة الاثيوبيين يلجأون الى مصر بسبب هذه العلاقة الدينية اذا ما احتاجوا الى الصناع المهرة فى الفنون المختلفة فلم تكن مصر تبخل بارسال ما يريدون .

وظلت الكنيسة الاثيوبية تابعة للكنيسة المصرية تعترف الاولى ببنوتها للثانية وترعاها رعاية الأم لوليدها . ولم يكن البطاركة أو المطارنة المصريون يحاولون التدخل فى الامور السياسية بل ظلت رعايتهم قاصرة على الامور الكنسية .

فكان من أثر ذلك ان اينعت المسيحية فى اثيوبيا وازدهرت وان لقى الشعب من الأباطرة والأمراء كثيرا من الأذى بسبب ما ساد البـــلاد من اضطراب نتيجة لاختلاف الامراء وتطاحنهم حول العرش (٤) .

أما فى السودان فكان الأمر مختلفا فقد دخلت المســـيحية فى القرن

---

(١) البدر الطالع ص ٢١٠ .
(٢) المقريزى . السلوك جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٣) Bulletin de la société d'archéologie copte vol VIII.
(٤) رفع من درجة المطران الى بطريرك جاثليق فى الاتفـــاقية الاخيرة من الكنيسة المصرية والاثيوبية سنة ١٩٥٩ .

السادس وتبعت الكنيسة السودانية الكنيسة المصرية وكان أهل السودان متأثرين الى حد بعيـــد بالثقافة المصرية والحضارة ، فكانت الكنيسة المصرية هى التى ترسل اليهم بالمطران والكهنة ويقوم الملوك ببناء الكنائس وتزيينهـــا على الطريقة المصرية وبدخـــــول مصر ضمن دائرة الامبراطورية الاسلامية حاولت الجيوش الاسلامية التوغل الى هناك الا أنها لقيت من قوة مملكة النوبة المسيحية ما صدها فاكتفت منهـــا بمعاهدة ترسى العلاقة بينها على أساس من الصـــداقة لقـــــاء تبادل تجارى بين النوبة ومصر وكان الرقيق والمنسوجات والغلال أهم ما يتبادلانه .

ولم يتح الزمن للمسيحية فرصة كافية لأن تتمكن من السودانيين كما تمكنت فى اثيوبيا فظلت المسيحية هناك طلاء لكثير من المعتقدات الوثنية كما كان المطـــران المصرى والـــكهنة المصريون بسبب جهلهم لـــكثير من عادات السودانيين ولغتهم غير قـــادرين على اعطــــــاء المسيحية جذورا عميقة فى السودان . كما لم يهتم الملوك هناك بانشـــــــاء المدارس المسيحية لتعليم الشعب العقيدة المسيحية . فأخذت الثقـــــافة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية فى الوهن والضعف هناك . وزادها ضعفا ما كانت عليه الكنيسة المصرية من ضعف أيضـــــا وما لقيته من سوء معاملة فى بعض الأوقات سواء من بعض الولاة الأمويين أو العباسيين (١) أو بعض الخلفاء الفاطميين كالحاكم بأمر الله أو السلاطين المماليك .

واذا ما تدخلت دولة المماليك فى الخلافات المستمرة بين ملوك السودان، ونجحت حملة السلطان قلاوون فى عزل آخر ملك مســــــيحى هو كارامبوس وتولية عبد الله بن شنبو واعتناق هذا الاخير الاسلام كان هذا ايذانا ببدء الانهيار السريع للمسيحية هناك .

هذا الى أن السودان لقى من ظروفه الداخلية وهى انقسامه الى أكثر من مملكة مسيحية ضعيفة وكذلك هجرة القبـــــائل العربية اليه سواء من

---

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٣ ، ٢٦ ، ٥٤ ، ٦٢ ، ١٦٥ ، ٢١٦ .

الشمال أو الشرق ما زاد فى ضعف المسيحية ، بل وانهيارها فقد استقر كثيرون من العرب هناك واصهروا الى السودانيين ورغب السودانيون فى هذه المصاهرة ليتخذوا منهم حماة ودروعا ضد هجمات تجار الرقيق الذين كانوا يهجمون على المسيحيين ويتخذونهم رقيقا ويبعثون بهم الى أسواق الرقيق فى فارس والجزيرة العربية والدولة الرومانية الشرقية واوروبا . فلم يجد المسيحيون هناك أمامهم سوى أن يرتموا فى احضان الاسلام وان يصهروا الى هؤلاء العرب القادمين (١) .

وكان قيام دولة الفونج فى القرن السادس عشر فى حوض النيل الاوسط قرينا باختفاء المسيحية هناك ولعل الكنيسة القبطية فى القاهرة هى المسئولة الوحيدة عن هذا الاختفاء اذ لم تحاول منذ أن تبعتها الكنيسة السودانية فى القرن السادس أن تعطى المسيحية جذورا عميقة فلم تبذل اية محاولة لاقتلاع جذور الوثنية التى كانت متغلغة فى نفوس السودانيين كما لم تحاول أن تقيم من السودانيين كهنة وقسوسا على نحو مافعلت فى اثيوبيا — — ليستطيعوا بدورهم ان يقيموا المسيحية على دعائم ثابتة قوية — وقد يكون سوء حال الكنيسة القبطية خلال الحكم التركى وما لاقته من الاضطهاد عذرا لها على هذا الاهمال . ولكن ذلك لا يكفى لتبرير هذا الاهمال لا سيما وأن الاسلام عند دخوله الى السودان لم يدخله عن طريق أئمة أو معلمين بل عن طريق بعض القبائل المسلمة التى لم تقصد مطلقا نشر الاسلام أو عن طريق تجار الرقيق الذين ارغموا المسيحيين — عن طريق غير مباشر — على اعتناق الاسلام ، وأخيرا عن طريق اصحاب الطرق الصوفية الذين قصدوه سواء من طرابلس أو مراكش او الحجاز واخذوا فى انشاء الزوايا ، ولذا كان تأثير هؤلاء الزعماء المحليين وتأثير هؤلاء الأولياء أكثر من أى شىء آخر فى نفوس السودانيين الى ما بعد الحكم المصرى . واذا ما وصلنا الى نهاية القرن السابع عشر لم يعد للمسيحية أثر مطلقا فى السودان كأنها لم تظهر هناك بتاتا وكأن السودانيين لم يكونوا يوما مسيحيين .

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر (كنيسة الاسكندرية فى افريقيا) للمؤلف .

الباب الثانى

الحملة الفرنسية

جاءت الحملة الفرنسية الى مصر بقيادة نابليون بونابرت فى أول يولية سنة ١٧٩٨ تبغى أغراضا لا تتعلق بمصر نفسها ، كما لا تتعلق بتركيا صاحبة السيادة على البلاد ، ولكن تبغى اغراضا خارجة عن نطاق الدولتين . فقد استحكمت العداوة بين انجلترا وفرنسا وعز على فرنسا أن تقابل الاولى فى ميدان برى حيث كان لها السيادة الحربية ، فأرادت أن تختار مكانا حساسا من بريطانيا يرغمها استيلاء فرنسا عليه على أن تركع لها طالبة الصلح — كما فعلت النمسا وبروسيا وروسيا ، أعضاء التحالف الدولى من قبل[1] .

ورأت فرنسا أن يكون هذا المكان الحساس هو مصر لانها فى طريق انجلترا الى املاكها فى الشرق الأقصى . وبسبب ضعف المماليك ونزاعهم المتواصل مع أنفسهم تارة ومع تركيا تارة أخرى . وبسبب تخلف كل من تركيا والمماليك عن النظم الحربية ومستوى الأسلحة السائدة ، وكذلك بسبب حرمان المصريين من الاندماج فى سلك الجيش ، استطاع الفرنسيون أن يتغلبوا بسهولة على مقاومة المصريين اليسيرة فى الاسكندرية ، فدخلوها . واذاع قائد الحملة منشورا على المصريين أنه صديق لهم ، لا ينبغى سوى تخليصهم من هؤلاء المماليك الذين أهدروا مصر والتجارة الفرنسية ، ويمنيهم بالمساواة التامة التى حرموا منها وقتا ليس بالقصير ، كما يفتح أمامهم باب تولى المناصب فى بلادهم (ولكن بعونه تعالى — من الآن فصاعدا — لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السمية ، وعن اكتساب المراتب

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧ .

العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء سيدبرون الأمور) (١) . وكان هذا المنشور باللغة العربية .

ولقد حاول المصريون فى الاسكندرية أن يدافعوا عن بلدهم رغم قصور أسلحتهم ونظمهم ورغم ادراكهم هذا القصور . ورأس البطل محمد كريم هذا الدفاع . فعرف الفرنسيون قدره فأكرموه . الا أنهم سرعان ما تبينوا خداعه فأعدموه . وكان هذا الرجل فى دفاعه عن وطنه ضد المغيرين بطلا وطنيا حقا لولا هنة بسيطة لارتفع قدره الى مرتبة الشهداء . وهى أنه قال للأسطول البريطانى الذى وصل الاسكندرية قبل قدوم الفرنسيين بحثا عنهم « ان هذه البلاد ليست بلادكم ولا بلد الفرنسيين انما هى بلد السلطان » ولو قال انما هى بلادنا لاستحق تقدير الوطن حقا . ولكن للرجل عذره ، فقد تكلم بعقلية العصر وقد سيطرت على عقله القومية الاسلامية : فهى القومية التى اعتنقها المصريون منذ اعتنقوا الاسلام وخضعوا للخلافة الاسلامية .

ونجح الفرنسيون فى أن يتقدموا الى القاهرة ويستولوا عليها بعد أن حطموا قوة المماليك ودخلوا القاهرة فوجدوا المماليك قد نهبوها . وكانت بيوت الأقباط بل جميع المسيحيين أول هدف لهم ، نهبها العسكر العثمانى . وفر جميعهم الى الصعيد أو الى الشام وفر معهم بعض المصريين كالسيد عمر مكرم . كما طاف الرعاع بالمدينة ينهبون بيوت المسيحيين على اختلاف أجناسهم . ويقتلون منهم من يصادفونه دون تمييز بين الرجل والمرأة (٢) .

واذا استطعنا أن نفهم السبب الذى من أجله فر المماليك الى الصعيد أو الشام فالحملة لا تقصد الا القضاء عليهم كقوة محاربة أولا وكقوة متسلطة ثانيا ، كما أعلن قائد الحملة صراحة ، الا أننا لا نستطيع أن نفهم لماذا هرب هؤلاء المصريون وكلهم ذو مكانة تحتم عليهم ان يشاركوا قومهم ضراءهم تحت حكم الفرنسيين كما شاركوهم هذا الضر تحت حكم العثمانيين

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٧ .
(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٣ .

ولا ادرى ماذا دار بخلدهم ودفعهم الى هذا الفرار . اكانوا يتصورون ان ضرر هؤلاء الغزاة سوف يكون مريرا قاسيا ؟ أم كانوا يتصورون ان الدولة العثمانية قـــادرة على استرداد مصر ، وان واجبهم يحتم عليهم أن يكونوا بجانب هذه القوات الزاحفة لاستردادها ؟ ولماذا فضلوا ان يكونوا تحت الحكم العثمانى الفاسد على أن يكونوا تحت حكم فرنسى لم يعـرفوا اكان فاسدا فساد الحكم التركى أو دونه أو يفوقه . لا اجد تعليلا لهذا الهرب سوى ان هؤلاء الناس تصرفوا تحت تأثير ما اعتنقوه منعصبية اسلاميةجعلتهم يفضلون ان يكونوا تحت حكم فاسد ظاهره اسلامى على أن يكونوا تحت حكم (كافر) وان كان صالحا .

ولذا لا أستطيع مطلقا ان أقف الى جانب هؤلاء الناس فى تصرفهم هذا . ولو بقوا ليقاسموا المصريين ما سوف يجدونه من ضر لـكان موقفهم أكرم وأفضـل .

دخل الفرنسيون القاهرة دون مقاومة تذكر . ولم يكن المصريون يملكون ما يقاومونهم به بعـد أن هرب هؤلاء المحاربون (الأبطال) . ولم يلبث قائدهم ان أذاع على القاهريين منشورا كمنشوره الأول الـذى أذاعه فى الاسكندرية وهو منشور اتفق المؤرخون جميعـا على أن ما جاء به يوقظ قوميتهم المصرية (١) التى نامت خلال عشرة قرون طويلة .

وكان فى استطاعة المصريين أو زعمائهم الـذين وجدوا أنفسهم باعتراف المحتلين فى مكان الصدارة وقد حرموا القدرة على مقاومة المحتل الجديد أن يتمسكوا بما جاء فى هذا المنشور ويطالبوا به حتى يكتب الله لهم فرجا مما هم فيه ولكن مما يؤسف له أنهم لم يفعلوا .

وأخذ الفرنسيون بعد احتلالهم القاهرة فى نشر نفوذهم فى كل أنحاء مصر ثم بدأوا استغلال البلاد لصالحهم .

ولأجل الامر الاول (نشر نفوذهم فى كل أنحاء البلاد) أرسلوا الحملات

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٣ .

الحربية الى أنحاء البلاد المختلفـــة وكان اهمهـــا حملة الجنرال دبزيه التى أرسلت لاخضاع الصعيد . ولمطاردة المماليك الذين هربوا الى الصعيد وأمعن بعضهم فى الهرب حتى وصل الى السودان .

ومن اجل الامر الثانى (استغلال البلاد لصالحهم) أخذوا فى اصدار جملة من التشريعات التى ترمى الى تنفيذ بعض الاصلاحات من أجل ادخال البلاد ضمن نطاق الدول الحديثة . ومجرد القاء نظرة سطحية على هـــذه الاصلاحات تدلنا على انحالة التى كان المصريون يعيشون فى نطاقها . ومن هذه الاصلاحات :

١ ـــ تحريم دفن الموتى فى الجبانات القريبة من المساكن (١) .
٢ ـــ دفع المصريين الى تنظيف حاراتهم ودروبهم بكنسها ورشـــــــها يوميا (٢) .

٣ ـــ انارة الحارات والدروب بمصابيح تعلق أمام البيوت .
٤ ـــ تسجيل المواليد بدفاتر أعدتهـــا الحكومة وكذلك عقود الزواج وقسائم الطلاق (٣) مع دفع رسوم معينة على ذلك .

٥ ـــ تحتيم التبليغ عن الوفيات لتسجيلها فى دفاتر خاصة بذلك .
٦ ـــ هدم أبواب الحارات (٤) .
٧ ـــ جباية بعض الضرائب العاجلة لسد مصاريف الاحتلال (٥) .
٨ ـــ انشاء مكتب للتسجيل لتسجيل مستندات التمليك لوضع حد لكل نزاع قضائى .

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٠ .
(٣) محمد فؤاد شكرى ص ١٨٠ .
(٤) الجبرتى جـ ٣ ص ٢١ .
(٥) الجبرتى جـ ٣ ص ١٣ ، ١٨ .
وذكر محمد فؤاد شكرى ان نابليون طلب مبلغا كبيرا من الريالات الاسبانية من التجار وأرغم الاقباط على دفع مبلغ آخر .

فهـذه الأوامر ترينـا أن المصريين كانوا متخـلفين عن اقرانهم من الشعوب الأخرى بأربعة قرون على الأقل — وهى المدة التى قضاها الاحتلال التركى فى البلاد . فلا دفاتر لتسجيل المواليد أو الوفيات . والقـاذورات تتراكم فى الشوارع والدروب والحارات . والمدينة تنام اذا غربت الشمس . والموتى يدفنون فى البيوت . مما يعرض الأحياء لفتك الأمراض ويسهل ارتكاب الجرائم . كما كان أمر صـيانة الأمن موكولا الى أبناء كل حارة يتولونه بأنفسهم والحكومة لا تجـد ذلك من واجبها فلا يجد الأهلون وسيلة تمكنهم من ذلك سوى جعل باب كل حارة يغلق اذا ما غربت الشمس . مما يدل على أن مستوى معيشة المصريين كان خلال القرن الثامن عشر أقل بكثير مما كان عليه خلال القرن الثامن أو التاسع حين كانوا تحت حكم الطولونيين أو الفاطميين .

وأصدر الفرنسيون أيضا تشريعا بانشـاء مجلس يتكون من بعض مشايخ الأزهر وبعض الفرنسيين وهو المسمى بالديوان (١) لاجل أن يقدم المشورة الى الحاكم العام الفرنسى وهى خطـوة تدل على رغبة الفرنسيين فى اشراك المصريين فى الحكم ، وان كان هذا الاشراك فى نطاق ضيق وبطريقة معتلة ، اذ لم يكن هذا الديوان يملك حق المعارضة كما انه لم يكن ممثـلا لجميع طوائف السكان . فلم يكن لغير المسلمين ممثلون فيه .

وكان الديوان الصغير المكون من اثنى عشر عضوا نصفهم من المسيحيين برئاسة المعلم ملطى ليكون بمثـابة محكمة فى أمور التجـارة والمواريث والدعاوى وادارة للشهر العقارى من أجل مراجعة جميع حجج الملكية لتثبيتها وجباية رسوم الدمغـة عليها . ومن الطبيعى أن الفرنسيين لم يلجأوا الى المسيحيين من أجل انصافهم،ولا من أجل اتحادهم معهم فى الدين،فلم يكن ذلك من سياسة الفرنسيين فى شىء ، لا سيما وقد نبذوا الديانة المسيحية فىفرنسا قبل ذلك ببضع سنين ، بل لجأوا اليهم لما سمعوه عنهم وتبينوه من كفـاءة فيهم ومعرفة بعضهم للغة الفرنسية .

---

(١) محمد فؤاد شكرى ص ١٤١ .

ولا يملك الناقد مهما بلغت وطنيته الا أن يشكر الفرنسيين على مابدأوه من خطوات ، فالاصـــلاحات الأولى ضرورية للمصريين ضرورة الهواء الذى يستنشقونه . وهذا الديوان الأخير كان ولا شك من أجل الوقوف على رأى المصريين فى كل ما ينوى الفرنسيون اجراءه من تغيير فى نظم الحكم القديمة وهـــو يدل على رغبتهم فى المشاركة فى الحكم . ولم تكن تنتظر من محتل أجنبى متصرف أن يشرك الوطنيين فى اكثر من ذلك ، ولا أن يمالىء العنصر الغالب متجاهلا الاقلية بأفضل مما فعل .

وهناك حقيقة يجب التنبيه اليهـــا وهى ان هذه الحملة الفرنسية كانت موضع استنكار كثير من القواد الفرنسيين بل جاهر بهذا الاستنكار فريق منهم على رأسه الجنرال كليبر . فقد كان يرى ان الميدان الأوروبى أولى بالتفات الحكومة . فهو الميدان الحاسم فى نتيجة الحرب بين فرنسا وأعدائها. كما ان القيام بحملة بعيدة يفصلها عن فرنسا بحر يتسوده الاعـــداء خطوة غير موفقة . هذا الى ان ابعاد صفوة الجنود والقواد الفرنسيين عن فرنسا يعرضها لخطر انتقاض هؤلاء الأعداء . وقد تم هذا فعـــلا . وكان سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ثم الحربية التى وجدها الفرنسيون فى مصر قد ساعد على زيادة عدد الناقمين من القواد . وعلت أصوات القــــدامى منهم فى المعارضة والاستنكار ، بل ساعدت على سريان روح التذمر بين عامة الجند . الأمر الذى يهدد الروح المعنوية للفاتحين .

ولم يمض على قدوم الفرنسيين شهر حتى اصطدم الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط بالأسطول الفرنسى الذى ربض فى خليج أبى قير بعد أن انتهت مهمته بحمل الجنود الفرنسيين الى مصر ، ودارت الموقعة التى انتهت بتحطيم الأسطول الفرنسى وحصار الاسطول البريطانى للشواطىء المصرية ليمنع أى اتصال بين الفرنسيين فى مصر والحكومة الفرنسية فى باريس .

وكان أثر هذه الضربة على الفرنسيين عظيما فقد حوصروا فى مصر وأصبح عليهم أن يدبروا أمرهم معتمـــــدين على الموارد المصرية ، وعلى اخلاص المصريين للحكم الجديد ، وأن يأخذوا حذرهم من كل من تركيـــا وانجلترا اللذين سوف يتحدان لغرض احراج الفرنسيين وانزال الهزيمة بهم واخراجهم من مصر .

وقد عرف نابليون بونابرت كل هذه النتائج وتنبأ بها ، ولذا أخذت قبضته على مصر تزداد قوة ، واصلاحاته تتجه نحــو استغلال مصر بأقصى سرعة وبأقصى طاقة من أجل الدفاع عن الفرنسيين فيها ، فلا غرو ان قامت الثورة فى القاهرة . فى شهر أكتوبر ولما يمض على مجىء الفرنسيين ثلاثة اشهر — وهى الثـــــورة التى حرقت فيهـــا كنيسة حارة الروم . فأمر البطريرك مرقص الثامن بنقل البطريركية مؤقتا الى حارة النصارى . ويجمع المؤرخون على ان سبب هذه الثورة هو ضيق القاهريين بهذه الاجراءات التى نفذها الفرنسيون وانهم بدأوا يرضون عن الحكم الفرنسى لو لم يتخذ هــذه الاجراءات لتغيير طريقة معيشتهم عما ألفوه من قبل . فليس لنا مطلقــا أن نعزو هذه الثورة الى أسباب قومية اى رغبة القاهريين فى التخلص من الحكم الفرنسى . بل ان الحق يقضينا أن نقول ان الذى دفعهم الى هذه الثورة مجرد الرغبة فى الغــــاء هذه التشريعات الجديدة . فهى ثورة تشبه ثورة الطفل الذى يرفض أن يأخذ الدواء المر فهو لم يثر ضد والديه انما ثار من أجل اعطائه الدواء . وكان طبيعيا أن يلجأ الفرنسيون الى الشدة فى قمع هذه الثورة بعد أن رأوا الصعوبات تكتنفهم من جميع الجهات . فنصب نابليون المدافع على القلعـــة وصبها على مراكز الثورة . وهو اجراء رأيناه فى جميع محاولات الفرنسيين حتى انرقت الحاضر فى سحق ثورات الشعوب ، مما يدل على سرعة فقد الفرنسيين لصوابهم . ويزيد الأستاذ محمد فؤاد شكرى على هذا الاستياء من التشريعات، استياء المصريين من نجاح قوات (المشركين) وانتصاراتهم وكذلك العداء الدينى الــــكامن فى نفوسهم لغير المســـلمين ثم اشتهار الفرنسيين بشرب الخمر وخروجهم مع البنات المسلمات مكشوفات الوجوه فى الطرقات (١) .

وكان من نتيجة هذه الثورة امران همـــا الغاء الديوان بنظامه القديم واعادة انشاءه على نحو جديد هو اشراك غير المسلمين فيه . وقد قصد بهذا الاجراء اشعارهم بالذلة عن طريق مساواتهم بغــير المسلمين — الامر الذى لم يحدث منذ الفتح الاسلامى — بعد أن تنكروا لمـــا عاملهم به من قبل

---

(١) محمد فؤاد شكرى ص ١٧٥ .

من تفوقهم على غيرهم . وهذا الاجراء وان قصد به المعنى القريب الا أنه جعل الديوان أكثر ديموقراطية ، بعد ان أعطى جميع طوائف السكان ما كان للأغلبية من حقوق . وكان نابليون قد أسرع الى عزل قاضى القضاه العثمانى ، وطلب من العلماء ان ينتخبوا لهم مصريا بدلا منه وكتب الى المشايخ (ان قد انقضت وفرغت دولة العثمانلى من أقاليم مصر ، والعاقل يعرف ان علماء مصر لهم عقل وتدبير وكفاية أهلية للأحكام الشرعية يصلحون للقضاء اكثر من غيرهم) فرفضوا هذا الاعتراف بكفائتهم بل تشفعوا لدى نابليون ليبقى على القاضى العثمانى فلم يلقوا من نابليون غير الرفض المطلق وأخيرا انتخبوا مكرهين الشيخ أحمد العريشى (١) .

أما الأمر الثانى الذى تمخضت عنه الثورة فهو تفكير نابليون فى غزو سوريا من اجل الاستيلاء على شواطئها وموانيها التى تطل على البحر المتوسط ، والتى سوف يستطيع الاتصال بفرنسا عن طريقها وتلقى الأسلحة والملابس اللازمين لرجال حملته . فصناعات مصر لا تستطيع امداده بما يريده منها . وقد عرفنا من الباب السابق كيف ان هذه الصناعات كانت قاصرة على بعض المصنوعات السيئة الصنع التى لا تسد مطالب الفلاحين ليس غير .

ولكن دفاع حسن باشا الجزار عن عكا ، ثم أمداد البريطانيين المدافعين عنها بالسلاح فوتا عليه غرضه وعاد نابليون الى مصر وقد تحقق ان الأرض زلزلت من تحته وأن هذه الحملة فقد فشلت نهائيا ، فعول على أن يرحل الى فرنسا كى لا يتحمل مسئولية فشلها ، واستطاع فعلا أن يرحل فى غفلة من الأسطول البريطانى .

والقى عبء الحملة على الجنرال كليبر وترك له أوامر بأن يظل الأقباط قائمين على الشئون المالية وتحصيل الضرائب ولم يلبث الجنرال أن أجرى مفاوضات الجلاء خصوصا وقد تأيدت المخاطر التى كان قد تنبأ بها قبل رحيل الحملة ، فقد انقلب الميزان فى الميدان الاوروبى وعادت النمسا

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٧٧ ومحمد فؤاد شكرى ص ١٦٩ .

وحليفاتها الى شن الغارة على الأملاك الفرنسية واستردوا منهـــا أجزاء ليست باليسيرة ، وأصبح الميدان المصرى ميدانا ثانويا لا يستحق أن يحجز لأجله هذا العدد الكبير من خيرة الجند الفرنسى .

وتمكن كليبر بعد مفاوضات ليست باليسيرة أن يصل مع انجلترا الى شروط صالحة للجلاء ، فقد كانت انجلترا تواقة الى خروج الفرنسيين عن مصر بأى ثمن وان تحملت هى مصاريف رحيلهم . كما كان الفرنسيون أنفسهم تواقين الى هذا الخروج ، وبصفة خاصة أصبح كليبر تواقا لأن يطـــير الى باريس ليلحق بنابليون كى يلبسه عار ومسئولية هذه الحملة الفاشلة .

وكان تقـــدم المفاوضات السريع داعيا لأن يعطى كليبر الأوامر الى الفرنسيين المبعثرين فى مصر بالتجمع فى القاهرة ، أو فى مواضع قريبة من القاهرة ، من أجل الاسراع بالرحيل . كمـــا سمح لجيش تركى قادم من سوريا أن يجتاز الحدود الشرقية لتسلم المراكز التى يخليها الفرنسيون . وقد قدم مع هذا الجيش الاخير من سبق أن فر من المصريين الى سوريا وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف .

ووصل هذا الجيش الى الصـــحراء الشرقية وعسكر فيهـــا ريثما تصل المفاوضات الى نهايتها ويتسلم قائدها الأمر بالتقـــدم ولكن المصريين الذين رافقوه أسرعوا وسبقوا الجيش ودخلوا القاهرة حيث استقبلهم أهلها كأبطال فاتحين . كما تسلل اليها بعض الجنود بقيادة مصطفى باشا (فبادر بفرض ثلاثة آلاف كيس على الأهالى من أجل ترحيـــل الفرنسيين ، فغلت الأسعار (١) واشتد الضيق بالنـــاس . كما أمر بقتل النصـــارى (٢) وأرسل ابراهيم بك الى الشيخ المحروقى يطلب كساوى وطرابيش لجنوده (٣) ونزل الجند الى المدينة ينهبون ما تصل اليه أيديهم ، حتى لقـــد تمنى النـــــاس عودة الفرنسيين) (٤) .

---

(١) ج ٣ ص ٩٢ من الجبرتى .
(٢) نفس المصدر ص ٩٦ .
(٣) نفس المصدر ٩٣ .
(٤) نفس المصدر ص ١٠٧ .

« وذهبت طائفة منهم الى حارات النصـــارى وبين الصورين وباب الشعرية والموسكى نصاروا يكبسون البيوت ويقتـــلون من يصادفونه من الرجال والنساء والصبيان وشكى النـــاس الى مصطفى باشا فلم يلتفت اليهم » (١)

وكان ذلك بناء على تحريض نصوح باشا مما اضطرهم الى الهرب والتحصن فى قصر الألفى فى الأزبكية وهو الذى كان مقر القيادة الفرنسية العـــامة (٢) .

ولكن سرعان ما تعقـدت المفـاوضات حين رفضت وزارة الخـــارجية البريطانية أن يرحل الفرنسيون الى فرنسا ، بل أصرت أن تحملهم المراكب البريطـــانية الى انجلترا كأسرى حرب . وكان من الطبيعى يرفض كليبر ذلك ، فانقطعت المفاوضـات وأعطى الأوامر للفرنسيين أن يعـــودوا الى الأماكن التى كانوا يحتلونها من قبل ، كما أعطى الانذارات الى قائد الجيش التركى المتقدم من الشرق أن يعود أدراجه الى خارج الحـدود المصرية . وعو، على أن يظل فى مصر ويدافع جهـده عن مواقعه فيهـــا حتى تقتنع بريطانيا بوجهة نظره أو تحصل جيوش فرنســا فى القارة على نصر حاسم يرجع كفتها فى المفاوضات اذا عادت واستؤنفت .

وبدأت الادارة الفرنسية من جديد تعيـد تنظيم الضرائب وتحصيلها ، وكذلك تدبير أمر الذخائر اللازمة للجيش ، وكذلك المؤونة والملابس . ولا بد أن لمثل هذه الاجراءات التى اتسمت بالسرعة والشـــــدة أن تثير غضب القاهريين فانفجروا فى ثورتهم الثانية .

وقد حاول كثير من الكتاب أن يصف هذه الثورة أيضـــا بالقـومية ، فيقولون انهم ثاروا من أجل مقاومة المحتل . وأن ثورتهم هـذه كانت دفاعا عن قوميتهم التى استيقظت فجأة ، وان السيد عمر مكرم أخـذ يستحث الناس على الدفاع والمقاومة ، وانه صرف فى ذلك أموالا كثـيرة ، وان أهل

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٩٦ ،١٠.
(٢) محمد فؤاد شكرى ص ٣٣٣ .

الحسينية والجمالية لا سيما جزارو الحي الأول قد قاموا بدور فعـال هو المسألة بعينها (١) ونم بماك كليبر ازاء عنف الثورة التى اسـتمرت سبعة وثلاثين يوما الا أن يترك القـاهرة ويحاصرها ويمنع المؤونة عنهـا حتى تستسلم . وان الأهالى قد قاوموا هذا الحصار وما تعرضوا له من الجوع مقاومة جبارة جديرة بأن تكتب لهم فى سجل التاريخ ، وقـد تـكفل غنيهم بفقيرهم فأرسلوا لهم ما يكفيهم طيلة مدة الحصار ، وأخيرا لم يستطع هـذا الشعب الباسل أن يفعل أكثر من طاقته فاستسلم وأرسـل المشايخ لذلك ودخل الفرنسيون القاهرة واستردوها .

أما استبسال أهى القاهرة فى الدفاع وتحملهم الشدائد طيلة هذه المدة من أجل الانتصار فجدير بالاعجاب حقـا ، وبطولتهم هذه جديرة بالتسجيل . ولكن البعيد عن التصديق أن يكون سبب هذه الثورة قوميا . فليس هـو أكثر من انتفاضة دفعهم اليهـا السيد عمر مكرم ومن تسرب الى القـاهرة من المماليك كالأمير حسن الجداوى ومن تسرب اليهـا أيضا من الأتراك ، كى يبرهنوا لأسيادهم القادمين أنهم لهم نعم العون ، وأنهم لم يستسلموا للحكم الفرنسى . فمثل هذه التهمة كافية لان تدفع بهم الى الموت من يدحاكم تركى أو قائد تركى قادم لا يعرف الا لغة السيف دون أن يردعه وازع من ضمير أو قانون . وقد أحسن القاهريون بزعمائهم الظن ، كما هى عادتهم ، فاندفعوا فى ثورتهم وتحملوا جميع الضربات وحـدهم حتى اذا انتهت الثورة بالفشل أسرع الزعماء بالهرب الى الصالحية (٢) وكان موقف القـاهريين فى هـذه المذبحـة كموقف الجيش المصرى البـاسل فى حـرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ حـين ذهب ليحقق مثـلا عليا تجول فى ذهنه وصورها له زعماؤه ومات واستشهد من استشهد ، بينما كان مشعلو الحرب فى القاهرة ينعمون باحصاء ما كسبوه من مال ثمنا لهـذه الدماء المراقـة الشهيدة .

وكان نجاح الفرنسيين فى سحق ثورة القاهرة ، ثم استرداد الأماكن التى كانوا قد أخلوها ، وفى اقامة بعض الصناعات فى مصر . كذلك جبن الأتراك عن أن يقابلوا الفرنسيين فى معـركة شريفة ، ونجـاح نابليون فى

(١) الجبرتى ج ٢ ص ١٠٨ . (٢) الجبرتى ج ٢ ص ١٠٩ .

استرداد شمال ايطاليا أسبابا متعددة دفعت بالبريطانيين الى أن يعودوا الى عقلهم فيسلموا للفرنسيين بوجهة نظرهم ، فقبلوا فى المفاوضات الثانية التى دارت بينهم وبين الجنرال مينو أن يعود الفرنسيون الى فرنسا . وهكذا قدر لمينو ان يكسب شرفا لم يستحقه .

وأخيرا رحل الفرنسيون واسـترد الأتراك مصر . وقد اعتقـدوا أن الحملة الفرنسية كانت فرصة اتاحتهـا لهم السماء كى يتخلصوا من المماليك بعد أن فشلوا فى الدفاع عن مصر وبعد ان خسروا اعدادا كبيرة منهم اثناء تعقب الفرنسيين لهم .

أما بالنسبة لمصر . فان هذه الثلاث سنوات التى قضاها الفرنسيون فى مصر لأثمن لدينا فى التاريخ من هذه القرون الاربعة الطويلة التى مكثهـا العثمانيون فى مصر ، فقـد علمتنا دروسا كانت نعم الزاد فيمـا خلف من ايامنا . فقد تعلمنا قيمة هؤلاء الاتراك والمماليك الذين يستأسدون علينا وهم أجبن من الأرانب ، وان قيمتهم الحربية لا تساوى جنديا واحدا من الجنـود الأوروبيين ، كما علمتنا حق الشعب أن يقف فى وجه الحاكم وان كان قويا وان فى استطاعته أن يزلزل الأرض من تحته حتى يحقق له ما يريد أو بعض ما يريد ، كمـا علمتنا ان بلدنا شىء تتكالب الدول على امتلاكه وأنهـا شىء يستحق أن نثور لأجله وأن ندافع عنه ، كما علمتنا ان نرغم حاكما على أنيدفع الثمن اذا أراد حلب البقرة.ولكن الأثمن من هذا كله أنها دفعت بأقباط مصرلان يظهروا قوميتهم الغافلة ، فيتقدموا الصفوف كى يصرخوا فى اخـوانهم ان الوقت قد حان لأن يفكوا هذا الطلسم عن عيونهم فيسعوا نحو الاستقلال التام بعيدين عن تركيا وغير تركيا ، وان ولاءهم للخليفة أو لأمير المؤمنين لن يغنى عن استقلالهم المفترد شيئا . وان رابطتهم الاسـلامية لا تعنى خضوعهم للأجانب وان كانوا مسلمين . كما لا تعنى عداءهم لاخوانهم فى الوطن وان كانوا مسيحيين فالدين لله والوطن للجميع . وكان الاقبـاط هم الذين حملوا مشعل هذا الرأى فأعلنوه وسعوا دونه رغم ما وجدوه من مواطنيهم من الجحود وسوء الظن ، ورغم ما نالوه من عنت واضطهاد دفـع بعضهم حياته ثمنا له . وما كان الأقبـاط يوما لينكصوا أو يعودوا فهم لم يعرفوا يوما غير التضحية والفداء فى سبيل وطنهم وقوميتهم .

فوطنية المصريين وقوميتهم كانت سببا من الأسباب الكثيرة التى دفعت بهم الى اعتناق المسيحية كمظهر من مظاهر الثورة على الأمبراطورية الرومانية التى سعت الى اهدار قوميتهم (١) واستقلال بلدهم لصالح الجزيرة الايطالية حين أرغموا على جعل بلدهم مزرعة قمح لروما ، واشتغلوا فى الأرض عبيدا لصالح أسيادهم ، اذ وجدوا فى معتقدات الديانة الجديدة وفلسفتها التى تعتقد بوجود مدبر خفى ذى قوة مجهولة قادر على كل شىء ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويثوبهم عن عملهم الخير بحسن الثواب وينذرهم بالعقاب بنار لا تطفأ حين يخطئون ويأثمون — وجدوا فى هذه المعتقدات احياء لديانتهم القديمة ومعتقداتهم القديمة المصرية المنبت والمظهر، فجعلوا منها رمزا لمقاومة الحكم الرومانى الذى يمجد الامبراطور ويرفعه فوق مرتبة البشر . فكان فلاحو مصر من الوثنيين يخفون المسيحيين الذين يلجأون اليهم هربا من الاضطهاد الذى استشهد فيه الكثيرون (٢) .

ووطنية الاقباط وقوميتهم هى التى دفعت بهم لان يجهروا بهذه المعتقدات دون رهبة أو خوف أمام قوة الدولة الحاكمة ممثلة فى شخص دقلديانوس . وفضلوا أن يضحوا على أن ينكروا ديانتهم التى اتخذوها مظهرا لقوميتهم . ولم تكن الاضطهادات المتوالية التى وقعت بهم لتقلل من عنادهم ، بل زادته مقاومة واحيت روح العناد فيهم (٣) واخيرا انتصر المصريون ممثلين فى ديانتهم الجديدة على الحكم الأجنبى حينما اعترفت الدولة الرومانية بديانتهم ديانة رسمية للدولة .

ولكن هذا الاعتراف كان نذيرا باندماج قوميتهم فى الدولة الرومانية . الأمر الذى يستنكرونه بل يأبونه . ولذا اخذت القومية المصرية تعلن مقاومتها لهذا الحكم الاجنبى فى كل فرصة مكنتها من هذه المقاومة ، فكان عقد المجامع الدينية خير فرصة ليملى فيها بطريرك الاسكندرية — يؤازره الشعب — مبادئه على غيره من البطاركة . ويقف بطريرك الاسكندرية ليعلن

---

(١) Copts and Muslims

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٧٤ .

(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٧٤ .

روح القومية المصرية وحوله أبناؤه المصريون ايذودوا عن هذه الروح الحية ممثلة فى المبدأ الارثوذكسى ، ولعل ما حدث فى جمع نيقية فى سنة ٣٢٥ ومقـــاومة البابا اسكندر وتلميذه اثناسيوس لبدعة اريوس خير مثل لذلك . وحين نفى اثناسيوس الى روما رأى ما عليه هذه المدينة من انحطاط خلقى ومن انتشار للعادات الوثنية فيهـا فهاله الامر وقام يلقن أهلهـــــــا درسا فى الآداب المسيحية والفضائل المسيحية ويعرض عليهم صورا حية لتلك الفضائل (١) . وعندما عين الامبراطور تيودوسيوس من يدعى أغريغوريوس الـكبادوكى بطريركا على مصر لم يتردد شعب مصر فى الثورة عليـــه وقتله (٢) اذ لم يكن الشعب ينظر الى محاولة تنصيب بطريرك أجنبى عليه الا سعيا نحو صبغ كنيستهم بالصبغة اليونانية (٣) أو البيزنطية الأمر الذى يرفضونه كل الرفض . وعندما عاد أثناسيوس الى بطريركيته فى عام ٣٦٢ سارع الى عقـــد مجمع مكانى فى الاسكندرية ليؤكد قانون الايمان كما أعلنه فى مجمع نيقيه بشأن (الابن المساوىء للأب فى الجوهر) . كمـــا كتب الى أسقف روما يطلب منه توقيع العقوبات الكنسية على أسقف ميـــلان نصير الاريوسية . الا نستطيع أن نقول أن هذه المحاولات من اثناسيوس ليست الا تعبـــيرا عما يجول فى خاطره من أن مركز الاسكندرية المختـــــار يؤهلها لأن تتولى رئاسة العالم المسيحى خيرا من كل من القسطنطينية وروما . وكذلك كان نظام الرهبنة فى بعض الاوقات مظهرا من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى . فقـــد أرهق الرومان المصريين بمختلف الضرائب ومنهـــا ضريبة الرءوس ، حتى ضـــاق المسيحيون ذرعا ، فلم يجدوا أمامهم من سبيل سوى الفرار من القرى وترك الأرض الزراعية كوسيلة للامتناع عن الزراعة التى تســـــتولى روما على محصولاتها والامتناع عن دفع الضريبة . فكان الرومان يحـــــاولون انزال غضبهم على من بقى ليدلوهم على مكان الهاربين أو ليجبروهم على دفـــــع ما كان مستحقا عليهم وعلى زملائهم .

وكان الرهبـــان المصريون خير مثل للروح الوطنية المصرية ، فقد كرس

---

(١) تاريخ البطاركة جـ ١ .

(٢) صور من تاريخ القبط ص ٨٠ .

(٣) Egypt and Egyptian Question p 34

أنبا شنودة حياته لمكافحة الفساد الوثنى ممثـلا فى البيزنطيين والرومانيين فحرم على الاجانب جميعا الالتحاق بديره المعروف بالدير الابيض ، وعمـل على تنقية اللغة القبطية من التأثيرات البيزنطية حتى صارت على يديه لغة وطنية صالحة للكتابة (١) .

وكانت وطنية الأقباط وقوميتهم هى التى دفعت بكيرلس الكبير فى مجمع افسس سنة ٤٣١ ليدفع هجمات نسطور بطريرك القسطنطينية ليعلن الروح المصرية مرة أخرى ممثلة فى اتحاد الطبيعتين للمسيح (٢) ولعل أخشى ما كان يخشاه بطريرك القسطنطينية هو تغلب كيرلس بطريرك المستعمرة على بطريرك العاصمة خصوصا وقد لقب البطريرك الاول بعد مجمع افسس الثانى بالبطريرك العالمى ، بينما كان الثانى لا يتميز الا بقربه من الامبراطور . هذا فى الوقت الذى خضعت فيه لبطريرك الاسكندرية أجزاء لم تكن خاضعة للدولة الرومانية كاثيوبيا ونجران . علاوة على الخمس مدن الغربية .

وتظهر القومية المصرية والوطنية القبطية أظهر ما تكون فى تحـدى البطريرك ديسقوروس للأمبراطور فى الشـئون المدنية ، اذ كان يرفض تنفيذ أوامره وهو يقول : « ان صلتى ببلادى أقوى من صلة الامبراطور بها » ولم يكن يتردد مطلقا فى معارضة كل أمر يتعـارض مع صالح البلاد الدينى والسياسى (٣) .

ولم تلبث هذه الروح القومية التى حافظ عليها قبط مصر أن أثارت غضب الدولة الحاكمة فانضم الامبراطور الى صف بطريرك القسطنطينية ضد قائد روح الثورة ، فعزل البطريرك المصرى ونفاه ، فالتف الشعب حول رئيسه لأنه نظر اليه ممثلا للروح القومية . ولا يمكننا أن نقول ان جميع المصريين قد تعمقوا فى فهم الدين وعرفوا الفرق بين الطبيعة الواحـدة والطبيعتين المندمجتين قبل كل الدهور أو انفصال احداها عن الأخرى . ولكن الذى يمكننا أن نقـوله ان

---

(١) صور من تاريخ القبط (١١٢ — ١٥٠) .
(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٢ — ١٠٩ .
(٣) صفحة من تاريخ القبط ص ٨٨ .

المصريين نصروا بطريركهم لانه يمثل روح محاولة الدولة الرومانية التهام الشخصية المصرية (١) فاذا ما أسرع الامبراطور بتعيين بطريرك بدلا من البطريرك المنفى رفض الشعب الخضوع له ، وسماه البطريرك الملكانى اى الذى يعينه الملك لا الشعب .

ويحفظ لنا التاريخ خلال القرن السادس — الذى سبق الفتح العربى — أنواعا شتى من مقاومة الشعب لمحاولة الامبراطور تنصيب أسقف غريب ولعل المقوقس احد هؤلاء الغرباء الذين حاول الامبراطور فرضهم فرفضهم الشعب . ولم تكن مساعدة القبط للعرب فى فتحهم مصر خيانة لوطنهم ووطنيتهم . ولا هى مظهر من مظاهرها . بل فعل ذلك لعله يجد تحت الحكم الجديد اعترافا بقوميته ولغته . فنجده قد عمد بمجرد انتهاء الحكم البيزنطى الى الغاء الأسماء اليونانية لبلادهم وكفورهم واستبدل بها أسماءها القبطية القديمة . بل هجرت الكنيسة اللغة اليونانية فى طقوسها واستبدلت منها لغتها المصرية القديمة بعد أن كتبتها بحروف يونانية وهى ما نسميها حاليا باللغة القبطية خطأ على نحو ما ذكرنا . وجاء الحكم العربى فأعطى القبط حريتهم الدينية وترك للبطريرك المصرى امر تدبير رعاياه ومعاملتهم على الأسس التى تقتضيها ديانتهم . حين أعطى عمرو بن العاص البطريرك بنيامين مرسوم الامان . ولكنا فى نفس الوقت لا نستطيع أن نقول ان هذا الحكم العربى استمر صالحا خالصا أو انقلب الى شر خالص فذلك مخالف لطبيعة الأشياء فقد تناوب الأمر بين الصلاح والفساد ولكن شيئا هاما لا بد أن نشير اليه ونؤكده وهو أن الفساد أو بمعنى أقرب الى موضوعنا سوء حال المسيحيين لم يجر بناء على سياسة عامة للدولة بل كان يصدر بناء على نزعات خاصة لبعض الولاة دون غيرهم . وليس أدل على ذلك من هذه العبارة التى قالها عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة وهو المعروف بعد صلاحه وتقواه (الحجاج بالعراق . وأخوه محمد باليمن . وعثمان بن حيان بالحجاز . والوليد بالشام وقرة بن شريك فى مصر . امتلأت بلاد الله جورا) (٢) وحين

(١) صفحة من تاريخ القبط ص ١٤٦ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٢٣ .

تولى الخلافة وسأله احد الولاة أن يلزم من يســـلم بالجزية حتى لا ينقص الخــراج اجابه قائلا « لقد بعث الله محمـــدا هاديا لا جابيا » ورفض النصيحة .

ولكن المصريين لم يكونوا يترددون فى ابداء سخطهم حين يجدون الفرصة المناسبة . فقد أسرعوا بالانضمام الى العباسيين حين قاموا ورفض أن يعطى الأمان لمروان الثانى حين فر الى مصر يستنجد بأهلهـا اذ وجد اهل الحوف الشرقى قد ا سودوا) أى انضموا الى العباسيين (١) كما لم يتردد المصريون اقباطا ومسلمين فى القيــام بثورتهم الـكبرى أيام ابن عون ويزيد بن حاتم منتهزين فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون . وكانت الثورة عنيفة حتى عجـز عيسى بن منصور عن سحقها فاستعان بالأفشين وحضر المأمون بنفسه وأشرف على اجراءات القمع وقتل منهم مقتلة كبيرة (٢) واذا ما جاء الفاطميون أمل المصريون فيهم خيرا فأحسنوا استقبالهم بعد أن كاتبوهم فى فتح مصر وكان الفاطميون أعرف بالجميل من سابقيهم فاعترفوا بالقـومية المصرية بل نقلوا مركزهم الى مصر واتخذوا القــاهرة عاصمة لهم وعاد الى مصر استقلالها . ولم يلبث الفــاطميون أن تمصروا واصبحوا وليس لهم سيد أجنبى يدفعون له خراجا أو جزية أو يدينون له بالسيادة أو ينادون باسمه فى الخطبة أو ينقشون اسمه على السكة وزادوا بأن سمحوا للمسيحيين باقامة شعائرهم الدينية جهرا بل شاركوهم الاحتفال بأعيادهم وتكلم بعضهم القبطية (٣) بل الفوا بها الى جانب العربية (٤) ورغم قيام الحروب الصليبية واتسامها بسمة الدين مدة قرنين من الزمان فان مسيحيى مصر لم تأخذهم النعرة الدينية الكاذبة . بل وقفوا من المسيحيين الأوربيين موقف العداء الصريح . ولم يهبوا معونتهم لهم. فما دامت حكومتهم الوطنية لم تشترك فيها لأن الحرب لم تكن تعنى مصر فى قليل أو كثــير ، وهم لا ينفعلون بالعواطف الدينية الـكاذبة التى ادعاها الصليبيون والتى لم تكن تهدف الى غير الرغبــة فى الاستيلاء على الشرق

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٣١٦ .

(٢) لعله يبدو غريبا أن تطلق الحكومة المصرية اسم هــذا الخليفة على شارع من اكبر شوارع القاهرة .

(٣) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع ص ٨٩ .

(٤) صور من تاريخ القبط ص ١٨٦ — ٢٠٨ .

الغنى . ولم يتحول المسيحيون عن هذا الموقف الا حينما رأوا هذه الحروب وقد اصبحت خطرا مباشرا على بلادهم فهبـــوا للدفاع عنهـــا وتمكنوا مع جميع المصريين من صد هذا الأجنبى الدخيل . ورغم ما نال المسيحيين فى خـــلال العصر المملوكى من اضطهاد بالغ ورغم فساد الحكومة وسوء ادارتهـــا فانهم لم يثوروا لعلمهم ان الوطن سليم بخير لا يخضع لســـلطة خارجية ولا يدين بالولاء لقوة اجنبية ، بل وجدوا هذه الدولة قد نقلت الخـــلافة الاسلامية الى القاهرة فأصبحت بذلك مصر رأسا بعد ان كانت ذيلا ودولة متبوعة بعـــد ان كانت تابعة،ونظروا الى المسألة من وجهها الصحيح فان هذا الاضطهاد كغيره من أوجه الادارة السياسية كان أمرا فرديا يصدر عن سلطان بعينه ، فالفردية كانت أظهر ما ميز العصر المملوكى كله . هذا الى أن الاضطهاد كان فى بعض أوقاته حسدا من النجاح الاقتصادى الذى تمتع به المسيحيون (١) . كما أن بعض مراسيم الاضطهاد صدرت تحت تأثير وزير أجنبى دخيل بعيد عن نفهم الروح القومية المصرية (٢) ولذا نظر كثير من المسلمين الى مثل هذه المراسيم نظرة الاستنكار فساعد ذلك على تخلص المسيحيين منهـــا فى سرعة منقطعة النظير ، وتعاون المسيحيون والمسلمون فى استنكارها ونبذ العمل بها فى كثير من الفرص . وجاء الأتراك من الخارج غزاة ليقضوا على مصر المستقلة فلم يجدوا من أهل البلاد أو من الاقباط خاصة المعـــاونة التى لاقاها العرب عند فتحهم البلاد منذ تسعة قرون رغم ما لاقوه من القسوة تحت الحكم المملوكى . ولذا قاسى الأقباط من الحــــكم التركى كما قاسى غيرهم وان كان نصيبهم من مساوىء هذا العهد اكثر من نصيب غيرهم . وعلى ضوء هذا التفسير أخلص بعض الأقباط للحكم الفرنسى . بل أكثر من ذلك حين رأى المعلم يعقوب حنا ان زوال الحكم الفرنسى ضربة لازب تذكر بما سوف تعانيه البلاد ويعانونه هم تحت الحكم التركى القادم فاتجه نظره الى أن يؤمل فى شىء جديد ينحصر فى حياة مصر بعيدة عن كل من الفرنسيين والأتراك بل بعيدة عن كل قوة اخرى

---

(١) Egypt and The Egyptian Question p - 213

(٢) Ibid p 207

عير الفرنسيين والأتراك . مصر المستقلة الخارجة من كل نفـــوذ أجنبى .
واذا كان المعلم يعقوب حنا وامثاله قد فكروا فى هذه الناحية التقدمية وتطلعت آمالهم الى هذا الحلم الذى لم يكن مواطنيهم ليتطلعوا اليه مما كان ذلكذنبهم. واذا كان مواطنوهم قد اساءوا بهم الظن وحاولوا التنكيل بهم فيجب انلايكون ذلك موقفنا منهم نحن الذين نفهم الاستقلال ونقدره ، فما كان المعلم يعقوب وزملائه خائنين لبلادهم كما يحلوا لبعض المؤرخين الحاليين أن ينعتوهم ، بل كانوا سابقين لعصرهم وعدلوا تحت ضــــغط الظروف التى وجهتهم هـــذا التوجيه . لقد كان أعظم الاقبـــــاط الذين ساعدوا على سحق قوات المماليك والأتراك ، المعلم يعقوب هذا الذى سوف نفرد عنه جزءا مفصلا لمـــا كان من مجهوده العظيم من أثر نحو خلق مشروع يرمى الى استقلال مصر بعيدة عن كل نموذ أجنبى وسعيه المتواصل لأجل نجاح هذا المشروع رغم عدم تقدير مواطنيه له فنعتوه بأقبح النعوت بل حاولوا قتله ، بل تمنى جميع الاقباط حين جمعهم فى قلعته التى كانت قائمة فى حارة النصارى بسوق القبيلة فهـــاجمهم حسن بك الجداوى أحد كبار المماليك على رأس جند كثيف فلقيهم المعلم يعقوب عند وجه البركة وحاربه يوما كاملا حتى كلت عزيمته وسقط أغلب رجاله قتلى .

وعاودوا الهجوم فى اليوم التالى فلم يكن نصيبهم فيه خيرا من أمسه فكان ذلك سببا فى اثارة غضبه وعودته للمرة الثالثة وحاصر القلعـــة . ففتح المعلم يعقوب أبوابهـــا وأمر فرسانه أن يخترقوا ســـياج الاسلحة بجيادهم فاخترقوها وفشل الحصـــار الذى كاد يؤدى — لو نجح — الى فنـــاء أقباط القاهرة عن بكرة أبيهم (١) ولذا لا نستغرب اذا وجدنا الاقباط قد نظروا الى الحملة الفرنسية القادمة نظرة امل يرجى ، يخلصهم من هذا الحكم التركى الفاسد ويخلصهم من القومية الاسلامية التى اصطنعتها الخلافة ثم الاتراك العثمانيون من بعدهم من اجل القضاء على القوميات الوطنية للبلاد التىدخلت فى نظامها . فأقبلوا يعينونها بمختلف الوسائل ، فكل مساعدة تقدم للفرنسيين انما هى مسمار فى نعش الاحتلال التركى .

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٢ ص ٤١ .

وعرف الفرنسيون ما كان عليه الاقبــاط من مهارة وكفاءة ، فولوهم المناصب الكبيرة ، فتفرد المعلم فلتاءوس حنا باقليم الغربية ، والمعلم واصف باقليم المنوفية ، والمعلم انطون أبو طاقية باقليم الشرقية ، كما تولى المعــلم جرجس الجوهرى ما يشبه وزارة الداخلية ، والمعــلم ملطى يوسف وزارة العدل ، أو رئيس محكمة القضايا ، والمعلم لطف الله المصرى عضوية مجلس التجــار (١) والمعلم شكر الله جرجس رئيسا لديوان المالية ، كما اشترك فى وضع نظام دقيق لجباية الضرائب لتجمع من الأهالى بالعدل ، فعـــاد ذلك بالخـــير العميم على جميع المصريين حيث رفعت عن عاتقهم الضرائب الباهظة التى كانوا يرسفون فى أغلالها (٢) بل انضم الى القوة المحـــاربة الفرنسية كثير من الأقباط مثل المعــــلم مكاريوس حنين ، والمعلم غبريال سيداروس ، والقس حنا راعى كنيسة منفلوط ، ووصل كل منهم الى رتبة كولونيل ، ثم عبد الله منصور الذى كان من أكبر أعوان ابراهيم بك فحصل على رتبة قومندان . وعين نابليون المعلم الياس بقطر الذى كان راسخ القدم فى الفرنسية سكرتيرا خاصا له ثم عضوا بالمجمع العلمى (٣) .

ولذا كان المعلم يعقوب حنــا أول من استيقظ من المصريين واستغل الفرنسيين أحسن استغلال كى يضمن بمساعدتهم استقلال بلده . وجـــدير بمصر المعاصرة أن تعرف لهذا المصرى مكانته فنقيم له تمثالا من حجر بل من الذهب فى أوسع ميادين القاهرة لتكتب على قاعدته (أول من نادى باستقلال مصر فى العصر الحديث) وسوف نرى فى حياة هذا المعلم الذى نبع من بين صفوف الشعب وتثقف بثقافة الشعب سلسلة متواصلة من الامجاد التى تعلو مع الزمن . مما يحق للأقباط أن يفخروا به لمئات من السنين قادمة .

ولد المعلم يعقوب فى ملوى سنة ١٧٤٥ من أسرة قبطية متوســـطة الحال . وتلقى علومه فى أحد الكتاتيب القبطيــة التى كانت شائعة فى ذلك

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ١٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .
(٣) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٦ .

العصر ، ولكنه أكب على الدرس بنفسه حتى تعلم الفرنسية الى حد التبرير . واشتهر بالتفوق فى العلوم الحسابية ، حتى اذا دخل خدمة احد المماليك فى اقليم الفيوم — وهو سليمان بك — تعلم الفروسية واللعب بالسيف وساعده على ذلك ما حباه الله به من قوة فى الجسم . وكانت خبرته المالية وما أولاه اياه سيده سليمان بك من ثقة سببا فى حيازته ثروة مكنته من اقتناء الخدم والحشم ثم من بناء قلعة على راس حارة القبيلة عند حارة النصارى أقام على حراستها عددا من الجند شاكى السلاح .

ورأى المعلم يعقوب فى الفرنسيين فرصة لخدمة بلاده لم يتردد فى اقتناصها ، فانضم الى حملة ديزيه التى أرسلت لمطاردة فلول المماليك فى الصعيد . فساعد بشجاعته على القضاء على أوكارهم كما حدث فى بلدة العتامنة من أعمال محافظة أسيوط حين ظل ينازل المماليك مخاطرا بحياته حتى لحق به الجنرال ديزيه فلم يملك سوى أن يهنئه على ما بذله من جهد . وقدم له سيفا فخريا تذكاريا لبسالته وكان ذلك عند بلدة بنى سند بحضور كبار القواد والضباط وسائر الجنود ، ونقشت على السيف عبارة (معركة عين القوصية) ويقال ان هذا السيف لا يزال محفوظا لدى من تبقى من أفراد أسرته . وحبذا لو تكرموا فقدموه هدية الى المتحف القبطى خوفا من ضياعه. ان كان ذلك حقيقيا .

وفى خلال عمله نجح المعلم يعقوب فى منع استعمال العنف فى جباية الضرائب بل نجح فى حمل الفرنسيين على احترام المصريين وعدم أخذهم كرهائن من أجل المال . كما كان يفعل المماليك فى حروبهم ، وكما عمد الفرنسيون فى أول أمرهم . فقد حدث أن تولى الجنرال بليار الاشراف على جباية الضرائب فتأخر أهل قرية من قرى بنى سويف عن موعد تسديدها فقبض على مشايخها رهينة عنده حتى يتم التسديد . فاذا ما قدم المعلم يعقوب الى بنى سويف بصحبة الجنرال ديزيه وعلم بالأمر أظهر امتعاضه لذلك ، واحتج على تصرف بليار ونصح باستعمال الأناة فى الجباية والكف عن ارهاق الفلاحين واخلاء سبيل المشايخ فأقره الفرنسيون على رأيه وعملوا

بنصيحته (١) .

ولم يملك الجنرال ديزيه ازاء الخدمات الجليلة التى قدمها المعلم يعقوب الا الاشادة بخدماته حين جهز للحملة كل ما يلزمها وأمن طرق مواصلاتها ونظم حركاتها وجعل القائد على اتصال دائم بجنوده المتفرقين فى البلاد على طول النيل . واضطلع بمهام الشئون المالية والادارية فى جميع أرجاء الوجه القبلى من حيث توزيع الضرائب وتنظيم جبايتها والتوفيق بين الأوامر الادارية الجديدة والانظمة القديمة التى كانت سائدة فى البلاد (٢) .

ويروى الجبرتى ان يعقوب كان يتمتع بسلطان مطلق فى عهد الجنرال كليبر ، وبالرغم مما خوله هذا السلطان من سلطات استعمل السياسة والحكمة فى جباية الغرامة التى فرضها كليبر على القاهرة عقب ثورة القاهرة الثانية (٣) .

وعندما قتل كليبر وتولى مينو قيادة الجيش الفرنسى أراد أن يمالىء أهل مصر فأعلن اسلامه وتزوج بمسلمة . بل أصدر أمره بوقف الأقباط من دواوين الحكومة (٤) . ولكنه حينما أراد أن ينظم ايرادات الدولة عين لذلك المسيو استيف مديرا عاما للايرادات فوجد هذا الأخير نفسه فى حاجة ماسة الى خبرة المعلم يعقوب فعينه مستشارا للشئون المالية ، ولما تبين له ان ايرادات الدولة لا تكفى لسد حاجة الجيش والمشروعات العامة فاتح المعلم يعقوب فى ضرورة عقد قرض بمليون من الفرنكات . ورغم سوء حالة الفرنسيين فى مصر وظهور جميع الدلائل على سرعة رحيلهم فانه اتفق مع ثلاثة من زملائه وهم المعلم جرجس الجوهرى ، والمعلم انطون أبو طاقية والمعلم ملطى . على تقديمها متضامنين فقدموها فعلا على أن تخصم من الضرائب المطلوبة من المديريات الداخلة فى دائرة اختصاصاتهم الادارية وأعطاهم استيف بقيمتها سندات على الخزانة الفرنسية . ولم يسترد أحد

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٥ .
(٢) صور من تاريخ القبط ص ٣٠٤ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٠٧ .
(٤) الجبرتى ج ٣ ص ١٢١ .

منهم ما دفعه بل ظل المعلم انطون يطالب بماله حتى أيام نابليون الثالث الذى لم يعترف بهذا الدين . وهذه الخدمات الجليلة التى قـدمها المعلم يعقوب لمواطنيه لا تعد شيئا مذكورا بجانب ما قام به بعـد ذلك . فقد اتصـل بالجنرال كليبر ووقف منه على سوء حال الفرنسيين فى مصر وعرف رأيه فى وجوب جلائهم عنها . فصور له ان احسن قـوة تستطيع فرنسا ان تستند اليهـا هى جيش وطنى مصرى تقوم فرنسا بتسليحه على أن يكون ذلك على نفقة المصريين انفسهم .

فاقتنع كليبر بالفكرة وأذن له فى تنفيذها (١) وقد فعل المعلم يعقوب ذلك لانه كان يعلم انه يوم يجـد الجد ويخرج الفرنسيون ، لابد أن تكون هناك قوة مصرية تستطيع أن تملى ارادتهـا على كل من المماليك والأتراك . وأن مصر المحرومة من الجيش الوطنى لن تستطيع ان تؤثر فى مجـريات الامور وانها سوف تكون كالشاة التى يتداولها الجزارون ليرى كل منهم نفسه أولى بذبحها ، فجمع أكثر من الفى شاب من اهل الصعيد ، أوكل كليبر أمر تدريبهم على الحركات الحربية والنظم العسكرية الى ضباط اختارهم من الفرنسيين ، فأظهر جنود هذه الفرقة من ضروب الشجاعة والبسالة ما يشرف المصريين ، وتولى المعلم يعقوب قيـادتهم بعد أن جهزهم بالسلاح والذخيرة على نفقته الخاصة (٢) **فكان أول جيش مصرى خالص منذ أيام الاسكندر .**

وكان آخر مشروعاته هذا المشروع الذى كتب له الخلود فى سـجل التاريخ وهو مشروع تأليف وفـد مصرى سافر مع الحملة الى أوروبا **ليقنع حكومتى انجلترا وفرنسا بالموافقة على استقلال مصر** بعيدة عن كل نفـوذ أجنبى . فقد رأى ان فرنسا قد أرغمت على ترك مصر ، وان الذى أرغمها على ذلك لم يكن تركيا صاحبة السيادة عليها بل انجلترا . فوق انهمـا (انجلترا وفرنسا) صاحبتا اكبر قـوة فى العالم . وان تركيا لا تعـدو رجلا مريضا تعامله كل دولة وفق مصالحها . كما عرف ان انجلترا لو أرادت ان تحتل مصر لما وجدت من يعارضها . ويرغمها على الجـلاء . فأيقن أن

---

(١) الجبرتى جـ ٣ ص ١٢١ .
(٢) الجبرتى جـ ٣ ص ٢٠٧ .

مصر المستقلة — بضمان كل من انجلترا وفرنسا — أقدر على خدمة العالم والسلام من مصر المحتلة الضعيفة . (ولمصر من مجدها وماضيها السالف ثم من مواردها الحالية وكذلك من نشاط أبنائها مسلمين وأقباط ما يؤهلها لحمل هذه الأمانة) . ولذا لم يتردد فى القيام بهذه المهمة رغم الظلام الذى كان يحوطها والشك الذى يعتورها . فبارح مصر على رأس وفد قبطى ليسعى لهذا الغرض النبيل ولكن القدر لم يمهله وكان أقسى على مصر من قسوته على المعلم يعقوب نفسه فمات الرجل فى اليوم الرابع عشر من رحيله . وفشل مشروعه . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن ندرس هذا المشروع وما قام به الرجل خلال رحلته القصيرة من جهود فى سبيل اقناع من يراه مسئولا من أجل نجاح مشروعه .

وقبل أن يرحل الوفد أرسل قبطان باشا حسن قائد الجيش التركى كتابا الى الجنرال بليار يرجوه فيه بالحاح أن يقنع يعقوب بالبقاء فى مصر للانتفاع بخدماته . ولكنه اعتذر قائلا عبارته الرائعة (ان مهمتى لم تنته بعد) .

قابل المعلم يعقوب قائد البارجة البريطانية التى رحل عليها وأخذ يحدثه عن مستقبل بلاده وكان حديثا سريا . ولكن القائد كتب عنه الى اللورد الأول للبحرية البريطانية يقول : ان المعلم يعقوب حدثه — بعد أن أخذ منه ميثاقا بأن لا يستعمل هو أو الحكومة البريطانية هذه المعلومات فيما يؤذى بلاده — عن رغبته فى قيام حكومة مستقلة فى مصر (١) ووسيلته فى ذلك السعى لدى الحكومات الاوربية وخصوصا انجلترا وفرنسا بعد أن تبين لهما استحالة استعمارهما لمصر . وليس من شك فى أن هذا الاستقلال سوف يعيد لمصر رخاءها ، ولا بد أن انجلترا بحكم مركزها فى الهند سوف تهتم كثيرا بالمتاجرة مع مصر وما حولها من المناطق فتستفيد بذلك أكبر فائدة لما اختصت بها مصر من المزايا .

أما عن شكل هذه الحكومة فهو لم يفكر فيها بشكل تفصيلى سوى أنها

---

(١) مذكرة القائد جوزيف امنديس الى أميرال البحرية البريطانية فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٠١ (صور من تاريخ القبط ص ٥١٣) .

ستكون عادلة حازمة وطنية ترفــه عن عيش الناس وتزيد فى كسبهم فتحترم وتطاع وتحب .

أما عن دفاع هذه الحكومة عن استقلال البلاد اذا اعتدى عليهــا معتد ، فانه لم يكن يتصور وجود هذه الدولة المعتدية سوى تركيـا والمماليك (١) وفى هــذه الحالة ستقف الدول الغــربية فى سـبيلها وتحظر عليهما مس هذا الاستقلال الذى سيكون فى ضمانتهما جميعا الى أن يحين الوقت الذى يتم فيه تنظيم الجيش الوطنى وجعله قادرا بحيث يستطيع رد الاعتداء مهما كان مصدره .

وخطة الوفد المصرى فى ذلك أن يسعى فى أوروبا كى تكون فرنسا هى البادئة بعرض المقترحات الأولى الخاصة بالاستقلال على انجلترا ، بينمـا يكون الوفد من ناحيته قد سعى ونجح فى اقناع انجلترا بمزايا هذا المشروع وبذلك لا يتعرض المشروع لرفض الحكومة البريطانية له تحت تأثير خوف الحكومة البريطانية من كل ما هو فرنسى .

ولم يحل موت المعلم يعقوب دون مواصلة الوفد لمساعيه . فما كاد يصل الى مرسيليا حتى بادر نمر أفنــدى سكرتير الوفد فكتب الى نابليون (اذا تنازلت من أجل مجدك . ولفائدة الجمهورية السياسى . فمــددت يد المساعدة الى المصريين وأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس فاعلم ان مصر المستقلة سنعوض عليك خسارتك فى فقدها مائة مرة) .

وقد استند نمر أفنــدى فى رسالته هذه الى نابليون فى حق مصر فى الاستقلال على ما كان لهــا فى سالف الأيام من عز تام (عندما كانت فرنسا لا يظهر منهـا للنــاظر الا جليد وغابات كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على مشرعى الاغريق) وكانت هذه الرسالة مؤرخة فى سبتمبر سنة ١٨٠١ .

---

(١) كانت هذه النظــرة صحيحة اذ لم تكن هناك دولة قوية بعد ذلك الا امبراطورية النمسا والمجر التى لم تفكر يوما فى توسيع رقعتها خارج أوروبا .

كما كتب نمر أفندى رسالة ثانية الى تاليران وزير الخارجية الفرنسية يقـــول (ان فرنسا قد خسرت خسارة عظيمة فى الشرق . فلم لا تتخذ من مهمة هذا الوفد وسيلة لتعويض ما خسرته . فانها تستطيع ـــ مستندة الى صداقة مصر المستقلة ـــ أن تمـــد نفـــوذها الأدبى نحـــو أواسط أفريقيا . وهكذا يتحول جلاؤكم عن مصر من حادث نحس الى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية) .

ومن ذلك تدرك ان القبط أثبتوا انهم فى هذه الآونة من تاريخهم كمـــا كانوا دائما جديرين بشرف الانتساب الى مصر . فقد كان فى وسع المعـــلم يعقوب ومن خرج معه من الأقباط أن يظلوا فى مصر ليتمتعوا بالنفـــوذ والجاه لا سيما وقد طلب القبطـــان حسن باشا (الاستفادة من خدماتهم) أو على الأقل كان المعلم يعقوب يستطيع أن يمكث معتمدا على الفيلق القبطى ليصبح قوة محركة فى مستقبل البلاد السياسى ولكنه لم يفعل لأنه عرف انه مهما كان الانجاه الذى سيتخذه بعـــد ذلك فهـــو لن يكون الا فى نطـــاق الخضوع للأتراك . وهو النظـــام الذى قال عنه قبـــل ذلك (ان أى نوع من انواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما خضعت له مصر قبل قدوم نابليون بونابرت) (١) .

وقد آثر المعلم يعقوب أن يخرج وهو لا يعرف ماذا ينتظره فى الخـــارج ليسعى نحو هدف يراه أشرف من أى هدف آخر . فهـــو أشرف من أن يصبح صاحب جاه فى مصر وهو أشرف من أن يصبح صاحب قوة مؤثرة فى توجيـــه تاريخ بلاده فى ظل الحكم العثمانى وهو أشرف من أن يصبح صاحب قـــوة مؤثرة فى تحسين أحوال مواطنيه من الأقباط .

ولم يشأ قائد السفينة أن يقذف بجثة المعلم يعقوب الى البحر كما جرت العادة بل احتفظ بهـــا حتى وصلت الى مارسيليا وهناك احتفلت الحكومة الفرنسية بتشييعها احتفالا عســـكريا مهيبا ، اشترك فيه جنـــود الحملة الفرنسية والفيلق القبطى ثم دفن فى مقبرة القـــديس بطرس بمارسيليا تحت

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣١١ .

ظل النخيل الذى غرسه أحفاده حول نصب المقبرة ليعيد ذكرى شاطىء النيل .

وبذلك خسر الاقباط ، بل خسرت مصر كلها بطلا سبق عصره بقرن من الزمان على الأقل .

وقبل أن نختتم هذا الباب يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند المعلم يعقوب الذى لقى من بعض المؤرخين المصريين جزاء مغايرا ، لم يتورع بعضهم عن اتهامه بتهمة الخيانة لقاء مساعدته للفرنسيين فى حروبهم ضد المماليك .

لقد حارب المعلم يعقوب فى صف الفرنسيين وهو يعلم ان كل انتصار يحرزه هؤلاء انما هو مسمار يدق فى نفس السيادة التركية الذى أذاق المصريين عامة والأقباط خاصة كأس الذل وقطع الصلة ببلادهم عن العالم الخارجى فأصبحت مصر بذلك منذ القرن السادس عشر الميلادى — وكأنها قد تأخرت عن الركب العالمى عشرين قرنا أو يزيد .

هذا الى أنه يحارب الفرنسيين وهو يعلم أنه يحارب فى صف العلم — وقد رأى نظامهم الحربى وتقدمه — ضد الجهل والتأخر بينما كان غيره يحارب الفرنسيين مدافعا عن الاستعمار التركى أى أن كلا منهما كان يحارب فى صف الاستعمار الاجنبى لبلاده فلماذا ينعت المعلم يعقوب بتهمة الخيانة لأنه يؤيد الاستعمار الفرنسى ولا ينعت الآخرون بنفس التهمة لانهم يؤيدون الاستعمار التركى . وهل الاستعمار التركى أفضل من الاستعمار الفرنسى ؟ ولماذا يعطف المؤرخ الحديث على موقف الأقباط حين ساعدوا الفتح العربى ويعلله بأن الأقباط قد ذاقوا الذل تحت الحكم البيزنطى وأرادوا الترحيب بالعرب منقذيهم ولا يعطف على هؤلاء الذين ساعدوا الفرنسيين لا سيما والأقباط قد ذاقوا تحت الحكم التركى ما هو أمر من الذل ؟ فهل مساعدة العرب الفاتحين محمدة ومساعدة الفرنسيين الفاتحين مذمة ؟ .

واذا كان المعلم يعقوب قد كون الفيلق القبطى وجعله تحت القيادة الفرنسية فهو لم يفعل ذلك الا فى أيام كليبر وكلنا يعلم ان كليبر كان معارضا

للحملة الفرنسية على مصر مرحبا بالجلاء عنهـا . فما كاد يتسلم القيادة بعد سفر نابليون حتى بادر بفتح المفاوضات مع البريطانيين (القوة الحقيقية المناهضة للفرنسيين) من اجل الجلاء عن مصر وكأن المعلم يعقوب لم يبدأ فى تكوين الفيلق القبطى الا حين علم ان جلاء الفرنسيين أمر لا شك فيه ، وأراد أن يجعل المصريين قوة تستطيع أن تلعب دورا على مسرح الحوادث المصرية ولا يترك الأمر بين يدى الأتراك والمماليك يدبرونه كيف يشاءون وهو موقف كله شجاعة وبعد نظر حتى اذا فكر فى الامر بعد ذلك وجد السعى فى سبيل استقلال مصر بعيدا عن كل من تركيـا وانجلترا وفرنسا غرضا أسمى من كل شىء . وفى نظرى ان رمى المعلم يعقوب بتهمة الخيانة لا ينم الا عن قصر نظر وسوء نية .

الباب الثالث

عصر محمد على

جلا الفرنسيون عن مصر فظن المماليك أنها كانت سحابة صيف وانقشعت تعود بعدها الأحوال الى ما كانت عليه ويعودون الى سابق سلطانهم . كما ظنها الاتراك فرصة العمر قد أتاحها الفرنسيون للتخلص من المماليك الذين فشلوا فى الدفاع عن مصر وحمايتها ضد التدخل الأجنبى . ولذا كانت الأوامر التى حملها الوالى الاول حسن باشا قبطان صريحة فى وجوب التخلص من المماليك مهما كان الثمن ومهما كانت الوسائل التى يتبعها (١) .

ولذا ظهر منذ اللحظة الاولى أن هناك صراعا سوف ينشب من أجل الاستيلاء على السلطة (٢) ، فمن من السيدين يركب هذه المطية الذلول .

وبدا أيضا منذ اللحظة الاولى ان تركيا لم تستفد من دروسها السابقة ، فقد وصل الوالى الجديد مفلسا يستند على شراذم من فرق ثائرة لم تتسلم مرتباتها لعدة شهور سابقة (٣) فامتلأت البلاد بالفرق المختلفة من أتراك وولاة الى مماليك الى أرناءود . ولكل منهم قائده الذى لا يخضع للوالى ، فعاثت كل هذه الطوائف فى البلاد فسادا ، وظلت البلاد اربع سنين مسرحا لنهب متواصل من طوائف الجند المختلفة ، كان الفلاحون والتجار ضحيته . ولم يراع هؤلاء الجند فى نهبهم أو صراعهم مع بعضهم قاعدة واحدة من قواعد الخلق أو الانسانية ، فكثرت ثوراتهم على الولاة من أجل المرتبات المتأخرة (٤) ، وكثر طلب الولاة للأموال مقدما لأكثر من سنة ، وكان

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٢١٢ .
(٢) الجبرتى ج ٣ ص ٢٤١ .
(٣) الجبرتى ج ٣ ص ٢٥٢ .
(٤) الجبرتى ج ٢ ص ٢٥٨ و ٢٦١ .

نصيب الاقباط من هذه المظالم كثيرا من أجل ما كان يشاع عن ثرائهم (١) .

ومن الطبيعى أن لا يسلم المماليك البلاد لقمة سائغة للأتراك اذ كانوا يعتقدون أنها بلادهم التى أعطاها الله لهم ، والأتراك مغتصبون ، ولذا كان صراعهم من أجل الاحتفاظ بالسلطة مريرا قاسيا وقعت نتيجته على رؤوس المصريين . انظر الى الجبرتى وهو يصف كيفية صراع المماليك من أجل الاحتفاظ بسلطتهم فيقول :

فلم يتجاسروا على الاقدام عليهم (الأتراك) من الطريق . بل دخلوا البيوت التى فى صفهم ونقبوا من بيت الى آخر حتى انتهوا الى أول منزل من مساكنهم ، فنقبوا البيت الذى يسكن فيه الشيخ محمد سعد البكرى ونفذوا منه الى المنزل الذى يجاوره ثم الى بيت على اغا الشعراوى ثم الى بيت سيدى محمد وأخيه سيدى محمود المعروف بأبى دفية الملاصق لسكن طائفة من الأرنؤود وعبثوا فى الدور وازعجوا أهلها بقبيح أفعالهم فانهم عندما يدخلون أول بيت يصعدون الى الحريم بصورة منكرة من غير دستور ولا استئذان وينقبون من مساكن الحريم العليا فيهدمون الحائط ويدخلون الى محل حريم الدار الاخرى وتصعد طائفة منهم الى السطح وهم يرمون بالبنادق فى الهواء فى حال مشيهم وسيرهم . وهكذا طفقت العساكر تنهب الامتعة والثياب ويأسرون الصناديق ويأخذون ما فيها ويأكلون ما فى القدور من الاطعمة فى نهار رمضان من غير احتشام (٢) .

ومن وراء هاتين القوتين ظهرت شخصية محمد على وقد رأى بوادر هذا الصراع فعول على أن يستفيد منه وكانت وسيلته فى ذلك المشايخ الذين وقعوا ضحية خداعه لهم ، فى وسط هذه التيارات المتضاربة وقف الشعب المصرى الأعزل لا يملك من نفسه نفعا ولا ضرا ينتظر الرابح منها ليكون له طعاما شهيا .

وبدأت الحرب مريرة قاسية قاسى منها الشعب ما ليس بالقليل من

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣١٤ و ٣٢٠ و ٣٢٧ .
(٢) الجبرتى ج ٤ ص ٧٦ .

المصائب والمحن وانتهت بفوز محمد على فى سنة ١٨٠٦ بين رضاء المشايخ الذين اقتنعوا أنفسهم بأنهم هم الذين نصبوه وبين سخط الباب العالى الذى أفلت منه هذا الوالى دون أن يدفع الثمن وترقبت انجلترا اللحظة الحاسمة لتنقض .

وبدأ محمد على سلسلة مشروعاته الضخمة التى ترمى الى خلق دولة مصرية ، ذات كيان سياسى مستقل . وكان أساس مشروعاته هو الاصلاح الزراعى الذى نستطيع أن نقول فى نقده شيئا كبيرا ، ولكننا لا ننكر فى النهاية أنه أفاد مصر فائدة اقتصادية هائلة .

وجائت مع هذا سلسلة مشروعاته الحربية سواء كانت مدافعة أو مهاجمة . وتعتمد فى نفس الوقت على طاقة انتاجية كافية .

وقد اشترك جميع أبناء الأمة فى جميع الميادين ، سواء ميدان العمل فى الحقل أو المصنع أو الادارة ، وبذلك وضع مبدأ المساواة وضعا عمليا للمرة الأولى ، فلم تفرض ضرائب خاصة على الأقباط ، ولا حرم الاقباط من شرف الخدمة فى ميدان من الميادين ، وبذلك ثبت للعالم كله أن الأمة المصرية لا تكون من عناصر ممتزجة بل تتكون من كل واحد كما يتكون الهواء . ان حرم أحد عناصره لم يعد هواء يحمل الاسم الذى خلقه الله ليفى أغراضه المختلفة .

وقد ربحت مصر فى هذا العهد ان استيقظت فى أبنائها الروح الحربية التى حرص الحكام المتوالون طوال القرون المختلفة على اعدامها ، فقد عمل الفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك على عدم بعث هذا المارد مخافة أن يسبب لهم من المشاكل ما هم فى غنى عنه ، وحرصوا على أن يعطوا هذا العمل أسماء مختلفة مثل توفير الطاقة للانتاج ، أو عدم حرمان الأرض من اليد العاملة ، وهى حيلة ان جازت على المصريين فى بعض العصور فآمنوا بها واستكانوا اليها ، الا أن هذه الفترة من التاريخ اثبتت فسادها بطريقة عملية بعد أن امتد نشاط المصريين الى الحرب والى الانتاج الزراعى والصناعى دون أن يتأثر احداها بالآخر ، بل ساعد كل منهما الآخر وعملت كلها متعاونة كعجلات آلة واحدة . وفى خلال هذه الفترة من بداية القرن التاسع عشر فتحت نوافذ

مصر الى العالم الخارجي فلم تعد تعانى العزلة التى فرضها عليها حكامها السابقون . بدافع من مصالحهم الخاصة ، بل أصبحت مصلحتها تقتضى منها أن تتصل بهذا العالم وتستفيد منه وكان مظهر هذا الاتصال هذه البعثات العديدة التى أرسلت الى الخارج لتتعلم فى مدارسه وتستفيد من خبرته . حتى اذا عادوا أصبحوا مصدر الانتاج الضخم المتعدد النواحى . وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذا العدد الوافر من الأجانب الذى قدم مصر ليساهم فى نهضتها ، وليقدم نتاج خبرته ليدعم بها هذه النهضة الحديثة .

وكان مظهر هذا الاتصال أيضا هذه الحركة القومية التى أدت الى ترجمة عدد كبير من الكتب الفنية وغير الفنية الى العربية ليستفيد من نشرها أكبر عدد ممكن ، وبذلك رخصت المعرفة وسهل العلم على كل راغب .

وفى هذه الفترة من التاريخ ربحت مصر ثقة الأجانب بالمصريين كشعب قوى منتج قادر ، وكانت نتيجة هذه الثقة هذه العقود التجارية الطويلة الأجل التى أبرمها التجار الأجانب مع حكومة البلاد لأجل استيراد منتجاتها ومبادلتها بمصنوعاتها . وكانت نتيجة هذه الثقة أيضا هذه المشروعات التى عرضتها الحكومات الأجنبية على الحكومة المصرية من أجل القيام بأعمال مشتركة ، كما فعلت فرنسا حين عرضت مشروع القيام بحملة على الجزائر من أجل القضاء على القرصنة فى البحر المتوسط ، واقامة حكومة ثابتة وطيدة فى هذه البلاد على غرار الحكومة التى قامت فى مصر . وذهبت الحكومة الفرنسية فى هذا السبيل الى حد اغراء الحكومة المصرية بالتنازل عن جزء من الأسطول الفرنسى نظير القيام بهذه الحملة المصرية . وكان مظهر الثقة هذه الكتب التى أرسلتها الغرفة التجارية الهندية الى الحكومة المصرية تشكرها من أجل الجهود التى بذلتها لصيانة طريق التجارة الهندية ، وهذه المشروعات التى عرض على الحكومة المصرية القيام بها من أجل شق قناة تصل البحرين الأحمر والمتوسط . ثم رفض الحكومة لهذه المشروعات تجنبا لما تجره على البلاد من مضار لا سبيل الى دفعها .

وربحت مصر ما هو أثمن من هذا كله . ربحت ارتفاع الروح المعنوية للمصريين ، فقد عرفوا أنهم أمة لا تقل عن غيرها من الأمم اذا أرادت فعلت ، وأنهم قادرون على أن يفعلوا وأن يفعلوا كثيرا اذا أتيحت لهم الفرصة ،

ووجدوا القيادة الرشيدة التى تقودهم نحو الانتاج ونحو المجد ، ولم تعـــد روح الاستكانة التى تفشت فيهم منذ بداية عهـــد المماليك تجد مكانها فى نفوسهم ، ولم يعد الأجنبى يستطيع التسلط عليهم . وقد أثبتت الحوادث القادمة فى كثير من الفرص دبيب هذه الروح وقوتهـــا وروح الثقة التى وقفت فى وجه المماليك تحول دون تسلطهم على البلاد كمـــا وقفت فى وجه خسرو وخورشيد تحول دون استبدادهما ، كما وقفت فى وجه السلطان تطالب بحقها فى تعيين واليها الذى يختاره الشعب بارادته الحرة . لا الذى يختاره لها السلطان . وروح الثقة هذه التى دفعت الشعب المصرى الى مقاومة نزول البريطانيين فى سنة ١٨٠٧ رغم قصور أسلحته ، بل التى أجلت البريطانيين عن رشيد وأعادت الثقـــــة الى واليهـــا فبادر بالمقاومة بعد أن فكر فى الاستسلام .

وربحت مصر أيضـــا ان أثبت المصريون قـــدرتهم واستعدادهم على التعلم وأهليتهم للعلم والمعرفة ، فلم يعد الشعب المصرى هذه الجمهرة من الفلاحين التى تزاول حرفتها عن تقاليد ورثتها لا تستطيع تغييرها ، ولا هذه الفئة الجاهلة التى تمارس علمها الموروث عن تعصب للقديم . بل هو هذا الشعب الواعى الذى يحتفظ بقديمه ولكنه يتطلع الى كل حديث فيتعلمه ويستفيد منه . واذا كانت روح الجمود قد تفشت حتى أصبحت لازمة من لوازمه فلم يكن ذلك الا عملا خبيثا أراد الاحتلال الأجنبى أن يفرضه ليستفيد منه . واذا ما وجد الفرصة السانحة نفضها عنه وأسرع ليأخذ مكانه فى موكب العلم والعرفان .

فلا نستطيع اذن أن نسمى ما تم خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تطورا بل كان فى الحقيقة ثورة قام بها الشعب المصرى ليعوض ما فاته من نوم طويل عميق .

حقيقة ان مصر لم تنل نتيجة لهذه الجهـــود استقلالها أو شـــخصيتها السياسية الكاملة ، ولكن ذلك لم يكن نتيجة قصور من أهلهـــا أو عـــدم كفاية مواردها لاكتمال هذه الشخصية ، بل كان نتيجة للتدخل الاجنبى الذى وجد مصلحته فى عدم تمكين المصريين من القيام بهذه الخطوة . فقد شاءت انجلترا ان تجد صالحها فى بقاء مصر ضمن الامبراطورية العثمانية ما دامت متسلطة على هذا الرجل المريض ، الذى يمكنهـــا من تنفيذ جميع مآربهـــا .

وكانت فرنسا تشـــايع مصر بعض الشىء ، الا أنهـــا اضطرت تحت ضغط ظروفها الداخلية وخضوع الحـــكومة الفرنسية للحكومة البريطانية فى أن تزيد ضغطها على مصر . أما روسيا فقد كانت سياستها تتجه خلال هـــذه الفترة الى محاولة تحطيم تركيـــا لوراثتها . وان لم تتح لهـــا هذه الوراثة الكاملة ، فلا أقل من أن تقتسم أملاكها مع من يعنيهم الامر ، ولكنهـــا كانت تفضل دائما أن تكون هى المحطمة لها فيكون لها وحدها حق وراثتها . أما اذا جاء هذا التحطيم على يد غير يدها فلن يكون لها فى الأمر ناقة ولا جمل ، ولذا رأت من الأفضل لها بقاء السلطان الضعيف الذى قد يمكنها الزمن من اغتيال املاكه من ان يستبد به آخر قوى يفوت عليهـــا أغراضها .

وكانت وسيلة الروسيا فى هذا التحطيم ادعاء حماية غير المسلمين من رعايا تركيا وعلى الأخص الأرثوذكس منهم وهم سكان شبه جزيرة البلقان وتحرضهم على الثورة وطلب الاستقلال . فكان ان عقد مؤتمر لندن ، ووجـــد السلطان العثمانى فى قراراته البعيدة عن العدل ما يوافق اغراضه .

فكان ان أرغمت مصر على الرضى بموضع التابع لتركيا تبعية ضمنتها الدول الأوربية التى اشتركت فى هذا المؤتمر (١) ومنذ هذا الوقت أصبحت تبعيـــة مصر للسلطان . أو بمعنى أصح سيادة السلطان على مصر . أو سعى مصر لتغيير هذه السيادة الى اى شكل آخر مسألة دولية تدعو الى تدخل الدول .

وهنا نستطيع أن نسأل ماذا كان موقف الأقباط من هذا كله وما هو دورهم الايجابى أو السلبى فيما حدث من الحـــوادث وما ترتب عليها من نتـــائج .

أراد الأتراك أن يجمعوا القلوب حولهم استعدادا لمعركتهم القادمة مع المماليك ، فأصدروا أمرهم أن لا يتعرض أحد لأعيان القبط (٢) ولما كـــانوا فى حاجة الى المال قربوا اليهم المعلم جرجس الجوهرى فعاد اليه احترامه وشىء كثير من نفوذه وفى ذلك يقول الجبرتى « وكذلك عنـــد مجىء الوزير

---

(١) وفاق لندن المبرم بين السلطان من جهـــة وانجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا من جهة أخرى فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ .
(٢) السنكسار ١٢ بشنس والجبرتى ج ٣ ص ٢٠٠ .

والعثمانيين قدموه وأجلسوه لما يسديه اليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندى ورأيته يجلس بجانب محمد خسرو باشا وبجانب شريف أفندى الدفتردار ويشرب بحضرتهم الدخان ويراعون جانبه ويشاورونه فى الأمور » .

وكان المعلم جرجس وطنيا صحيحا لا يفرق بين أبناء الأمة فى معاملة لأنهم جميعا أبناء وطن واحد وفى ذلك يقول الجبرتى « كان عظيم النفس . يعطى العطايا . ويفرق على الأعيان ، عند قدوم شهر رمضان ، الشموع والعسلية والسكر والأرز والكساوى والبن ، ويعطى ويهب وكان يقف بأبوابه الحجاب والخدم » (١) .

ولكن كثيرين رفعوا شكاياتهم الى الأتراك عن ظلم وقع عليهم أيام الاحتلال الفرنسى وعزوا هذا الظلم الى المعلم يعقوب ، فسرعان ما حقق فى الأمر واثبت التحقيق عكس ما ظنوا وفى ذلك يقول الجبرتى أيضا « انه ظهر لمحمد مرق الذى تولى مصر بعد خروج الفرنسيين ان الظالم الحقيقى فى الجباية لم يكن المعلم يعقوب بل كان مصطفى الطاراتى مقدم القائد المذكور فقطع رأسه بين المفارق فى باب الشعرية » . ولكن لم تلبث الأحوال ان اضطربت أيام طاهر باشا وعجز عن حفظ الامن وعاثت جنوده فى الارض فسادا فقبضوا على المعلم ملطى وقطعوا رأسه . ولم يكن المعلم ملطى وحده الذى فعل به ذلك بل شاركه كثير من المواطنين مسلمين واقباطا ما داموا لا يملكون ا يطمع فيه .

وفى سنة ١٨٠٦ تمكن محمد على من أن يقبض على السلطة وكان فى حاجة الى المال فقرب اليه المعلم جرجس فعاونه هذا أحسن معاونة ، وعول الرجل على أن يستفيد من جميع عناصر الأمة فقد كان الرجل بعيد النظر وعرف ما للأقباط من مهارة لا يستغنى عنها ، وكفاءة لا تنكر ووطنية تدعوهم الى الاخلاص فى العمل فأحلهم من نظامه مكانا مرموقا وأول من يشير اليه هو المعلم رزق أغا الذى كان اليد اليمنى لعلى بك الكبير وتولى ادارة الجمارك

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ١٣١ .

، سنة ١٧٦٨ حين جاء الى مصر المستكشف الاسكتلندى جيمس بروس يبغى البحث عن منابع النيل فأصدر المعلم رزق امرا بعدم التعـرض له وجهـزه بكتاب من البطريرك الى ملك اتيوبيا واذا ما استهل على بك الأمر عينـه ناظرا لدار الضرب .

وعرف محمد على قدره فجعله مديرا وحاكما للاقليم الواقع وراء فرع دمياط واعتمدت عليه الحكومة فى جبـاية الضرائب وقطع دابر اللصوص والعربان الذين اتخذوا هـذا الاقليم مرتعا لهم يغيرون فيه على قوافل الحج وينهبونها ويقتلون كثيرين من الحجاج سواء القادمين أو الراحلين ويبدو أن نجاحه فى ذلك كان ساحقا الى حد ان جعله محمد على كبيرا للمباشرين ولكن ابراهيم بن محمـد على غضب عليه وقتله وجعـل مكانه المعلم ابراهيم الجوهرى الذى أصبح ذا مكانة عالية بعد وفاة أخيه جرجس (٢) هذا فى الوقت الذى كان المعلم غالى ــ الذى كان كاتب الألفى فى الصعيد ــ يقـوم بمسح عموم أراضى مصر ثم تقسيمها حياضا واليه يعزى فضل قيام النظـام الادارى الذى بداه محمد على وظل معمولا به فى الوقت الحاضر وهـو تقسيم القطر الى مديريات ولكل مديرية بندر يقيم فيه حاكما . كما أنه هـو الذى أوصى بالغاء نظام الالتزام ووضع نظام الضريبة الثـابتة على الأرض الزراعية بعد تقسيمها الى مراتب حسب جودتهـا . وقد عرف محمد على للمعلم غالى قدره اذ لم يكد يعينه كبيرا للمباشرين حتى (نزلت طبلخانة الباشا الى بيته واستمرت تضرب النوبة التركية ثلاثة أيام وكـذلك الطبل الشامى وباقى الملاعيب ثم يطلع المعلم الى القلعة فيخلع عليه الباشا خلع الرضـا ويلبسه فروة سمور ويعود الى داره وأمامه الجاويشية والاتبـاع بالعصى المفضضة فيقبل عليه الاعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه والتهنئة

---

(١) مشاهير الأقباط فى القرن التاسع عشر ص ٢٣٦ .

(٢) ينتسب الاخوان الجوهرى الى قرية الجوهرية القريبة من طنطا بجوار محلة مرحوم وقد وجـد له فيهـا ٥٨ فدانا وفى القاهرة شارع يسمى شارع الجوهرى عند العتبة الخضراء وحارة شارع القبلة (مشاهير الاقبـاط ص ٢٢٧) .

له (١) ولا غرو فقد كانت كفاءة المعلم غالى لا تقف عند حد ، فقد كان جبار الذهن متوقد الذكاء واسع الحيلة فقد كان الباشا يطلب المال من المعلمجرجس فيقول له هذا لا يتيسر تحصيله فيأتى المعلم غالى فيسهل له الأمر ويفتح له ابواب التحصيل (٢) .

ورغم ما هو معروف من أن محمد على لم يرسل ضمن بعثاته الى أوروبا قبطيا واحدا (٣) لانه كان يختار طلبته من بين خريجى الأزهر ، فان ذلك لم يشغل منهم بالا ما دامت أمتهم تسير فى طريق صحيح فاكتفوا بأن اشتركوا فى تنظم الأحوال . والسير بها نحو الاستقرار بما عرف عنهم من كفاءة (٤) فقد عين بطرس اغا الذى كان حاكما لجرجا أمام الفرنسيين ناظرا لشونات الغلال . ثم نقل حاكما لبرديس فظهرت كفاءته أينما ذهب . كما عين فرج اغا فى دير مواس . وتكلا سيداروس فى بهجورة . وانطون أبو طاقية فى الشرقية وعبود كاتبا للخزينة وكان الباشا يحبه ويثق به ويقول عنه (لولا الملامة لقلدتك الدفتردارية) (٥) وهو المنصب الذى يتولاه ابنه ابراهيم .

ولم يقتصر الأقباط على المعاونة فى الأمور الادارية بل تعدتها الى كل ما فى طاقتهم فقد اشتط محمد على فى جمع المال حين كانت الحرب الوهابية تلح فى استنزاف موارده فكتب الى المديرين فى جمع المال بأقصى سرعة . فكان نصيب مديرية اسيوط ٢٥ الف جنيه فتقدم المعلم غبريال شنودة فدفعها وحده عن أهل مديريته فقدر له محمد على هذه اليد الكريمة وخلع عليه خلعة سنية (٦) كما كان معظم مهندسيه من الاقباط الذين كانوا قد عملوا مع الفرنسيين واستفادوا من خبرتهم ولم تمنعه ثقته الاولى فيهم من أن ينكل بهم اذا تبين له خطأهم بشىء .

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ١٣٠ .
(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ١٣٠ .
(٣) الجبرتى جـ ٤ ص ١٣٠ .
(٤) الجبرتى جـ ٤ ص ١٣٠ .
(٥) الجبرتى جـ ٤ ص ٣٢٤ .
(٦) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٧٢ .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى ارساء قواعد المساواة على أساس وطيد والى اقصى حد(١)ولذا لم تتحرج الحكومةعن استعمال الشدةضد قصيرى النظر ممن يتآمرون بالقومية الصحيحة ويمستقبل الوطن. فقد ثار الرعاع بدمياط يوما وقبضوا على كاتب بديوان الثغر هو المعلم سيدهم بشاى وادعو عليه زورا انه سب الدين الاسلامى وشهد عليه امام القاضى بعض الناس بذلك ، فخيروه بين الاسلام والقتل وارسل الى محافظ الثغر فأيد الحكم ففضل المتهم الثانية فجلد وجر على وجهه من فوق سلم المحافظة الى اسفل ثم طاف به العسكر بعد أن اركبوه جاموسة (بالمقلوب) فى شوارع المدينة فخاف جميع النصارى واغلقوا منازلهم ومات المعلم سيدهم بعد خمسة أيام من شدة التعذيب . فاهتم الوالى بالأمر وأرسل مندوبين لفحص القضية ، فأعادوا التحقيق وتبين منه عدم صحة التهمة وتحيز القاضى والمحافظ فى الحكم عليه ، فعزلا من وظيفتهما ونفيا . وقد أراد محمد على أن تكون هذه الحادثة عبرة لكل من تحدثه نفسه بالعبث بالوحدة المصرية ، فأراد قتل أحدهما . ولكن توسط بعض القناصل وطلبوا تهدئة الحالة فسامحهما ولكن بعد أن اذن للمسيحيين برفع الصليب جهارا أمام جنازاتهم فتم لهم ذلك فى دمياط ثم عمت بعد ذلك فى جميع مدن القطر أيام الانبا كيرلس الرابع (٢) .

وأرادت الحكومة أن تؤكد للأقباط حرية ادارتهم لأحوالهم وأملاكهم دون تدخل من الدولة فى ذلك . وقد كان هذا الحق معترفا به من قبل الا أن الأقباط لم يكونوا يتمتعون به بشكل جدى لكثرة ما تدخلت الحكومة قبل الاحتلال الفرنسى فى مصالحهم ولكثرة ما نالهم من الأذى ، فأرادت الحكومة أن تؤكده لهم كتابة وفى ذلك اطلاق لحريتهم فى أن يبنو ما يشاءون من الكنائس الجديدة ويرمموا القديمة منها بكل حرية دون ما حرج أو تدخل أو اذن أو شبه ذلك ، فكان أن صدر قرار أن يديروا بانفسهم وبالاشتراك مع رجال الأكليروس أموال أديرتهم وكنائسهم ومدارسهم (٣) .

واذا ما فتح السودان فى سنة ١٨٢١ احتاج الى كثير من الموظفين

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٣٠٠ .
(٢) السنكسار ١٧ برمهات .
(٣) الأقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ٢٧ .

للعمل فى مجال الحضارة ، وكان العمل يجرى هناك فى ظروف قاسية سواء من ناحية عداء الأهالى لهم و عدم توفر وسائل العيش . فلم تكن هذه الظروف بمانعة عددا من الاقباط من أن يتقدموا لشغل هذه الوظائف ولم تتردد الحكومة فى استخدامهم فذهبوا الى هناك وعملوا فى الادارة وحملوا العبء فى شجاعة . وبذلك عادت المسيحية الى الظهور فى السودان بعد أن غابت عنه قرابة خمسة قرون . وكان هذا الظهور بواسطة مصريين لا سودانيين واذا ما استقروا هناك وأرسلوا الى البطريرك بطرس السابع يسألونه أن يرسل لهم راعيا يقوم بالخدمة الدينية لهم فرسم لهم أسقفا هو الأنبا داميانوس .

ولقد حمل الموظفون الاقباط الذين قبلوا العمل فى السودان الى هذا القطر الحضارة التى أرادت مصر ادخالها فيه ، فقد كان موظفو الحكومة المصرية نوعين عسكريين ومدنيين . أما العسكريون فمنهم المأمورين والضباط وأفراد الحامية فكان أغلبهم مترفعا عن الاختلاط بالأهالى يرهبونهم لما لاقوه منهم من الشدة والغطرسة خصوصا وقد وكل اليهم امر جمع الضرائب. اما المدنيون واغلبهم من الأقباط فقد اختلط الشعب بهم ولم يجد فى هذا الاختلاط حرجا . كما أنهم لم يكونوا يعيشون فى ثكناتهم بمعزل عن الأهالى بل سكنوا المنازل التى بنتها لهم الحكومة فى الخرطوم الجديدة وأم درمان ، واخذ الأهالى يبنون منازلهم الى جوارهم وعلى مثالهم . واخذوا يقلدونهم فى طرق معيشتهم ومعاملتهم ، فكانوا بذلك الممثلين الحقيقيين لمصر المتمدينة فى هذه الاقاليم **فكان أثر الأقباط فى حمل رسالة الحضارة لم يكن محصورا فى مصر وحدها بل تعداه الى السودان وغير السودان من أقطار الشرق العربى . وان هذا الاثر ليذكرنا بما فعله المصريون فى اثيوبيا أيضا ،** فكثيرا ما كانت الحكومة تلجأ الى مصر فى طلب الصناع المهرة لاتمام أعمال تنوى الحكومة القيام بها ، فلم تكن مصر تتردد فى ارسالهم ، فكان هؤلاء الصناع كما كان اخوانهم التجار رسل الحضارة المصرية الى هذه الانحاء . وقد يعترض معترض ان الحضارة المصرية التى حملها هؤلاء الصناع والموظفون لم تكن على درجة من التقدم تتيح لها أن تؤثر فى هؤلاء الناس . وانى وان كنت أوافقهم على ضعف مستوى الحضارة المصرية . آنذاك الا انى أعود فأقول انها وان لم تكن متقدمة الا أنها تعد كذلك بالقياس الى

ما كان عليه السودان وما كانت عليه اتيوبيا من التأخر النسبى . وهى لذلك ادعى لأن يقلدها هؤلاء السكان . فلو كانت على درجة كبيرة من التقدم لما حاول السكان تقليدها أو أن يقربوها . فمدنية الانجليز فى السودان حينما ذهبوا اليه كانت اكثر تقدما من مدنية المصريين ولذلك لم يحاول السودانيون تقليدهم . بل كانت مدنية المصريين أقرب الى السودانيين وادعى الى تقليدهم لها عن مدنية البريطانيين المرتفعة ولذا كان المصريون أشد أثرا من غيرهم فى كل من السودان واتيوبيا .

وامتد النفوذ المصرى الى السودان فى خلال النصف الأول من القرن الماضى ولكنه لم يذهب الى أبعد من فاشودة (١) ولكن الحكومة كانت تؤجر الأقاليم العليا لتجار من المصريين والسودانيين ليقوموا بحرية الاتجار هناك نظير جزية سنوية بمثل هذه الطريقة عمل السيد احمد العقاد وشريكه موسى العقاد ومحجوب البوصيلى وعبد الحميد أبو عمورى وغيرهم ، فاستخدموا العدد الهائل من الأعوان المدججين بالسلاح وانشأوا الزرائب التى كانت بمثابة نقط عسكرية لقواتهم وفى نفس الوقت بمثابة مخازن لما يجمعونه من العاج .

وقد ساهم الاقباط فى هذا النشاط ايضا فقد عمل هناك شنودة وغطاس وبقطر ، وباسيلى ، (٢) واتخذوا من الخرز والدروع والقصدير مادة تجارتهم يبادلونها بسن الفيل وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس (٣) .

واذا كان هناك من اللوم ما يوجه الى هؤلاء التجار من أنهم سرعان ما تحولوا الى تجارة الرقيق وهى تجارة شائنة ، الا أننا لا نستطيع أن نحكم على مثل هذه الأعمال بعقلية القرن العشرين . فقد كانت هذه التجارة مشروعة فى ذلك الوقت فكان والى مصر يشجعها . وقد حاول أن يتخذ من هؤلاء العبيد مادة لجنده . وكان الأوروبيون جميعا سواء من الفرنسيين أو الانجليز أو البرتغاليين يشتغلون فى هذه التجارة ويقومون بشراء العبيد من

---

(١) مصر والسودان ص ٨٥ .
(٢) مصر والسودان ص ٩٥ .
(٣) الزبير باشا رجل السودان ص ٤٧ .

ساحل غانة وحوض الكونغو ليحملوهم الى امريكا الشمالية والبرازيل طيلة خمسة قرون سابقة لبداية القرن التاسع عشر ولم يكونوا يجدون فى هـذه التجارة جرما ولا اثما (١) فيمكننا أن نقول اذن ان هؤلاء التجار الاقباط قد ساهموا كما ساهم غيرهم فى تقدم البلاد التجارى وانعاشها اقتصاديا . وكانت هذه التجارة ناجحة الى حد ان امرت الحكومة باحتكارها لنفسها بعد ذلك وكسبت منها اموالا كثيرة .

وقد ادهشت سرعة تقبل المصريين جميعا لسياسة التسامح الدينى كثيرا من الكتاب الاجانب الذين ارخوا لهـذه الفترة وعزوها الى ان عامل الوطنية لدى المصريين اقوى من عامل الدين (٢) وهو عامل وان كان حقيقيا الا انه لا يعدو أن يكون احد هذه العوامل .

فقد عاش المصريون منذ أقدم الأزمنة على ضفاف وادى النيل وكونوا المجتمعات المتفرقة وعبدوا المعبودات المختلفة ، ولكنهم شعروا جميعا رغم اختلاف هذه المعبودات — بما يربطهم بعضهم من عوامل اللغة والعادات والأخلاق والاحساس — فاتحدوا وكونوا دولتين احداهما فى الشمال والاخرى فى الجنوب ، ولم يحل اختلاف ديانة شعوب هاتين الدولتين من قيام الاتحاد بينهما حتى كونوا المملكة المتحدة ، وذلك لأن عوامل الوحدة كانت أقوى من عوامل الاختلاف ، فهذا النيل الذى يربطهم ويوحد مصالحهم لو انقطع لجفت تربته وأصبح المصريون جميعا لا يجدون ما يقتاتون به ، واذا ما ارتفع ماؤه أشرقت وجوههم جميعا بالبشر وامتدت أيديهم جميعا الى هذه الأرض السوداء ينشئون فيها مجارى مياههم لتصل الى حقولهم فتبعث فيها الحياة . ولو زاد هذا الفيضان ولو بضع بوصات لهددهم جميعا بالاكتساح وهو حينئذ لن يغمر ارضا ويترك اخرى ولا يبعث الخراب الى ركن ليترك آخر . ولكن هذا الفيضان لا يجرى الا اشهر قليلة ، ولذا اسرع المصريون جميعا الى ارضهم يستثمرونها ، ففى شهور الربيع لن تسمع الا هذه الأنات ذات الوقع الموسيقى للسواقى وهى تدور لترفع الماء من الآبار العميقة الى

---

(١) صحوة افريقيا ٦٥ — ٦٧ .

(٢) Egypt and Egyptian Question p. 35 —40

جوف الأرض (١) ولذا لم تحدث فتنة واحدة منذ قيام الاتحاد الثانى بواسطة ذلك نارمر من أجل العودة الى إستقلال كل جزء على حدة وقبض أتباع رع على السلطة فخضع له أتباع آمون وهاتور وغيرهما . ولم يشعر أحدهم أن اختلاف الديانة يؤدى الى العداوة بينهما وأتى المحتل الأجنبى ليقضى على استقلال الوطن فعاداه المصريون جميعا سواء كانوا من أتباع هذا المعبود أو ذاك .

حتى اذا هب الوطن لطرد المحتـــل الدخيل (الهكسوس) الذى أذل المصريين لم يقم أتباع ديانة ما بعون المحتلين ضد اخوانهم بل عاداه المصريون على اختلاف ديانانهم من أجل خلاص الوطن . وذلك لأن القـــومية فى دم المصرى أقوى من أى عامل آخر . ولا غرابة فى ذلك فمصر أول من عرفت القومية فى العالم وكونت الوطن ذا الحدود السياسية الواضحة وأخذت تزود عن حياض الوطن جميع الطامعين فتبعد اللوبيين أو غيرهم من قبائل البدو القادمين من الشرق لأنها رأت هؤلاء جميعا أجانب عنه لا ينوون به الا شرا .

واذا ما أتى الاسلام اعتنقه بعض المصريين فلم يكن ذلك سببا لعدائهم لمن بقى على مسيحيته أو عداء البـــاقين على مسيحيتهم لمن دخل فى الدين الجديد فعاشوا اخوانا متحابين كعهدهم فى جميع أدوار حياتهم يفلحون أرضهم متعاونين على الخير والشر فمجىء الفيضان المنخفض لم يكن نكبة على المسلم دون القبطى ولا على القبطى دون المسلم وكـــذلك جميع النـــكبات توحـــد الشعور بالخطر . وكذلك وحدة الشعور بالنعمة . وكذلك وحـــدة التقاليد ووحدة العادات ووحدة الحرفة . كلهـــــا عوامل مجتمعة جعلت شعب مصر وحدة متماسكة ، فلم ينظر المصرى الى اختلاف الدين سوى أنه مظهر من مظاهر اختلاف الرأى الأمر الطبيعى فى أبناء الوطن الواحد .

واذا كان بعض الولاة أو الحكام قد فكر فى احياء بعض مظاهر التعصب الدينى ، فلم يكن ذلك الا لغرض دنىء هو غرض التفرقة بين أبناء الوطن كى يستفيد هـــــو من ذلك ، فلم يكن الاقبــــــاط يعنون كثيرا بالخضـــــوع

---

(١) الحضارة المصرية ص ٣٥ — ٤٠ .

لهذه الأوامر والنواهى (١) كما لم يعن المسلمون بمراعاتها من جانب الاقباط ، ولذا لم تكن هذه الأوامر والنواهى تظهر الا لتختفى . وكان احتفاؤها فى أغلب الأحيان سريعا تحت دافع الوطنية والأخوة والحب الذى يكنه المصريون جميعا لبعضهم البعض . ولهذا السبب عينـــه حرص المماليك والأتراك ثم الانجليز كما سنرى على بث التفرقة بين أبناء الوطن الواحد لصالح هذا الأجنبى ورغم طول الحكم المملوكى الذى استمر قرابة ثلاثة قرون . وطول العهد التركى الذى استمر أيضا قرابة ثلاثة قرون والذى حرص الحكام أثنائها على بـــذر بذور العداوة بين المصريين لم يفلح هذان الحاكمان فى جعل هذهالتفرقة اوهذا الاختلاف ذا جذور عميقة . ولذا ظل طول هذين العهدين سطحيا . فاذا ما جاء القرن التاسع عشر وساد التسامح لم يجد المصريون صعوبة فى العودة الى حياتهم الطبيعية التى ألفوها . وتقبل المصريون جميعا أقباطا ومسلمين هذه السياسة الجديدة على أنها السياسة الطبيعةالتىيجبأنيعيشالمصريون جميعا فى ظلهـــا . والتى يجب أن تسود مجتمعاتهم سواء كانت ريفية أو حضرية وما سياسة التفرقة بين عنـــــاصر الأمة الا سياسة مقصودة من الحاكم حتى وان كان مصريا لا يقصد بها الا فائدته الشخصية . ومما يزيد فى فخر المصريين بأنفسهم أنهم طوال تاريخهم ـــ لم يحاول مصرى قط اتباع هذه السياسة الجديد على أنها السياسة الطبيعية التى يجبانيعيشالمصريون المصريين الا رعاعهم وسفلتهم الذين يريدون الصيد فى الماء العكر من أجل السرقة أو النهب ولا يزيدنا تتبع هذه السياسة فى العصور الحديثة الا ايمانا بهذه الفكرة مما سوف تظهره فى الفصول القادمة .

---

(١) الحضارة الاسلامية ص ٨٢ .

الباب الرابع

عصر اسماعيل

يبدأ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومصر تحت حكم عباس الأول المكروه من بقية عائلته لأنه حجب العرش عن (اصحابه الشرعيين) وهى تمارس حياتها السياسية تحت قيود فرمان ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ كما كان العهد خلال العشر سنوات الماضية . وكان هذا الفرمان — وان ربطها بعجلة الامبراطورية العثمانية الواهنة بخيوط ثقيلة — يمنع تركيا من التدخل فى أمورها الداخلية الا فى حالة سفر الوالى الى استنبول عند توليته لاستلام مرسوم التولية . وفيما عدا ذلك تستطيع اذا أحسنت التصرف أن تجعل علاقتها بتركيا أو هى من خيوط العنكبوت .

ولكن مما يؤسف له أن أفراد (العائلة المالكة) اعمتهم أطماعهم الشخصية عن ان يتبينوا مصالحهم ومصالح مصر ، فقد تكررت شكاياتهم ضد عباس (المستبد) مما دعا السلطان الى التدخل فيما بينهم وهو تدخل راى كل واحد منهم فيه مصلحته ، فرأى عباس أن يستعين بمن هو اقوى من السلطان ، فكان التدخل البريطانى هو الذى أوقف بقية افراد العائلة عند حدهم ، فكان ثمن هذا العون خط سكة حديد اسكندرية الذى وافق عباس على انشائه بواسطة شركة بريطانية لخدمة التجارة البريطانية . فشخصية مصر الكاملة وسيادتها كادا أن يتحققا الى حد ما فى ظل فرمان سنة ١٨٤١ — لولا هذه الأطماع الشخصية لأفراد تلائل لم يستطيعوا أن يتبينوا إكثر من مواطىء أقدامهم .

وكانت هذه الخلافات محصورة بين افراد العائلة فلم يكن للمصريين أن يتدخلوا فيها ولا فى استطاعتهم أن يتدخلوا ؛ ولذا انصرف المصريون الى أعمالهم يزاولونها فى هدوء وسكينة .

وكانت سياسة الحكومة تتجه الى اكمال التصفية التى بدأت أيام محمد على بعد سنة ١٨٤٢ لما كان بها من منشئات تقانية وصناعية أقيمت لأجـل خدمة الجيش على أساس غير اقتصادى . ولما طلق محمـد على سياسته الحربية بعد صدور فرمان سنة ١٨٤١ انتهت الدوافع اليهـا فأخذت طريقها الى التصفية . ومهما قيـل عن فرمان سنة ١٨٤١ من أنه لم يغير حالة التبعية التى كانت تدين بهـا مصر نحو الباب العالى ، فاننا لا نستطيع أن ننكر أنه رفع قيمـة مصر عما قبل الحملة الفرنسية من ولاية عادية تتمتع بجميع مساوىء الحكم التركى الفاسد الى ولاية ذات مركز خاص يستطيع صاحب الشأن فيهـا كما يستطيع أهلهـا أن يدبروا أمرهم بأنفسهم وفق ما يشتهون وان كان ذلك فى حيز محدود .

وجاء عصر سعيد فكان خاليا بعض الشىء من هـذه المشاحنات التى أدت الى التدخل التركى والتى انتقصت السيادة المصرية المحدودة . ولكنه لم يكد يعتلى (العرش) حتى رأى أن يتطلع الى عون تركيـا فى الحرب التى كانت قائمة ضد الروسيا وهى الحرب المعروفة بحرب القرم . وقـد كانت تركيا فى هذه الحرب تقف مسـتندة على ذراع انجلترا وفرنسا بل على اسطولهما فى البحر الأسود . وكان من الواضح أن هاتين الدولتين لن تتخليا عن (الرجل المريض) لما يعود عليهما من ضرر فلن تكون لهذه الحرب من نتيجة اذا انتصرت الروسيا سوى تقسيم تركيـا واستيلاء هذه الدولة (الروسيا) على المضايق وجزء كبير من آسيا الصغرى . ورغم المساعدات المتوالية لم تكن الجيوش التركية تلقى غير الهزيمة سواء فى الميـدان الغربى (البلقـان) أو الشرقى فى أرمينية . وكانت مصر ترقب هذا الصراع الذى استمر ثلاث سنوات .

وان أقل فهم فى السياسة الدولية آنذاك ليقودنا الى الاعتقاد ان انتصار الروسيا لو تم — لكان فالا حسنا لمصر . فالروسيا لم تكن طامعة فيهـا ، فالاستيلاء على المضايق وشبه جزيرة البلقـان وشواطىء آسيا الصغرى الشمالية وجعل البحر الأسود بحـيرة روسية كانت كل أمانيهـا ، ومصر تتمتع بشخصية مستقلة أباحت لها عدم تقديم مساعدة لتركيا حتى سـنة ١٨٥٥ وضعف جيشها البادى والمقيد بفرمان سنة ١٨٤١ . كانت كلهـا

عوامل تتيح لها أن تستكمل هذا الاستقلال ، ومما كانت فرنسا أو انجلترا تسمح أيهما للأخرى باحتلال مصر . اذ أن فرنسا كانت تجدها منطقة نفوذها الطبيعى منذ أيام محمد على . وبينما كانت انجلترا تجدها شريانها الرئيسى نحو مستعمراتها فى الشرق الاقصى وكانت هذه المنافسة هى التى سوف تؤدى بهاتين الدولتين الى الاعتراف باستقلال مصر الضعيفة على أن تحاول كل منهما الاستفادة من هذا الضعف لصالحها . فكأن موقف مصر الطبيعى كان يجب أن يكون الى جانب الروسيا . ولكن هذا الموقف قد يكون سببا فى بلاء جديد لو انتصرت تركيا وحليفاتها . ولن يكون جزاء هذا الموقف اقل من ضياع هده الشخصية المستقلة التى تتمتع بها ، فلا أقل اذن من أن تقف موقف الحياد المشوب بالعطف على الروسيا . ولكن قصر نظر سعيد هو الذى أملى عليه ان يرسل جيشا مصريا ليقف الى جانب تركيا ، وليشترك فى حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل ، فكأن جهل سعيد وقصر نظره هما اللذان دفعا به الى ارتكاب هذه الحماقة التى جعلت قيود فرمان ١٨٤١ أمتن وأقوى مما كانت .

وكان عصر سعيد أيضا العصر الذهبى للقناصل ، فقد تدخلوا فى جميع نواحى الادارة المصرية من أجل مصالح رعاياها ، وكان جزء كبير من هؤلاء الرعايا (الأجانب) من أصل عثمانى ولكنهم اشتروا هذه الحمايات من أجل مصالحهم الشخصية ومنافعهم التى كثيرا ما كانت مخالفة للقانون . وضعف سعيد عن مقاومة هذا التدخل وبلغ الحال بهؤلاء القناصل أن تدخلوا لحماية تجارة الرقيق (١) .

ومضت بانتهاء عهد سعيد ثلاث عشرة سنة كاد فيها هذا القدر من السيادة المصرية أن يختفى . ولكن أتت ثلاث عشرة سنة أخرى لاقت فيها السيادة المصرية طريقها الى الظهور بل سمت فيها القومية المصرية الى ما يشبه الاستقلال التام لولا خيط ضئيل . فقد صدر فرمان سنة ١٨٦٤ الذى أعطى مصر حق وراثة العرش ، فقطع طريق المؤامرات وتدخل السلطان ، كما ضمت الى مصر سواكن ومصوع فى السنة الثانية بشرط عدم سريان نظام

---

(١) مصر والسودان ص ٩٣ .

الوراثة اليهمـــــا (١) . ولكن لم تمض سنة أخـــرى حتى سرى على هاتين المأموريتين ما سرى على بقية الولاية . ولسنا بصدد تعداد الفرمانات المتوالية التى اكسبت مصر حقوقا فوق حقوق . ولكن يكفى أن نذكر الفرمان الشامل فى سنة ١٨٧٣ الذى جعل مصر مستقلة تماما عن الباب العالى ، لولا خيط أوهى من خيوط العنكبوت . وبفضل هذه السلسلة المتتابعة من الفرمانات استطاعت مصر أن تصل بحدودها الى خط الاستواء ، بل أطلت على المحيط الهندى مترة من الزمان وبفضل هذه الفرمانات راست مصر حفلات افتتاح قناة السويس بصفتهـــا صاحبة القناة وصاحبة الدعوة ، وحضر الحفـــلة مندوب من السلطان ، ولم يكن يزيد عن غيره من الضيوف بل تقدمه غيره من الضيوف الذين ارتفعت منزلتهم عن منزلته . واذا ما فتحت هرر سنة ١٨٧٢ كتب أميرها محمد بن على بن عبد الشكور أنه يقبل طائعا مختارا التسليم هو واهل طاعته ومملكته الى الخديوية المصرية (٢) لا الى السلطان . وبفضل هذه السلسلة من الفرمانات وقعت مصر سلسلة من المعـــاهدات مع الدول الأجنبية من أجل مصالحها الخاصة فوقعت معـــاهدة صلح مع الامبراطور يوحنا فى ١٨ مارس ســـــــنة ١٨٧٦ انتهت حالة الحـــرب بين الجانبين الافريقيين (٣) .

وفى شهر اغسطس وقعت معـــــــاهدة مع انجلترا بشأن الغاء تجارة الرقيق (٤) ، وبفضل هـــــذه الفرمانات راست مصر مؤتمرا دوليا عقـــد فى القسطنطينية من أجل الغاء الامتيازات حين استبدل بهـــا نظام المحـــــاكم المختلطة . وهو ان كان نظاما فاسدا الا أنه وضع حدا لتدخل القناصل ، وبدا لكل ذى عينين ان مصر سوف تأخـــذ مكانها تحت الشمس . ولم يكن ذلك بفضل مساعدة أحد غير جهود أبنائها . ولم يكن ذلك مما ترتاح اليه انجلترا وفرنسا وهما الطامعتان فيهـــا منذ بداية القرن ، ولذا لا نستغرب اذا حاولت كلتاهما انتهاز فرصة الازمة المالية وديون اسماعيل كى تعيدا قصة التدخل وكى تحرما مصر من التمتع بثمرة جهودها .

---

(١) مصر والسودان ص ١٠٤ .
(٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٣) مصر السودان ص ١٤٢ .
(٤) مصر والسودان ص ١٠٣ .

وبفضل جهود أبنائها تمتعت مصر بنوع من التمثيل النيابى لو ترك مع الزمن لتطور وأصبح أداة من أدوات اظهار ارادة الشعب بل نجح فعلا فى أن يحد من سلطة المراقبة الثنائية وأن يحد من التدخل الأجنبى ، فقد اتجهت جهود مجلس شورى النواب الى ابعاد النفوذ الأجنبى اكثر مما اتجهت الى الحد من سلطة الخديوى (١) الامر الذى لم يرتاح اليه أعداء مصر المتربصون بها فكان عزل اسماعيل .

ولم يكن عزل اسماعيل فى حد ذاته نكبة أصابت مصر ، فما كان أول والى يعزل ولا آخرهم . ولكن وجه النكبة فيه أنه تم بناء على تدخل أجنبى لقى ترحيبا من السلطان وكان هذا التدخل هو بداية انهيار السيادة المصرية التى كادت أن تستكمل . وكأنما تآمرت على مصر الذئاب اذ أراد السلطان الضعيف أن يسترد ما حصلت عليه مصر من امتيازات سابقة .

وجاء توفيق الضعيف لا ليرد لمصر كرامتها ، بل ليمرغها فى الطين ، فقد مزق السيادة المصرية يوم شعر بجميل انجلترا عليه ، فجعل القنصل البريطانى مستشاره المفضل فى كل أموره مهما صغرت ومزق القومية المصرية يوم أعطى الجراكسة مكان السيادة من هذه الامة ، ومزق القومية المصرية يوم الغى مجلس الشورى وصمم على أن يحكم البلاد بالحديد والنار، ومزق القومية المصرية يوم قابل العرابيين فى ميدان عابدين محوطا بالبريطانيين ، ومزق القومية المصرية يوم انسحب الى قصره ليترك أمر مفاوضة قواد جيشه لعمال بريطانيا ليرضى هو بما يبرمونه وما يتركونه ، ومزق القومية المصرية يوم قبل مطالب الجيش مدفوعا بعامل الخوف لا عامل الايمان بهذه المطالب وهذه الحقوق .

وأخيرا جاءت الثورة العرابية لتنبيه هذا الغافل الى حقوق شعبه . وما كانت فى بادىء أمرها ثورة . بل لم تعد أن تكون مطالب جيش مستندا الى أمة ليحققها له من بيده الأمر . ولكن جبن الخديوى وقصر نظره هما اللذان حولا هذه الحركة البريئة الى ثورة يقوم بها شعب ليسترد كرامته وقوميته

---

(1) Egypt and Egyptian Question p. 79

بعد أن أضاعهما هذا الضعيف . وقام الشعب وأعطاه المجلس النيابى الذى يستطيع أن يستند اليه فى مغالبة المتدخلين . حين قرر مسئولية الوزارة أمامه وكان يرمى فى ذلك الى تحدى سلطة بريطانيا أكثر من أى شىء آخر (١) ولكنه أبى الا أن يعصف بهـذا المجلس . واذا ما تولت الأمر وزارة وطنية تمثـل هذا الشعب المكون من جمهور الفلاحين أبى الا أن يستعدى السلطان عليها ويطالبه بالتدخل . وقد كادت حقوق السلطان تصبح نسيا منسيا حتى اذا لم يسعفه هذا السلطان الضعيف ذهب يستعدى البريطانيين الذين وجدوا الفرصة المواتية لتحقيق اغراضهم القديمة خصوصا وقد ازدادت أهميـة مصر منذ افتتحت قناة السويس للملاحة سنة ١٨٦٩ وصار الاستيلاء على هذا الطريق المائى من اغراض السياسة البريطانية (٢) فأرسلوا جيشهم وقاومه المصريون ما وسعتهم قوتهم ولكن الخيانة والغدر كانتا أعظم من هذه القوة وسقطت البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولم يكن هذا الاحتلال سوى بداية للطريق الذى سوف يقودهم الى اختراق قارة أفريقيا من الشمال الى الجنوب وكانوا قد بدأوا يرسمون الخطوط الاولى لهذه السياسة البعيـدة فى سنة ١٨٦٩ حين قدموا السيد صموئيل بيكر الى اسماعيل ليكون حاكم مديرية خط الاستواء فكان نجاحه فريدا فى بذر بذور العداوة بين المصريين والسودانيين.

انصرف قبط مصر خلال الجزء الأول من هذه الفترة الى أعمالهم الخاصة يصرفونها فى هدوء وسكينة ، ومكنهم جدهم ودأبهم على العمل من أن ينجحوا فيها ، واتجه كثيرون منهم الى التجارة فجنوا من ذلك أرباحا مكنتهم من التمتع بشىء من الثروة (٣) (بالرغم من سياسة عباس العدائية نحوهم حتى لقـد فكر فى طردهم من البلاد) . ويبدو أن التصفية التى اتبعتها الحكومة ازاء المنشآت الحكومة كانت ذات أثر قاس عليهم . فقد كان كثيرون من صغارهم يعملون فى هذه المنشآت لاتقانهم القراءة والكتابة والاعمال الحسابية ، فقد كانت مدارسهم القبطية الملحقة بالكنائس تمكنهم من هذا الاتقان ولكنهم اذا ما شعروا بالضيق من جراء هذه السياسة الجـديدة عادوا الى قراهم .

---

(١) مصر والسودان ص ١٦٢ .

(٢) Egypt and Egyptian Question p. 81

(٣) الاقباط فى القرن العشرين ج ١ ص ١٣٠ .

ولكنهم لم يجدوا ما يمكنهم من العيش الرغد الذى تعودوه ، فهاجر كثير منهم الى السودان وهناك شغلوا الوظائف الصغرى فى المديريات ، فان المستر ستانلى يروى (حين وجه لانقاذ أمين باشا مدير مديرية خط الاستواء) أنه كان معه واحد وعشرون كاتبا يعملون فى هذه المديرية كلهم من الاقباط (١) ولم يبالوا بالاحوال الصحية السيئة حين كان كثيرون من المصريين يخشون هذه الهجرة . بل اقبل كثيرون من المهاجرين يشتغلون بالتجارة مع من بقى من اخوانهم فى مصر ، وشجعهم على ذلك عاملان : استتباب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لتأسيس الحكومة الموطدة فى الخرطوم ، ثم فتح النيل الأبيض للملاحة . وقد عنيت حكومة القاهرة دائما باختيار الاكفاء من الحكمداريين الذين امتازوا بالجد وحسن تصريف الأمور والاستماع لشكايات الاهالى واشتهر أكثرهم بالأمانة والاستقامة ولم تضطر حكومة القاهرة الى استدعاء أحد منهم (١٨٤٩ — ١٨٥٤) وهم أربعة سوى جركس لطيف الذى احتكر التجارة فى النيل الأبيض لحسابه ولنفعه الخاص (٢) وكان أكبر مايغريهم هناك تجارة العاج والصمغ والسنامكى ومنتجات سنار فقد الغت الحكومة احتكارها للصمغ ، فكان ذلك مشجعا لهم أن يأخذوا بنصيب من هذه الموارد (٣) وبلغ عدد الاقباط وثروتهم فى السودان مبلغا أن أصبح لهم حتى نهاية الحكم المصرى ثلاث كنائس فى الخرطوم وأخرى فى الأبيض وثالثة فى دنقلة (٤) ولكن لم تلبث كميات العاج أن تدهورت وقل الربح من تجارته ، فاتجهوا الى تجارة الرقيق (٥) وهى تجارة رائجة آنذاك . وان كان يشوبها كثير من المخاطر . وتمكن بعضهم من أن يكون هذه الزرائب والمحطات المسلحة حتى لقد اغتصبوا السلطة تدريجيا من حكومة الخرطوم (٦) بل بلغ من نفوذ بعضهم أن كون شنودة وخورشيد أغا وديبونو دكتاتورية ثلاثية بسطت سلطاتها حول غندكرو فى بحر الجبل (٧) .

---

(١) in the Darkest Africa p. 55

(٢) مصر والسودان ٧٣ .

(٣) مصر والسودان ٨٤ .

(٤) الدليل العام للأقباط ص ١٩٦ .

(٥) مصر والسودان ص ٢٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٦٦ .

(٧) نفس المصدر ص ٩٥ .

وقد كان ضعف عباس وانصرافه عن الأخذ بناصر شعبه وانصرافه عن تثبيت القومية المصرية وكذلك كرهه للمسيحيين ومحاولة اجلائهم عن البلاد ان حاول الأجانب أن يتسللوا الى الاقباط ليتخذوا منهم أداة لتنفيذ اغراضهم

ولكن هذا لم يكن ليغريهم عن قوميتهم ، فالقومية من القبطى كالروح من الجسد . ولذا كان اتجاههم نحو الكاثوليكية والبروتستانتية دينيا بحتا غير مشوب بالسياسة،فقد أبوا الا أن يظلوا محتفظين بقوميتهمفأطلقوا علىأنفسهم لفظ (أقباط) وهو الاسم التقليدى الذى يميز مسيحيى مصر عن مسيحيى العالم أجمع . بل لقد حاولت الكنيسة الروسية أن تلج هذا السبيل حين أوفد القيصر الى البابا بطرس السابع المعروف بالجاولىأحدأفرادأسرتهالمالكة ليعرض عليه وضع الكنيسة القبطية تحت حمايته وكانت الروسيا قد حصلت على حماية الارثوذكس من رعايا الدولة العثمانية فى معاهدة كتشك كيناوجى سنة ١٧٧١ فرفض العرض بلباقة قائلا **أنه يفضل أن يكون حامى الكنيسة هو راعيها الحقيقى الملك الذى لا يموت** (١) وهى كلمات لو ترجمت الى اللغة المدنية لكانت (لا يا سيدى . لن نكون أبدا خائنين لقوميتنا) .

والحقيقة ان هذا الاتجاه من الدول والكنائس الأجنبية لم يحدث الا لأن الخراف كانت ضالة لا تجد الرعاية الدينية الصالحة . ويكاد كل واحد من أفراد الرعية ينصرف فقط الى مصلحته الخاصة دون قائد . ولكن شاء الله لنا رشدا . فوجدنا القائد الحازم والراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة . ذلك هو الانبا كيرلس الرابع الذى استطاع أن يبرهن خلال قيادته القصيرة (١٨٥٣ — ١٨٦٢) ان رجل الدين اذا كانت له الشخصية القومية والماضى الناصع البياض والمستقبل المنزه عن الأغراض الشخصية يستطيع أن يؤدى لأمته أجل الخدمات فى ميادين كثيرة متفرقة ، قد يتصل بعضها بالدين وقد لا يرتبط بعضها بالدين بسبب . فقد أتيح له أن يغرو ميادين الاصلاح فى

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٧ .

أكثر من جهة (١) فلا عجب أن أطلق عليه المؤرخون ذلك اللقب الذى أصبح علما وهو (أبو الاصلاح) وما زال الاقباط حتى العصر الحالى يستعيدوه كعصر المعجزات . فقد أثر عنه التقوى منذ نعومة أظفاره فهجر أهله وعزف عن المدينة بمباهجها وولى وجهه شطر الصحراء يقطع فيافيها ويصعد كثبانها حتى يصل الى دير القديس أنطونيوس لينخرط فى عداد الرهبان ولم يتعد الثانية والعشرين من عمره .

وقد عرف منذ شبابه قسوة الشهوة نعرف كيف يتغلب عليها بالابتعاد عما يثيرها ، فعرف عنه كراهيته للنساء كى لا يثرن فيه ما كمن من شهواته ، وكان يقول (تغلب على الشهوة قبل أن تتمكن منك لأنها ان غلبتك لا يمكنك الا أن تقع فى شر الخطية) فكان اذا أحس ببوادرها عمل على انهاك جسده ليريح نفسه ، فقد حدثوا عنه انه نزل ليلا الى الناحية الغربية من المدرسة القبطية وأخذ يدير ساقيتها بيده وينقل المياه بنفسه ليغسل دورات المياه فيها . فأحس به الحارس فأسرع اليه طالبا أن يقوم عنه بهذا العمل . فأبى قائلا (انك لست مسئولا عنى . ولا تقل لأحد ما دمت حيا .

---

(١) دير القديس أنطونيوس كما مر بنا أحد أديرة الاقباط الارثوذكس فى مصر وهو فى سفح جبل القلالى بصحراء العرب وتبلغ مساحته ١٨ فدانا ويعتبر أكبر الاديرة ويرجع عهد تجديده الى الملك المؤيد (١٤١٢ — ١٤١٤) وبه أيقونة قديمة تمثل السيد المسيح تحيط به الملائكة . وبه أربع كنائس ، أحدثها واحدة بناها الانبا كيرلس الرابع . وبه مكتبة بها ١٥٦٣ كتابا منها ١٤٣٨ مخطوطة . وبه عين ماء كبيرة . ويصل اليه المسافر عن الطريقين ، أحدهما من بلدة العلاقمة المقابلة لبوش ، والآخر عن طريق البحر الاحمر الى نقطة فنار الزعفران ، ثم الى الدير . ويقطع كل من الطريقين فى ثلاثة أيام بالجمال وثمان ساعات بالسيارة . وبه مرصد صغير لمصلحة الطبيعيات وفى الجهة الشرقية من الدير جبل عال به مغارة القديس أنطونيوس التى عاش فيها أربعين سنة . وكان له الى ما قبل صدور قانون الاصلاح الزراعى وتطبيقه على الأوقاف الخيرية سنة ١٩٥٧ — ١٠٧٨ فدانا عدا بعض العمارات التى تدر ما يقرب من خمسمائة جنيها شهريا تقريبا ويقيم به حاليا ثلاثة وستون راهبا وادارته فى بوش حيث معظم أطيانه . (الوسائل العملية) لحبيب جرجس .

انى خفت أن تغلبنى الميول الفــــاسدة فأردت أن أتعب جســدى لأريح روحى) .

وكأنما كان يعرف ان الأقدار تهيئه لقيادة شعبه ، فما انخرط ضمن رهبان الدير حتى اقبل على مكتبة الدير يقرأها كتابا كتابا مستوعبا ما يقرأ فى تمعن وروية ، بل شرع يبث فى زملائه الرهبان حب القراءة والاطلاع . ولم يكتف بذلك بل كان يجمعهم فى أوقات الفراغ من العبادة ليعلمهم ويثقفهم بما حصل عليه من قراءاته العديدة فكأنما كان فى نفسه كليــــة اكليريكية تثقف الرهبان بما يؤهلهم لرعاية شعبهم وينبههم الى ما يجب أن يعملوه لا من أجل أنفسهم ولكن من أجل الشعب الذى ينتظر منهم الرعاية الحقيقية .

وما كاد يرقى الى منصب (مطران بلا ابرشية) فى ابريل سنة ١٨٥٣ حتى سارع الى انشاء مدرسة كبـــيرة فى الدرب الواسع بجوار الكنيسة الكبرى وفى ذلك يقول الايغومانوس فيلتاءوس فيمــــا كتبه الى على باشا مبارك . (وفى سنة ١٥٦٩ شهداء الموافقة لسنة ١٨٥٣) شرع فى عمارة كبرى تجاه الكنيسة من الجهة البحرية ، فأخذ المنازل اللازمة لاستيفاء المدرسة والقلاية والكنيسة بعضها استبدالا بأماكن أخــرى والبعض اشتراه بالثمن حتى حاز المنازل التى كانت مجاورة للقلاية والكنيسة المقابلة لها من مدخل العطفة المذكورة الى انتهائها . وفى أثناء عمارة المدرسة سد الطريق الذى كان موصلا الى حوش القطرى اذ لم يبق فى العطفة سوى أملاك الوقف وتمم عمارة المدرسة وبدل نظامها الأول وحوله الى الوضع الذى هو عليه الآن . وجلب البهــا المعلمين وأباح لأبناء الامة جميعــــا من المسيحيين والمسلمين والاسرائيليين ادخال أبنائهم ليتعلموا ما يريدون من العلوم العربية واللغات المعتبرة والآداب مجانا وكان أول افتتاحها سنة ١٥٧١ سنة « ١٨٥٥ » (١) وعين للصرف عليها ايراد جملة أماكن من وقف الدار البطــريركية ولم تزل للآن تصرف فى شئونها مع باقى المكاتب التى افتتحها فى القـــاهرة . وقــد نجحت هذه المدرسة منذ أوائلها وشاهد نجاحها مؤسسها وكثير من طلبتهــا الأول مشرفون الآن بالرتب والخدم الاميرية . هــذا وقد صير موقع العطفة

---

(١) التعليم فى مصر لامين باشا سامى ص ١٦ .

المذكورة دائرة واحدة تشتمل على الكنيسة . والبطريركية والمدرسة وجعل على هذه الدائرة بابا كبيرا من الجهة الغربية وهو الباقى للآن بحالته بالدرب الواسع (١) .

وكان اذا ما زاره أحد ذو شأن صحبه الى المدرسة لزيارتها وسأله عما يراه من أوجه النقص فيهـا فيسارع باصلاحه . كما كان كثيرا ما يدخـل الفصول ويجلس مع التلاميذ وينصت الى ما يقـوله المدرسون . حتى اذا انتهى الدرس التفت الى التلاميذ قائلا : « لقد استفدت معكم اليوم فائدة لم اكن اعرفها من قبل » (٢) فكان بذلك يضرب المثل لغيره ان طلب العلم لا ينتهى عند الحصول على المنصب بل يجب على الفرد أن يثقف نفسه ما دام حيا .

ولما راى ان بعض الطلبة يقيمون فى جهات بعيدة . اشفق عليهم وأنشأ لهم مدرسة وكنيسة بحارة السقايين وكان يتفقد حالتها مرة كل أسبوعين . وكان للغتين الايطالية والانجليزية مكان ممتاز فى خطـة الدراسة بالمدرستين ولذلك عين كثير من خريجى هاتين المدرستين فى المصارف المالية وعند التجار لمعرفتهم اللغة الايطالية واستأذن البطريرك من سعيد باشا فى ادخال تلاميذ المدارس القبطيـة فى مدرسة الطب وغيرها من المدارس (٣) الأميرية وهـو ما نسميه فى الوقت الحاضر اعتراف الوزارة بشهادتها .

ولعل اكثر ما يكتب لهذا الرجل بأسطر من ذهب أنه عرف ان النساء نصف الأمة . وهن القوامات على تربية أبنائهـا . ولا فلاح لامة نساؤها جاهلات . فأسرع بانشاء أول مدرسة للبنات فى مصر (١) فى الوقت الذى لم تكن هناك مدرسة أخرى لهن لا فى مصر ولا فى تركيا بل الشرق العربى كله . فكأنه بذلك سبق اسماعيل كمـا سبق قاسم امين الى الدعوة الى تعليم المرأة وتحريرها كى تأخذ مكانها فى المجتمع المصرى كشريكة للرجل وعلى قـدم المساواة معه . فكان بذلك رائد النهضة النسائية . ولعل هذه ـ لو كانت

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٣١ .
(٢) نوابغ الاقباط مشاهيرهم فى القرن التاسع عشر ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) تاريخ التعليم فى مصر ص ٨٣٥ .
(٤) Ceorci Sobhi, Education in Egypt, Balletindela Sr. A. C. IX. p - 117.

وحدها – لدليل على القومية الصحيحة التى تبعى قياده صحيحة . لا تهريجا فارغا يرمى الى الصيت الزائف . وكما قال احد معاصرينا (كان الوحيد الذى يبنى وغيره يهدمون) وبلغ عدد المدارس التى انشأها كيرلس الرابع ست مدارس (١) وفتحها لجميع أبناء الأمة فى الوقت الذى كانت فيه سياسة الحكومة متجهة الى اكمال سياسة التصفية واغلاق ما بقى من مدارسها .

وكأنه عرف ايضا ما لموقع مصر من الأهمية كنقطة ارتكاز العالم أجمع . وما على اهلها من واجب جمع الشرق والغرب ، فحض على تعليم اللغات الأجنبية وكان اكثر اهتمامه موجها الى اللغتين الإيطالية والانجليزية ، اما الأولى فكانت لغة التجارة فى ذلك الوقت ، أما الثانية فكانت لغة أجنبية اخرى لموازنتها كى لا تكون هناك أفضلية للغة على أخرى . وحض على احياء اللغة القبطية وجعل فى المدرسة فصولا لتعليمها كما اهتم بأمر الكتب القبطية ونشرها . فكان بذلك منبهـا للمصريين الى لغتهم القومية الاصيلة (٢) .

ولم تكن هناك وسيلة لهذا النشاط الثقافى سوى الطباعة فاهتم

---

(١) مازالت ثلاث من هذه المدارس باقية تعمل منذ انشائها حتى الآن وقد اكملت عام ١٩٦٤ عامها العاشر بعد المائة فتكون بذلك أقدم مدارس مصر القبطية .

(٢) واللغة القبطية هى اللغة الديموطيقية بعد أن كتبت أصواتها بحروف يونانية لتبسيط قواعد كتابتها . وكان ذلك فى القرن الثانى الميلادى . وسميت بالقبطية لأن الاقباط أو المصريين تمسكوا بهـا كلغة قومية أولا وكمظهر من مظاهر الثورة على الحكم الرومانى ثانيا . وهى لا تمت الى المسيحية بصلة . فأولى بنا نسميها باسمها الصحيح وهو اللغة المصرية . ولها أربع لهجات . الصعيدية وهى لهجة سكان الصعيد الأعلى . والفيومية . وهى لهجة سكان مديريتى الفيوم وبنى سويف والمنفية او البشمورية . وهى لهجة سكان مديرية الجيزة وجنوب الوجه البحرى . والبحرية ، وهى لهجة الوجه البحرى والأخيرة المستعملة حاليا فى الكنائس . وقد ظلت هذه اللغة لغة التخاطب والكتابة بين المصريين حتى القرن السابع الميلادى . حين جعلت العربية لغة رسمية لمصر أيام عبد الملك بن مروان . ولكن اللغة المصرية ظلت مع ذلك حية بين المصريين وان أخذت فى الضعف . وتتغلب عليها العربية شيئا فشيئا حتى بدأ للكتاب القبط فى القرن الثالث عشر أن لابد لهم أن يؤلفوا بالعربية . كى تجد كتبهم رواجا . وكان أول من فعل ذلك صفى الدين بن العسال .

بانشاء مطبعة عربية خاصة للدار البطريركية . فكانت أولى المطابع العربية فى مصر . اذا استثنينا المطبعة الأميرية . واستصدر من سعيد أمرا بقبول أربعة من الاقباط للتمرن على العمل فى المطبعة الاميرية .

ومن طريف ما يروى أنه لما وصلت المطبعة الى الاسكندرية — وكان مقيما آنئذ فى الدير أمر باستقبال أدواتها من مدخل الدرب الواسع بموكب يسير فيه الأكليروس بملابسهم الرسمية وقد أعرب البطريرك عن سروره بوصول المطبعة . بقوله : « لو كنت حاضرا لرقصت أمامها . كما رقص داود النبى أمام تابوت الرب » .

وساءت العلاقات بين مصر واتيوبيا بسبب اختلافهما على الحدود . فسكان المنطقة التى تصل بين اتيوبيا والسودان رعاة لا يعترفون بالحدود السياسية المصطنعة ولم تستطع كل من الحكومتين المصرية أو الاتيوبية أن توقف نشاط هجراتها المستمرة بين المنطقتين لانهم ما زالوا يسعون نحو الكلأ أينما كان . فأدى ذلك الى اضطراب العلاقات بين الدولتين . هذا الى نشاط عصابات الشفتا وعلى رأسهم الراس كاسا الذى أصبح فيما بعد تيودوروس الثانى . وفرضهم الأتاوات على الاموال ووصل نفوذهم الى القلابات ومديرية فازوغلى الداخلة فى حدود السودان .

وكانت انجلترا تسعى من جانبها الى زيادة الجفاء بين الدولتين . بسبب سياسة سعيد الفرنسية . وسيره فى اجراءات حفر قناة السويس رغم معارضة انجلترا ورغم تدخلها لدى السلطان أكثر من مرة من أجل ذلك. وكان مما يتفق ومصالحها أن يشغل سعيد فى حرب توقف حفر القناة . لأنها كانت تخشى سيطرة فرنسا عليها فقد أخذت الأحوال تضطرب فى الهند وظهرت اهمية مصر كطريق للمواصلات السريعة بين انجلترا وممتلكاتها فى الشرق الأقصى (١) فعزم سعيد على أن يرسل حملة تؤدب قبائل الحدود وتعيد الى المنطقة هدوءها . ولكن الباب العالى لم يلبث أن أرسل اليه يثنيه عن عزمه

---

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

لأنه لم يصدر من جانب الاثيوبيين ما يستدعى اتخاذ هذا الاجراء (١) فلم يجد سعيد بدا من اللجوء الى السياسة فالتجأ الى الأنبا كيرلس الذى يتيح له مركزه كبطريرك الاسكندرية فى النوبة واثيوبيا والخمس مدن الغربية ان يتدخل فى الامر . فلم يتردد الانبا كيرلس فى أن يسافر الى اثيوبيا من أجل ازالة سوء التفاهم رغم ما عرف عن وعورة الطريق . وأمر سعيد فجهزت للبطريرك ولمن معه باخرة نيلية وحمله الهدايا النفيسة وخرج من القاهرة فى الرابع من سبتمبر سنة ١٨٥٦ (٣٠ مسرى سنة ١٥٧٢) وأمر سعيد أن يستقبل الركب استقبالا رسميا على طول البلاد التى يمر بها فكانت المدافع تطلق اجلالا وتعظيما وأمر أن يرسل الى الباخرة يوميا كل ما يطلبه ركابها من مؤونة .

وكانت سنة ١٨٥٦ السنة الثانية من حكم الامبراطور تيودوروس الثانى الذى عرف بعدائه للانجليز فما ان علم الامبراطور بمقدمه حتى سارع لمقابلته فى موكب حافل على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود الحبشية لانه وجد فى هذه الزيارة فرصة طيبة تمكنه من توطيد مركزه الى درجة سوف يقضى بها على أعدائه . القضاء الاخير كما يقضى على كل محاولة تبذل من اجل الثورة عليه أو اقصائه عن العرش . رغم تتويج الأنبا سلامة له فى فبراير سنة ١٨٥٦ .

ولكن صادف غياب البطريرك فى اثيوبيا زيارة سعيد باشا للسودان (٢) وهى الزيارة المشهورة التى اعلن فيها سعيد مراسيمه الاربعة باصلاح الأحوال هناك . قد وصل اليه مصطحبا جيشه على عادته . فانتهز الدساسون الفرصة فأوعزوا الى الامبراطور بأن زيارة البطريرك ليست الا ذرا للرماد فى العيون كى يتقدم سعيد باشا بجيشه الى اثيوبيا .

فقد كانت فرنسا ترى فى تتويج البطريرك للامبراطور القضاء الاخير على محاولتها التدخل من أجل استبداله اذ أنها لم تكن قد اعترفت به وتؤمل تغلب أنصار رجلها الرأس عالى عليه فقد أرسل نابليون الثالث بعثة رسمية من

---

(١) رسالة من الصدر الاعظم الى سعيد باشا فى ٢٢ مايو سنة ١٨٥٩ .
(٢) مصر والسودان ص ٨٤ .

أجل الاعتراف بهذا الاخير امبراطورا لقاء منح فرنسا امتيازات فى بلاد اتيوبيا. فلم تكد تصل الى مصوع لتخترق الهضبة الى العاصمة حتى كان كاسا قد اودى معه بأحلام فرنسا فى اتيوبيا (١) وجلس على العرش باسم تيودوروس. وكان وصول البطريرك الى اتيوبيا وقت زيارة سعيد باشا للسودان اكبر دليل على اتفاقه معه خصوصا وقد صور له انه يحمل برنسا مسموما اذا لبسه الامبراطور سرى السم فى جسده فيموت .

فخدع الامبراطور بهذه الاقوال وصمم على قتل البطريرك ، الا أن والدته تدخلت وأمرت أن يجرد البطريرك من ملابسه ويلبس هذا البرنس المسموم فوضع البطريرك فى خيمة منفردا بعد أن لبس هذا البرنس وظل أربعة أيام تحمل فى اثنائها كثيرا من الاهانات . وأرسل فى أثنائها رسولا الى سعيد يرجوه سحب الجنود المصرية من الحدود الاتيوبية . فلم تلبث براءة البطريرك أن ظهرت وتأكدت هذه البراءة عندما سمع الامبراطور بانسحاب الجيش المصرى . فتقدم الامبراطور اليه رافعا حجرا كبيرا على راسه ثم انحنى أمامه وقبل قدمه فقبل البطريرك رأسه وسامحه .

ونجح البطريرك فى مهمته وعاد الى وطنه مثقلا بالهدايا مصطحبا وفدا اتيوبيا يحمل معاهدة صداقة بين الدولتين موقعا عليها من الامبراطور وما ان جاءت الاخبار بوصوله من الخرطوم حتى أمر سعيدباستقبالهرسميا.واذا ما وصل الى القاهرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ بعد ان غاب سنة حتى استقبله الشعب والحكومة فى موكب دينى سار فيه القسس والشمامسة متشحين بملابسهم المذهبة رافعين الصلبان من شاطىء النيل حتى حارة السقايين ، ومنذ هذا الوقت أصبح للأقباط أن يجهروا بشعائرهم الدينية ومواكبهم فى الشوارع بعد أن كان ذلك محرما عليهم . فكأنه بذلك وضع الحجر الأخير فى بناء سياسة المساواة التامة بين المصريين جميعا وهى الركن الركين فى

---

(١) المقتطف يوليو سنة ١٩٥٢ .

القومية المصرية . كما أنزل الوفد الاتيوبى فى دار الضيافة ولم يلبث سعيد أن استقبله وتقبل ما معه من الهدايا ورد عليها ردا جميلا .

ومن العجيب أن البابا حينما رأى أن الاقباط الذين دخلوا فى الكاثوليكية لم يحاولوا استغلال هذا التحول من الناحية السياسية أراد أن يتجه الى البطريرك مغريا اياه بحماية البابا لأقباط مصر تحت ستار اتحاد الكنيستين ، فأرسل اليه رسولا يصحبه الخواجا حنا مسرة وكان وقتئذ جالسا أمام عمارة المدرسة بملابسه العادية . فما ان كاشفاه بالأمر حتى استهوله ولكنه ملك أعصابه وأمر لهما بالقهوة . واذا ما شرباها . أمسك بالانجيل يقلبه بين يديه منشغلا عن ضيفيه فاذا سألاه عن سبب انشغاله قال لهما ان العمارة قد استنفدت كل ما كان لديه من مال . وانه طلب من أبنـاء الطائفة مالا فلم يسعفوه ففكر فى بيع صكوك الغفران كما فعل بابا روما . وها هو يقلب صفحات الانجيل لعله يجد فى ذلك سندا يسوغ له ذلك . وطال بحثه ولكنه لم يجد هذا المسوغ ولذا فهو يرجوهما أن يدلاه على ذلك . فكان ذلك نهاية النقاش (١) .

ولم تكن محاولة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية هذه بأول محاولة من نوعها فقد سبقتها أكثر من ثلاثين محاولة . ولكن مما يؤسف له ان هذه المحاولات لم تقصد لذاتها بل كانت دائما تخفى وراءها أغراضا سياسية . فاذا ما دنت هذه الأغراض الحقيقية بالزوال . صرفت النية عن مجهودات الاتحاد . فالدفاع عن الدولة كان الغرض الحقيقى الذى أثيرت من أجله محاولات الاتحاد بين سنتى ١٠٥٥ ، ١٠٧١ حينما أراد الامبراطور قسطنطين التاسع أن يتخذ من البابا وسيلة للدفاع عن بلده ضد غزوات النورمانديين .

وفيما بين سنتى ١٠٧٣ ، ١٠٩٩ كان ميشيل السابع والكسيس كومنينوس يبغيان الدفاع عن دولتهما ضد الاتراك السلاجقة .

وفى القرن الثالث عشر بذل أباطرة الدولة الرومانية الشرقية محاولات

---

(١) صور من تاريخ القبط ص ٣٢٦ .

الاتحاد مرة أخرى بنية القضاء على الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية .
وفى سنة ١٢٦١ عمل ميشيل باليوجوس على استعمال هـذا السلاح ضد شارل انجو .

وكانت مجهودات القرنين الرابع عشر والخامس عشر تشتد وتتراخى تبعا لهجوم الاتراك العثمانيين .

وعندما اشتد هجوم محمد الثانى دعا جون الثـامن الى عقد مؤتمر فى فلورنسا سنة ١٤٤١ لغرض اتحاد الكنيستين . وقـد اشترك فى هذا المؤتمر مندوب مصر هو الأب أندراوس رئيس دير القديس أنطونيوس وقد قبـل المفاوضون الشرقيون أن يعترفوا بسلطة البابا مقابل أن يدعو هذا الاخير ملوك أوربا الى حملة صليبية لانقاذ القسطنطينية من خطر الوقوع فى يد الاتراك . ولكن قرارات المؤتمر لم تكن عملية ولم تؤد الى نتيجة فقد وعد البابا بما لم يستطيع أن يفعله فلم تحقق المعونة الاووبية للدولة الرومانية الا جيشاهزيلا لقى حتفه عند أول لقـاء مع الاتراك (١) ولو خلصت النيات يوما واجتمع الساعون للاتحاد اتحادا دينيا بحتـا وتنزهت نياتهم عن الاغراض الذاتية لتوصلوا سريعا الى الاتفاق لأن نقط الخلاف سطحية بحتة .

ولم يقف الانبا كيرلس عند حد بناء الكنيسـة أو المدارس أو المطبعة ، بل امتدت يده الى الأديرة فوضع للرهبـان أنظمة صارمة لا يخلون بهـا ، فحرم على الرهبان الخروج من الأديرة والطواف بالقرى لجمع المـال . ولم يتردد عن اظهار حزمه عند كل مخالفة حتى أطلق عليه الرهبـان اسم (أبو نبوت) هذا الى اهتمامه أيضـا بمكتبات الأديرة فعين لكل منها أمينا وحتم عليه أن يمسك سجلا بمحتوياتها كما جعل اهتمامه باللغة القبطية عمليا فألف لجنـة من عريان جرجس مفتاح والقس تـكلا والمعلم قزمان وبرسوم ابراهيم الراهب لتضع لها كتبا لتدريسها وأمر بادخالها فى منهج المدارس القبطية (٢) .

---

(١) Lembridgs Gnedieval Hvrtory Vol ii.

(٢) الدليل العام للأقباط والمسيحيين فى الامة ص ١٨١ .

ومات الانبا كيرلس الرابع فى ظروف غامضة فى ٢٣ طوبة سنة ١٥٧٧ الموافق الاحد والثلاثين من يناير سنة ١٨٦٢ ولم يتسن للأقباط أن ينتخبوا بطريركا جديدا خلال مدة قصيرة فاختـــير الانبا مرقس مطران البحـــيرة والاسكندرية قائمقاما بطريركيا . وأراد سعيد أن يتدخل فى انتخاب البطريرك ليصير ذلك تقليدا تتدخل الحكومة بمقتضاه فى اختيار كل من يعتلى هـــذا المنصب الرفيع :

وما أن شاع الخبر حتى وقف الاقباط كلهم معارضين هذا الامر الذى سوف :

أ ــ يسلبهم حق انتخاب البطريرك بملء حريتهم الامر الذى جروا عليه منذ القرن الخامس .

ب ــ يخالف تقاليدهم فى انتخاب البطريرك من طائفة الرهبان .

جـ ــ يخالف قوانينهم الصريحة فى عدم انتقال أسقف الى منصب آخر مهما كان رفيعا (١) ووقف المسيحيون فى وجهه واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا

---

(١) (ايما أسقف ترك كرسيه وعمله وابروشيته وما يعنيه من تدبير شعبه ومضى الى غير بلده ولو كان محتاجا مضطرا أو مضرورا فلينف . ويلق من درجته) .
المادة ١٣ من قوانين الرسل .
ب ــ (أمرنا ان لا يتعدى الاسقف من نفسه ولا القس ولا الشماس أن ينتقل من موضعه الذى سيم عليه ورسمه باسمه . فمن خالف لما رسمناه وتجول من موضع الى موضع وجبنا عن رأيه ويعود الى موضعه راجعا . ولا يتجرأ على مقاومة الكنيسة والتعدى على سنتها وحرمنا . فانه لا بأس من سوء العاقبة من الله . وقد جعلناه تحت السنودس المقدس . وحرمه وسيأتى عليه سخط الله عاجلا) القرار الخامس عشر من قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥م .
جـ ــ (لا يجوز لأحد من الاساقفة أن ينتقل من ابرشيته الى اخرى) .
د ــ (السيف أو النار أو الرمى الى الاسود أو النفى أو السبى لايغلبنى فلست أدخل تحت مالا يجب ولا أدخل تحت حرمى . الذى كتبته وبدأت به ان لا يصير أسقف بطريركا) .
(قرار الانبـــا ميخائيل بطريرك الاسكندرية السادس والاربعين . تاريخ البطاركة جـ ١) .

بحرمان الاسقف الذى يتطلع الى منصب البطريركية أو يسعى اليه (١) ولما مات البطريرك ديمتريوس سنة ١٨٧٠ أراد اسماعيل باشا ان يعيد الكرة وينجح فيها فشل فيه سابقيه فاختير الانبا مرقس مرةأخرى قائمقاما بطريركيا والبس اسماعيل المحاولة الثانية ثوب القانون . وأوعز الى وهبة بك رزق باشكاتب ديوان المالية أن يجمع من الاقباط تزكيــة بذلك ونجح وهبة بك فى التأثير على بعض الناس الذين كانوا يخافون نوة اسماعيل . وكاد الأمر ان يتم وفق ما يشتهى . ولكن الاقباط وقفوا هذه المرة أيضا كما وقفوا فى المرة الاولى واجتمع المجمع المقدس وأصدر قرارا بحرمان كل من يتولى المنصب من الاساقفة (٢) .

واحتاجت مشروعات اسماعيل الى عدد كبير من الموظفين ليشــغلوا الوظائف فى الجهاز الحكومى الواسع الذى انشىء فى مصر فاشتغل فى هــــذه الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . وكانت بعض الوظائف عدد كبير من المصريين بينهم نسبة كبيرة من الاقباط . حتى راينـــا عزمى باشا يشغل وظيفة رئيس الديوان الخديوى وجرجس بك الفيشاوى يشغل سكرتيريته .

كما شهد السودان خلال هذه الفترة نشاطا ليس اقل مما شهدته مصر . فان الجهود التى بذلت فى السودان خـــلال هــذه الفترة (١٨٦٣ — ١٨٧٨) جعلتها من أهم الادوار فى تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر (٣) واستوعبت هذه الوظائف كثيرين من الاقباط الذين بلغوا فيها مبلغا كبيرا من الرقى .

---

(١) كل من يطلب رتبة البطريركية من الاساقفة أو المطارنة . أو أصحاب الكراسى أو سعى فيهـــا أو رضى بها . أو أحد سعى له فى شأن يطلبوه لها . كاهن أو رئيس كهنة أو علمانى يكون محروما) .

قرار المجمع المقدس للكنيسة القبطية فى ١٥٨٥ ش .

(٢) قد نحقق ان المنتخب للبطريركية الا يكون الا بكرا . وان كان له بعض مراتب المذبح لا يكون أكثر من كاهن . وان بطاركتنا المائة والحادى عشر ليس منهم من كان أسقفا على ابروشية وتركهـــا وان القانون منع انتقال الأسقف من كرسيه) .

(٣) مصر والسودان ص ٩٨ .

وكان السودان يتبع ادارة خاصة فى القـــاهرة حملت اسم (ادارة السودان) عين لها ابراهيم روفائيل الطوخى رئيسا فى سنة ١٨٧٣ وظـل بهـا حتى سنة ١٨٨٢ حين منيت مصر بالاحتـلال البريطانى ولم يتركها حتى عمها الاضطراب فلم تمض بضعة أشـــهر حتى استدعى اليهـــا مرة ثانية ليبقى بها الى سنة ١٨٨٤ واذا ما انشئت المحـاكم الاهلية عين قاضيا بمحكمة الاستئناف الاهلية وله فوق ذلك مؤلفات دينية عديدة .

وعلى شاكلة ابراهيم الطوخى رأينا كثـــيرين يتولون مناصب هى موضع الحسد من كثيرين كما فعل ميخائيل بك شاروبيم الذى كان سكرتيرا خاصا لاسماعيل باشا صدقى حتى سنة ١٨٧٦ حين نقل وكيـــلا لمصلحة الجمارك ثم مديرا لجمرك دمياط والى نسيم بك شـــحاتة كبير كتاب مصلحة السكك الحديدية يعزى فضل تنظيم أعمالها الكتابية والحسابية على قـــواعد علمية عالية . واليه أيضا يعزى فضل انشاء نظام ادارى دقيق للترقية يقضى على كل اثر للمحسوبية ويجعل الترقية على أساس الكفاءة ليس غير . فكان ذلك موضع اعجاب الوزير الذى اثنى عليه لدى اسماعيل وطلب له الرتبة الثانية فأنعم عليه بها . ونقل الى ادارة الخزانة العامة بوزارة المالية (١) .

ووصل بعض الاقباط الى مناصب مديرى المديريات وهو منصب يعتبر نيابة عن الخـــديوى ومن أمثال هؤلاء جرجس بك وصفى الذى كان مديرا للمنوفية وعوض بك سرور الذى كان مدير القليوبية (٢) .

وقد ســاهم الاقباط فى النشـــاط الــكبير الذى شمل نواحى الزراعة والصناعة . ولم تكن هذه المساهمة يسيرة بل كبيرة الأثر حتى اقتنى كثير منهم ثروات يحســدون عليهــا وقد شهد كثير من السياح الأجانب الذين زاروا

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٤ ص ٧٥ .
(٢) محاضر المؤتمر المصرى فى القاهرة سنة ١٩١١ .

مصر فى السنة الاولى من الاحتلال البريطانى ثراء كثير من الاقباط فى أسيوط وقالوا ان هذا الثراء يبدو فى عمائمهم البيضاء النظيفة وملابسهم الغـــالية وسلوكم الراقى وتعبيرهم المؤدب مما أعطاهم مكانا اجتماعيا مرموقا (١) كما شهدنا كثيرين من الأعيان الذين تولوا مكان الزعامة فى قراهم أمثال بشارة عبيد بقنا ومقار تادرس ومشرقى عبد النـــور بجرجا (٢) بل رأينا عائلات استطاعت بفضل تعاون أفرادها ان تمتلك مئات الافدنة بل الآلاف تستغلهـــا فيما يعود بالمنفعة عليهم وعلى من حولهم من الفلاحين وعلى بلادهم مثــل عائلتى ويصا وشنودة وحنا ميخائيل بأسيوط (٣) والبطارسة جرجا (٤) وتكلا ى بهجورة (٥) وطلب اسماعيل من هذا الأخير أن يشغل وظيفة ناظر بقـــلم قضايا مديرية جرجا فنزل عند ارادته .

ولم يقتصر نشاط الاقباط فى هذا العهد على الميدان الحكومى أو الزراعى فحسب بل اتجهوا الى الناحية الثقافية أيضا وساهموا فيها بنصيب لا ينكر ففى سنة ١٨٧٨ أنشئت مدرسة الاقباط الصناعية لتنيح للبلاد ما تحتاجه من مهرة الصناع المثقفين وذلك بفضل عالم كبير هو وهبى بك الذى اتجه الى فائدة مواطنيه عن طريق التأليف فوضع عدة كتب للدارسين مثل العقـــد الانفس فى ملخص التاريخ المقدس) (والتحفة الذهبية فى تقريب اللغـــة الفرنسية) و (ارتشاف الراوى فى صرف النحـــو الفرنساوى) ويبدو أن الكتابين الاخيرين وضعا لمساعدة دارسى اللغة الفرنسية .

ولما كان متبحرا فى اللغة العربية الى جانب تبحره فى اللغة الفرنسية فقد طلب العلم فى الأزهر (٦) فوضع « الخلاصة الذهبية فى علم العربية » فكان أول كتاب فى النحو كما وضع « مرآة الظرفى فن الصرف » كمـــا أقبل على

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٧٢ .
(٣) نفس المصدر ص ٨١ .
(٤) نفس المصدر ٨٦ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٤ جـ ٣ .
(٦) نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٤ .

نظم الشعر فأجاده حتى لقد ترجم شعر لرواية تمثيلية هى رواية « تليماك » بل يعزى اليه فضل أول رواية تمثيلية عربية « التوفيق فى قصة يوسف الصديق » وقد مثلت على مسرح الاوبرا وحضرها الخديوى توفيق واثنى على مؤلفها . وكان هذا التشجيع داعيا له لأن يندفع فى تيار التاليف فوضع « الأثر النفيس فى تاريخ بطرس الاكبر ومحاكمة الكسيس » التى مثلت كذلك فى نفس الدار فى عهد توفيق كذلك (١) .

وتولى منصب البطريركية هذه الاثناء الانبا ديمتريوس (١٨٦٢ — ١٨٧٠) ثم كيرلس الخامس (١٨٧٤ — ١٩٢٧) وقد كان الاول شديد الاهتمام بالناحية الثقافية فتابع أثر سلفه فى الاهتمام بمدارس الاقباط حتى بلغ عددها فى نهاية حكم اسماعيل اثنتى عشرة مدرسة بالقاهرة وواحدة بمصر القديمة وواحدة فى الجيزة ومدرستين بالاسكندرية يتعلم فيها الطلبة القبطية والعربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والحساب ومبادىء الهندسة والتاريخ والجغرافية وبعض المنطق وأناشيد الكنيسة وذلك خلاف مدرسة أكليركية (٢) يتعلم فيها اثنا عشر طالبا من راغبى الكهنوت اللغة القبطية والعربية والالحان الكنسية . وكانت أهم هذه المدارس المدرسة البطريركية وقد بلغ عدد طلبتها فى سنة ١٨٧٧ ثلاثمائة وتسعة وسبعين طالبا منهم ثلاثمائة وأثنين من الاقباط . كان عدد تلاميذ حارة السقايين والاخرى بجانب الازبكية وكان فى الاولى خمس وأربعون بنتا وفى الثانية ما فوق ذلك (٣) وقد عرفت الحكومة فضل هذه المدارس فكان رفاعة بك يحضر سنويا لامتحان طلبتها وتقرر اعفاؤهم من الخدمه العسكرية (٤) ووهب لهم اسماعيل ألفا وخمسمائة فدان هى تفتيش راس الوادى لينتفعوا بريعها وظل هذا التفتيش وقفا عليها حتى أواخر أيامه حينما رأت لجنة التصفية

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٣٤ .
(٢) لم تعش هذه المدرسة طويلا بسبب ضعف مواردها المالية .
(٣) تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل جـ ١ ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٤) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٣٤ .

الاستيلاء على أملاك اسماعيل علاجا لمسألة الديون والحق ان الاقباط اقبلوا على التعليم فى نهم غريب خلال هذه الفتـرة من تاريخهم حتى لقد وصلت نسبتهم الى مجموع عدد الطلبة فى المدارس الاميرية الى ٦٦ ٪ .

ولكن يبدو ان المؤرخ نسى مدرسة أخرى للأقباط وهى مدرسة الخياط الواصفية بأسيوط وهى التى انشأها فى سنة ١٨٦٧ واصف خياط فكانت بذلك المدرسة الرابعة للبنات فى مصر ثلاث منها للأقباط ورابعة حكومية وقد تولى الانفاق على هذه المدرسة بسطوروس خياط ومن بعده ابنه أمين خياط ثم انجاله واصف وشكرى خيـاط وجدد بناء هذه المدرسة امينة خياط وهذه المدرسة وان كانت تعلم البنات نظير مصروفات الا انها كانت منخفضة وكان ربع عدد الطالبات ينعلمن بالمجان وتقوم احدى سيدات عائلة خياط بسد العجز سنويا دون أن نلجأ الى جهة حكومية أو أهلية (١) .

واذا ما أراد للبطـريرك ديمتريوس أن يزور المسيحيين فى الصعيد ليتفقدهم (٢) كما يتفقد الراعى رعيته وضعت الحكومة تحت تصرفه باخرة نيلية وامرته أن يستقبل فى كل البلاد التى ينزل بها استقبالا رسميا .

وفى ظل سياسة المساواة التامة بين المصريين اقبل الاقباط على بنـاء الكنائس حينمـا أرادوا دون أن يتطـلب الامر اذنا أو تصريحـا بل لم يجد بعض الاقباط حرجا فى بناء المساجد ووقف الاوقاف عليهـا كما فعل مرقس بك يوسف الذى انشأ فى طنطا كنيسة سنة ١٨٦٥ ومسجدا فى بلدة جنـاح .

وقد ساهم الاقباط أيضا فى هذه اليقظة الفكرية التى شملت مصر فى نهاية عصر اسماعيل وكان اسهامهم فعالا فقد أسس ميخائيل عبدالسيد جريدة الوطن سنة ١٨٧٨ وعمل جرجس ميلاد مديرا لهـا وكان الاخير متضلعا فى

---

(١) أهرام ١٩٥٧/١١/٨ .
(٢) السنكسار ١٠ بؤونة .

اللغة الانجليزية داعيا الى انتشارها وقد أثر عن هذه الجريدة فهمهـــا للتطورات السياسية الخارجية وعمق بحثها لما تتناوله من موضوعات . فقد انتهزت فرصة الحرب البلقـــانية الاولى (١٨٧٥ — ١٨٧٨) لنشرح تاريخ الروس وجغرافية بلادهم وأسباب الحرب مشــيرة الى موقف الروس من الدويلات العثمانية فى أوربا الشرقية وأحقية هــذه الشعوب فى الحرية التى تسعدها والدستور الذى تلح فى طلبه والمذاهب السياسية الجــديدة التى تقف تركيا دون تحقيقها ووالت الجريدة تتبع هذه الحرب وقرنت أخبــارها ببحوثها العميقة حتى أضحت اعدادها سجلا لأطوار الحرب (١) واذا ما طلبت الحكومة التركية من الحكومة المصرية مناصرتهــا بارسال الجيوش المصرية ورفضت الحكومة المصرية هذا الطلب بحجة تصــور الميزانية وقفت الوطن تؤيدها دفاعا عن الاستقلال المصرى الذى حصل عليه اسماعيل بفرماناته المتعددة . واذا ما اقترحت الصحف البريطانية على حكومتهــا احتلال مصر لتمنع انتشار النفوذ الروسى اليها قصدت لهــا جريدة الوطن تندد بهـــذا الموقف الاســـتعمارى وتنبه الأذهان الى ما يحاك من الدسائس من أجل الانتقاص من الاستقلال المصرى (٢) .

ولم تقف جريدة الوطن هذا الموقف لعدائهــا ولا لصداقتها لروسيا بل وكانت تنظر الى مصلحة مصر وحدها فما أن انتهت الحرب ووقفت روسيا فى مؤتمر برلين تحاول أن تنقض على تركيا فتقترح مساهمة مصر فى تســديد الغرامة الحربية التى فرضت على تركيا بسبب هزيمتها حتى تصــدت جريدة الوطن لتدافع مرة أخرى عن مصر المستقلة وبعدها عن الشئون التركية بعد فرمان سنة ١٨٧٣ (٣) .

واذا كانت جريدة الوطن قد وقفت هذه المواقف المشرقة وكانت كلهــا فى صف اسماعيل خديو مصر الشرعى فانها لم تتردد فى التعريض به وبحكمه

---

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٧٥ .
(٢) الوطن مارس سنة ١٨٧٨ .
(٣) تطور الصحافة المصرية ص ٧٨ .

الاستبدادى وانتهزت فرصة تعيين الوزارة النوبارية لتشرح مساوىء العهد القديم فى تقـــريره ضرائب (غير مقررة ولا جائزة ولا مبررة) وحملت على الموظفين الذين (اثروا من فقر الفلاح حتى اصبحوا من اهل اليسار والثروة وصارت فى حيازتهم أخصب الأطيان) ورجعت بالوزارة النوبارية كمظهر من مظاهر تقييد سلطة الخديوى (١) .

ولم تكن جريدة الوطن كما لم يكن الاقباط مرحبين بالنفوذ الاجنبى الا على أنه واسطة لاصـــــلاح الخلل الذى إنتشر فى ظل حكومة اســماعيل الاستبدادية ولكنها لم تتردد فى الوقوف فى وجه هؤلاء الأجانب اذا ما رأتهم يحاولون فرض سلطتهم واستغلالها لنشر نفوذهم فحملت الجريدة على كل من المستر ولسن المراقب البريطـــانى والمسيو دولنيار المراقب الفرنسى حينما أراد شغل بعض المناصب الكبرى بالبريطانيين والفرنسيين وذكرت ان ذلك سيحرم أبناء الوطن المتعلمين من حقهم فى مناصب بلادهم (٢) .

واذا كان الوطن قـد رحب بوزارة نوبار التى سوف تتحمل المسئولية فى حكم البلاد فانها لم ترحب بالمسئولية الوزارية لذاتها بل رحبت بها لتكون مقدمة لمـا هو أجل وأعظم (ليست هناك فائدة مطلقا من هذه المسئولية ما لم يكن هناك مجلس نواب الذى هو ألزم لمصر من لزومه للدول الأوربية) لأن الوزارة المصرية مختلطة .وهؤلاء الوزراء الاوربيون سوف يقدمون مصالح بلادهم على المصالح المصرية فمجلس النواب هو القـــوة التى توقف هؤلاء الأجانب عند حدهم وتلزمهم انتهاج سبيل خدمة مصر وتقديمها على مصـــالح دولهم (٣) .

فاذا كانت جريدة الوطن ومن ورائها الاقباط قد أيدوا اسماعيل فانهم لم يفعلوا الا حين رأوا مصلحة وطنهم تقتضى هذا التأييد واذا ما عادوا بعد ذلك فنقدوا اسماعيل مؤيدين التـدخل الاجنبى ثم انتقدوا هـذا التـدخل

---

(١) تطور الصحافة المصرية ص ٨١ .
(٢) الوطن ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٧٨ .
(٣) تطور الصحافة المصرية ص ٨٦ .

آخذين يضحى بمصالح مصر فانهم لم يكونوا فى ذلك الامصريين قوميين يبحثون عن مصلحة مصر وحدها فيقفون لهـا مدافعين عنها واذا كان التاريخ قـد سجل لاسماعيل فخر انشاء أول مجلس نيابى فى مصر الحديثة فان الاقبـاط كانوا من ورائه يطلبون هذا الطلب ويلحون فيه ويبتهجون لتحقيقه واذا كتب لمصر يوماً أن تؤرخ تاريخها الدستورى وتسجل للأبطال الذين سـاهموا فى الثورة على استبداد اسماعيل والمطالبة بالحكومة الديمقراطية الدستورية فان أسماء ميخائيل عبد السيد وجرجس ميلاد يجب أن تكون فى مقدمة هذه الأسماء ، فقد كانت جريدتهم هى التى عالجت شئون مصر من وجهـة نظر مصرية بحتة متخطية جميع الصـعاب الرسـمية من انذار وتعطيل فتحدثت عن مساوىء الحاشية والوزارة النوبارية معـا وهاجمت الأجانب ووزيريهم وشجعت مجلس النواب وأتاحت فرصة الظهـور وأمدت رجاله بالرأى السديد وناقشت أموره الفقهية كواجب انتخاب رئيسه لا تعيينه وحق المجلس فى فرض الضرائب ومسئولية الوزارة أمامه كما بحثت فى وجوب فرض الضرائب على الاجانب وخاصة (الوزيرين اللذين يتقاضيان آلاف الجنيهات من شعب مفلس) (١) واذا ما عزل اسماعيل رحب الوطن بهذا العزل وذكرت أن الله جلى عن الأمة الظلم والغمة (٢) .

ولأجل حسن ادارة ما بيد الاقباط من أملاك عرض الانبا مرقص مطران البحيرة على اسماعيل تشكيل مجلس ملى من أبناء الأمة يتحد مع البطريرك ورجال الاكليروس فى نظـر ادارة الأوقاف فأجيب الى طلبـه وصدر الأمر بانتخاب اثنى عشر عضوا أصليا واثنى عشر نائبا فكان أول مجلس ملى فى مصر . ولكن لم يلبث الخـلاف أن أودى به وصدرت اللائحة به فى العشرين من فبراير سنة ١٨٧٤ وبدأ عمله بتوليه اصـلاح المدارس والبت فى قضايا الاحوال الشخصية واصلاح الكنائس والاوقاف .

وجاءت الثورة العرابية فاشترك الاقباط فيها جنبا الى جنب مع بقية الأمة فقد رأوا فى عرابى البطل الذى يحاول ابعاد النفوذ الاجنبى (٣) ودفع الطغيان

---

(١) الوطن ٥ يوليو سنة ١٨٧٩ .
(٢) جريدة مصر عدد ١٨٨١٩ فى ١٩٦٤/١١/١٣ .
(٣) Egypt and Egyptian Question p - 106

الخديوى (١) .

ومن الطبيعى أن يكون الجيش جنودا وضباطا مكونا من أبناء الأمة دون تفرقة فى دين أو مذهب فقامت الجرائد المصرية وبينها جريدة الوطن تذكر علو همة الضباط الثائرين وعدالة مطالبهم ثم تلح فى وجـوب اتفاق الحـكومة والشعب على انشاء برلمان مسئول يجعـــل غايته أن تكون مصر للمصريين وحدهم بعد أن رات المناصب العالية مغلقة فى وجوه المصريين مع أن مصر مهما بلغت بها الحال ملك للمصريين فأشادت بموقف المويلحى عضو مجلس شورى النواب حين وقف ليعترض على مرسوم رياض باشا بحل المجلس ويؤكد أن النواب مصممون على دوام انعقاد المجلس ورات الجريدة أن من واجبها أن تذيع على الناس ذلك الموقف ليشهدوا المعـــركة بين الاستبداد والحرية كما الحث فى اطلاق حرية الصحافة وسن قانون لها ينظم امورها (٢) واذا ما اقيلت وزارة الثورة عقب المذكرة المشتركة اشترك بطريرك الاقباط الانبا كيرلس الخامس مع غيره من رؤساء الدين فى التوجه الى الخديوى برجاء الابقاء على عرابى لانه الوحيـد القــادر على حفظ الامن واذا ما ادلهمت الأمور اشترك الفلاحون والاقباط فى تزويد الجيش بمـــا يحتاجه من مختلف المؤن فكان تادرس بك شنوده المنقبادى يعمل معاونا لوابورات النيل فى اسيوط فعمل على تشغيل جميع الوابورات لنقل العساكر والمهمات الحربية من الوجه القبلى الى اسيوط التى كانت نهاية الخط الحديدى وكان عرابى يتصل به رأسا لثقته به (٣) .

كما انهالت التبرعات على عرابى من أعيان البلاد وكان بينهم عدد كبير من أقباط الصعيد (٤) فقد كانوا يتمنون من صميم قلوبهم أن ينجح عرابى فى طرح سلطة كل من السلطان والخديوى لأنهم كانوا يرون أن اشتراك أكثر من طباخ لابد أن يؤدى الى حرق الطعام (٥) .

---

(١) انجلترا والجلاء عن مصر (يوسف خليل ؛ ص ٢٠ .
(٢) تطور الصحافة المصرية ص ٨٩ .
(٣) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٣٥ .
(٤) Egypt and Egyptian Question p - 106
(٥) Egypt and Egyptian Question p - 107

وكأنما أراد أعداء الحركة ان يشوهوا من جلالها فأشاعوا ان الغرض الحقيقى لعرابى انما هو دفع المسلمين الى الاستيلاء على أموال النصارى . فكان من أثر ذلك ان اندفع بعض الغوغاء يحاولون الاستفادة من هذه الفرصة الا أن عرابى بادر بمقاومة هذه الحـــركة التى تعارض القومية وتؤدى الى انهيارها فأرسل الاوامر المشددة الى المديرين بالمحافظة على أموال الاقباط وحياتهم ولم تكن هذه الازمة اليسيرة بصارفة الاقباط عن بذل العون لهذه الحركة المباركة فاستمروا فى مدها بما يملكون (١) .

وليس أدل على التعاون والتآزر والحب بين أبناء الوطن من أن يؤلف بطرس غالى الجمعية الخيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ فيقـــوم بالخطابة فى حفل افتتاحها الشيخ محمد عبده واشيخ محمد النجار وعبد الله النديم (٢) .

الباب الخامس

عهد الاحتلال البريطانى

وجاء الاحتلال البريطانى فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ فخسرت مصر استقلالها المجدد . وضاعت على مصر جهود ثمانين سنة بذلت فيها ما فوق طاقتها من الدم والمال . وخسرت امبراطوريتها الواسعة . فقد كانت مؤامرات الانجليز هى التى اضاعت السودان بعد ان أصبحت أمور مصر تدار من لندن (١) . وتقاطر الناس هناك على المهدى يبايعونه بالزعامة بعد أن أيقنوا ان زمام الأمور فى مصر أصبح فى يد جماعة من (الكفرة) يديرونه كيف يشاءون (٢) لا لغرض اسعاد الأهالى بل لغرض سحق الاسلام .

وبذلك أصبحت مصر ذات مركز دولى شاذ فهى تحت السيادة العثمانية اسما بمقتضى فرمانى سنة ١٨٤١ وما تلاهما من فرمانات امتدت حتى سنة ١٨٧٣ بينما لا تملك هذه الدولة من أمر مصر شيئا . والسلطة فيها فى يد اصحاب احتلال غير شرعى . ينادى أصحابه بعدم شرعيته (٣) ويعدون بالجلاء فى أسرع فرصة لما تستتب الأمور ولكن تقدير هذا الاستتباب راجع اليهم وحدهم بينما المصريون تواقون الى التخلص من هاتين السيادتين سواء الاسمية أو الفعلية كى يتمتعوا باستقلالهم وقوميتهم كاملتين .

ومنذ الحظة الأولى اتجهت سياسة المحتلين الى تضييع القومية المصرية وهدمها وكانت خطواتهم فى ذلك سريعة ولكنها وطيدة . فألغى

---

(١) تلغراف جرانفل الى بارنج رقم ٦ سرى فى يناير ١٨٨٤ .
(٢) مصر والسودان ص ١٥٣ .
(٣) انجلترا والجلاء عن مصر ص ٢٩ و ٣٠ .

الجيش الوطنى وسرح أفراده فعادوا الى قراهم يملأ نفوسهم السخط على هؤلاء المحتلين ، كمـــا بدء فى انشـــــاء جيش جديد لا يزيد عن أن يكون قوة بوليسية لا يصلح أفرادها للعمل خارج الحـــدود المصرية (١) يسيطر عليــه ضباط بريطانيون . وليس أذل للقومية من تسلط أجانب على جيش وطنى . ولكن أدهى من ذلك هو محاولة بث الفرقة بين أبناء الوطن الواحد حين تحببوا الى الاغلبية ليظهروا أنفسهم بمظهر الآخذين بيدهم الناصرين اياهم ضد الأقلية (المتطفلة) .

ولعل اقرب طريق الى سحق القومية المصرية هو محاولة جانزة البلاد أى صبغها بالصبغة الانجليزية وقد ظهر ذلك واضحا فى الغـــــاء المدارس الوطنية بحجة الاقتصاد فى النفقات من أجل اصـــــلاح المالية فوجهوا أولى ضرباتهم الى المدارس التى تحيى الشخصية وتنبه القـــومية وهى المدارس العالية كما الغيت المدارس الثانوية الحكومية أيضا واذا كان قد بقى بعد ذلك التعليم الابتدائى فقد أصبحت الانجليزية لغة التعليم فيه ، ثم ملئت الوظائف العالية بالانجليزية ليوجهوا سياسة البـــلاد وفق مصالحهم . فكان أن عين المستشارون البريطانيون فى الوزارات المختلفة خصوصا وزارة المالية بعد ان الغيت المراقبة الثنائية ووزارة المعارف لتوجيه الشباب والتحكم فى نزعاته . فلم يعد المصريون الا مجرد آلات تنفذ أوامر الاسياد الجدد . ولا بد ان يحتاج هؤلاء المستشارون الى من يعاونهم ويهيىء لهم العمل .

فانبث البريطانيون فى جميع أجزاء الجهاز الحكومى.وكان أظهرها جهاز الامن الداخلى . فجعل منهم المفتشون فى المديريات . مع بقاء المديرين من المصريين وعلى عاتق هؤلاء تقع التبعة أمام الشعب ، بينما المفتش هو الذى يوجهه كما أصبح رؤساء هذه الادارة (رؤســـاء البوليس) من البريطانيين ايضا .

---

(١) Britirh Policy In Sudan p - 89.

وفرضت الرسوم العالية على التعليم واصبح على الطالب الذى يرغب فى الانتظام فى سلك التعليم أن يدفع مصروفات أخذت تزداد مع سنوات الاحتلال فقد بلغت فى سنة ١٨٩٠ ما يقرب من ١٧ الف جنيه ووصلت عام ١٩٠٤ الى ٧٦ ألف جنيه وكان معنى ذلك ان لا يستمر فى التعليم سوى ابناء القادرين الذين يمثل كبار الملاك عمودهم الفقرى وكانت نسبة الطلبة المجانيين فى سنة ١٩٠٢ فى المدارس العليا ٦٣ ٪ نقصت الى ١٨ فى المائة فى سنة ١٩٠٣ والى ١ ٪ فى سنة ١٩٠٤ واختفت تماما فى العام التالى (١) .

ولم تكن بريطانيا بالدولة الغريرة التى تتهاون فى فرصة اتاحتها لهـــا الاقدار وأتاحها لها سعيها المتواصل طوال السنين الماضية فمضت فى تثبيت اقدام الاحتلال فى مصر فأقنعت المصريين ان تركهم لمصر سوف ينيح للمهديين فرصة غزو مصر من الجنوب تنفيـــــذا لبرنامجهم الذى رسمه المهــدى لأنصاره (٢) خصوصا بعد أن فقدت مصر جيشها القديم فى موقعــة شيكان واصبح جيشها الجديد لا يزيد عن قوة بوليسية . ولم يكن ملأ الحــــكومة بالبريطانيين الا وسيلة أخرى من وسائل تثبيت الاحتلال . الى جانب تحببها وتقربها الى الشعب وذلك بأن تركت للموظفين المصريين يدبرون الامور وفق ما يشتهون على أن يتقدم البريطانيون لاصلاح ما يقعون فيه من أخطاء فكان مفتش الرى ومفتش الداخلية البريطانى هما صماما الامن فى نظر الفلاحين المصريين كما أعلن السير افلين بارنج ان بابه مفتوح لكل شكوى وكانت وسيلتهم فى ذلك دعايات ضخمة بواسطة الجرائد التى أخذوا فى انشائها كالمقطم الذى أغروا أصحابه ورئيس تحريره بأن ينقله من الســـودان الى مصر على أن يدبروا له أمر الاشتراكات . كما لم يكن اصلاحهم نظام الرى فى مصر وتحويلهم رى الحياض الى رى دائم سوى احدى هذه الوسائل أيضا . ولم يكن موقفهم من الخديوى توفيق حين نصحوه بأن يؤلف مجلس شورى القـوانين سوى محاولة أيضا للتحبب الى الشعب رغم ان هذا المجلس لم يكن الا صورة باهتة للحكم النيابى وكما نجح البريطانيون فى سياستهم هذه نجحوا أيضا فى التقرب

---

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٦ .
(٢) مذكرة شريف باشا الى بارنج فى ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ .

الى الاجانب بالعمل على تنظيم دفع الديون وكانت هذه مشكلة المشاكل أمام الدائنين كما عملت على تشجيعهم على القدوم الى مصر والعمل بها .

وكان موقف المصريين من هذا كله موقفا سلبيا بعد أن وجدوا جيشهم يسرح وزعمائهم ينفون . والخديوى يسلم لهم بكل شيء فى ذلة وخضوع . فكانوا مأخوذين بهذه القوة الجبارة التى استطاعت أن تكتسح كل شيء أمامها . فاستكانوا الى الواقع . ولم تبدأ هذه الغمة بأن تنزاح من عقسولهم الا بعد سنين من الاحتلال حين نمت طبقة المثقفين فقام مصطفى كامل يحاول بحركته أن ينبه أذهان المصريين الى ما كانوا عليه والى ما هم سائرون اليه . ونجح مصطفى كامل فى هذا التنبيه بعض الشيء وان لم يلق التأييد من جميع الطبقات لما شاب حركته من نقائص . وحين التف حوله بعض الاجانب الذين أضروه أكثر مما أفادوه .

وفى سنة ١٨٩٦ أتاح لانجلترا مركزها فى مصر أن تمد نفوذها الى السودان . وأخذت تشق طريقها نحو جنوب افريقيا ولم تقف فى وجهها محاولة فرنسا الهزيلة التى وقفتها فى فاشودة . وفى هذا القطر الجديد وجدت انجلترا مجالا جديدا لعدد من الموظفين البريطانيين بثتهم أيضا فى جميع المراكز الرئيسية حيث استطاعت أن تدعى انها هى التى نشرت الحضارة الجديدة فى ربوع السودان . بعد أن قضت على الحكم الوطنى الفاسد هناك واخذت تقود السودانيين نحو المدنية الأوربية . وتقضى على تجارة الرقيق وتفتح أنحاء السودان للاستغلال الاقتصادى الحديث . كسبت انجلترا كل هذه المكاسب رغم مركزها غير الشرعى فى مصر وان حاولت ان تسبغ عليه بعض الشرعية . حينما عقدت الاتفاق الفرنسى البريطانى فى سنة ١٩٠٤ وهو اتفاق كانت بريطانيا نفسها أول من اقتنعت بعدم جدواه فى تصحيح مركزها فى مصر .

وإذا ما قامت الحرب العالمية الاولى . ارادت انجلترا أن تحاول هذا التصحيح مرة أخرى ولكنه كان تصحيحا كمن يحاول ستر جريمته بارتكاب جريمة أخرى . فأعلنت عزل الخديوى واعلان الحماية البريطانية على مصر وكان عزلا لم يقره الشعب وكانت حماية من جانب واحد فلم تكن عدم شرعية هذين الاجرائين الجديدين بأقل من عدم شرعية الاحتلال .

واستغلت انجلترا فرصة وجودها فى مصر لتجند الامكانيات المصرية فى سبيل قضيتها فاستولت على المحصولات المصرية بالأثمان التى تروقها كما دفعت المصريين الى (التطوع) فى صفوف المحاربين كما استغلت أرض مصر ومياهها لأجل مصالح [illegible] وهيأ لها مركزها فى مصر أيضا أن تدخل [illegible] وأن تتفق مع الملك حسين بن على فى الحجاز . وأن تسيطر على شرقى البحر المتوسط [illegible] نتيجة الحرب [illegible] كانت مصر هى التى دفعت بعض ثمنه من [illegible] وعلى ثروتها ورجالها [illegible]

فكأن هذا العصر كان نكسة أصابت القومية المصرية فى الصميم وعاد بالبلاد الى الحالة التى تركتها فى بداية القرن التاسع عشر وهى حالة التبعية الى دولة قوية دون أن يملك أهلها من أمرها الا الخضوع والاستسلام ولا غرابة اذا نظر المصريون الى هذا العصر كأحلك فترة من تاريخهم الحديث.

واذا كانت هذه الفتـــرة سوداء حالكة على المصريين فهى على الاقبـــاط [illegible] وكان عددهم فى سنة [illegible] شخصا [illegible] فى جميع بلاد القطر [illegible] وكان عددهم فى الوجه القبلى أكثر منه فى الوجه البحرى [illegible] الا أن هناك بعض المدن التى تمتاز بوجود نسبة كبيرة من الاقباط بين أهلها مثل نقادة .(١) [illegible] أبنائهم فى المدن الكبرى بعض الحرف مثل [illegible] وتفصيل [illegible] ونسج الخيوط والاشغال الدقيقة والساعاتية(٢) [illegible]

وحين احتل الانجليز مصر كانت هناك نسبة كبيرة من الوظائف فى يد الاقباط (٣) خصوصا ما كان يحتاج منها الى كفاءة فنية خاصة(٤) [illegible]

واذا كان الانجليز قد عمدوا بعد ذلك الى طرد الموظفين المصريين بحجة [illegible]

---

(١) بلغ عددهم فى هذه المدينة وحدها فى سنة [illegible] شخصا من مجموع السكان البالغ عددهم ٦٨٠٠ .

Baedeker's Egypt p XXXIX (٢)

Modern Egypt Vol II p - 207 (٣)

Egypt and Egyptian Question p - 141 (٤)

الاقتصاد أولا ثم لاحلال قلة من الموظفين البريطانيين الكبار مكانهم ثانيا . فقد كان الطرد من نصيب الاقباط أكثر من نصيب غيرهم . واذا كان البريطانيون الجدد قد احتاجوا الى عدد من الموظفين الذين يجيـــــدون اللغات الاجنبية لمعاونتهم فى العمل . فقد وجدوا ما فوق كفايتهم فى اللبنانيين والسوريين (١) .

واذا عمد البريطانيون الى تسريح الجيش المصرى القديم فقد أصاب الاقباط جزء من هذا التشريد وعاد الاقباط الى قراهم فلم يجدوا أمامهم الا الجوع والشقاء الا اذا قلنا ان هذا الجيش كان اسلاميا خالصا . وهذا أمر يخالف الواقع جد المخالفة . فقـــــد كان شرف الخدمة العسكرية من نصيب المصريين جميعا دون تمييز منذ أيام ســـعيد حين أجاب ملتمس البابا كيرلس الرابع فى هذا الشأن كما حرمت المدارس القبطية تفتيش الوادى الذى أوقف عليها فحرمت المورد الذى تعتمد عليه كما سحبت الاعانة السنوية وقدرها مائتان وخمسون جنيها .

ولعل أبلغ الضرر الذى حاق بالاقباط هو ما وقـــع عليهم فى السودان الذى ضاع — كما قلنا — نتيجة للسياسة البريطانية الخاطئة ولم يكن قـــد مضى على الاحتلال أكثر من سنتين ونصف سنة . فقد استولى المهديون على الخرطوم فى يناير سنة ١٨٨٥ ولم يعد للحكومة المصرية نفـــوذ هناك . وترك المصريون وكثرتهم من الاقباط لنصيبهم المحتـــوم حيث نهبت أملاكهم وسلبت أموالهم بل أن بنـــاتهم وزعن على زعمـــــاء المهـــدية ومن رفضت قتلت أو انتحرت دون أن تجد من يدافع عنها بل هدمت كنائسهم وأرغمـــوا على ترك دينهم (٢) أو التظاهر بذلك واذا كان المهدى قد استخدم بعض المصريين فى الاعمال العامة فقد ترك الاقباط يدبرون أمر أنفسهم ومع كل ما وقـــع على الأقلية من غبن وظلم سواء فى مصر أو السودان قيل عنهم بعد ذلك انهم كانوا عمد الاحتلال البريطانى فى مصر . وكانت غاية البريطـــانيين من كل ذلك أن يتقربوا الى الاغلبية على حساب الاقلية وهى سياسة يختطها المحتلون فى كل بلد ينزلون به على أمل أن يلجأ هؤلاء المظلومون الى الشكوى فيقوم المحتلون

---

(١) Ibid p - 143

(٢) Ten Years In Mahdio 's Captivity p - 66

بانصافهم ولكن الاقباط كانوا أكثر وطنية من أن يشكو (١) ولذا كان غيظ الانجليز منهم كبيرا فتقدموا الى الاغلبية بمظهر من يرد اليهم بعض ما كان مسلوبا منهم فأعطوهم الحق فى اغلبية وظائف الحكومة بحكم ماكانوا عليه من اغلبية عددية بل عمدوا — عامدين — الى ابعـــاد المســيحيين عن بعض الوظائف العليا مثل مديرى المديريات ونظـــار المدارس ورؤساء المحــاكم وباشمهندسى الرى وحكمدارى البوليس وحكيمباشى الصحةبالمديرياتومفتشى الداخلية والمالية ولجنة المراقبة القضائية (٢) بدعوى ان هذه الوظائف تمثل حاكم البلاد المسلم فكان الاحتلال هو الذى بث جرثومة التمييز الدينى للمرة الاولى منذ القرن التاسع عشر ، فكانت نتيجة هــذه الســياسة البريطانية الداخلية ان شعر بعض المسلمين ان المسيحيين لا يستوون فى الحقوق كما يستوون فى الواجبات . الامر الذى يعصف بالقومية ويذهب بهـــا الى غـــير رجعة فأخذوا فى مقاومة هذه الفكرة وكذلك فى مقاومة الاحتلال ولكن بطرقهم الخاصة وكان أهم هذه الطرق أبلغهـــا أثرا هو التعليم .

ففى الوقت الذى أغلقت فيه المدارس الحكومية بحجة الاقتصاد ظلت المدارس القبطية المنهل الوحيد للمصريين يرشفون من مواردها وكانت تنادى بالمساواة على أوضح صورها حين فتحت أبوابهـــا أمام جميع المصريين على اختلاف دياناتهم .

وفى الوقت الذى جعل فيه التعليم الابتدائى الحكومى مقابل مصاريف باهظة ظلت المدارس القبطية تمنح تعليمها المجـــانى لمن يطلبه ولم تقف مدارسها عند حد القاهرة أو الاسكندرية كما كان الحال فى المدارس الحكومية بل انتشرت فى جميع قرى مصر وتألفت الجمعيات القبطية التى تمنح معونتها للفقير والمحتاج لتمنع عنهم ذل السؤال والفاقة . وحفظ ماء الوجه والكرامة من أن تمتهن أولى خطوات القـــومية الصحيحة فتألفت الجمعية الخـــيرية القبطية فى سنة ١٨٨٠ ووسعت نشـــاطها بعد ذلك فأنشأت مشغلها سنة

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ٩ .
(٢) نفس المصدر ص ١٢ .

[illegible] برعايتهن حتى يتزوجن
[illegible]

كما أنشئت جمعية التوفيق القبطية فى سنة ١٨٩١ لتنبيه الأمة الى ما يراد بمصر والاقباط وتدعو الى الاصلاح العلمى ولم تلبث ان وجدت فى افتتاح المدارس خير توجيه وأداء لرسالتها فأقدمت عليه وجعلت نسبة كبيرة مجانية من طلبتها . ثم جمعية النشأة القبطية التى كان نشاطها منصرفا الى الوعظ والارشاد . ثم جمعية الايمان التى أنشئت فى سنة ١٩٠٠ والتى ساهمت بقسط وافر فى افتتاح مدارس البنين والبنات ومستشفى الايمان ومستوصف بجزيرة بدران ثم جامعة أشعة حب يسوع التى صارت فيما بعد جامعة المحبة وقد أنشئت فى سنة ١٩٠٥ وكان غرضها تعليم طلبة المدارس الأميرية الدين المسيحى ثم اتجهت الى تعليم البنات الفقيرات مجانا . وفى سنة ١٩٠٨ أنشئت جمعية أصدقاء الكتاب المقدس (١) .

واتجهت جهود هذه الجمعيات أيضا الى التعليم الصناعى بتلقف أبناء [illegible] ان خدماته ليقيم ما نزل بآبائهم من عوز [illegible] الصناعية فى سنة ١٩٠٣ وبها قسمان [illegible] البطريركية فى سنة ١٩٠٤ وبها أقسام الخياطة والاحذية والتجارة والبرادة والخراطة وسبك المعادن والسروجية والسمكرة كما أنشئت مدرسة البنات الصناعية فى سنة [illegible] (٢)

[illegible] من هذا الا بالمال ولا سبيل اليه من الحكومة [illegible] الأيدى الاجنبية فلم ير الاقباط بدا من أن يديروا [illegible] أوقافهم مبعثرة ولاتستغل بطريقة اقتصادية ناجحة [illegible] فى ادارتها فكان انشاء المجلس الملى الأول فى سنة [illegible] تضمنت مادته السابعة على ان يكون اختصاصه النظر فى

---

(١) المدرسة الأكليريكية ص ١٢٠ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٥٤ .

الأمور الدينية المحضة والفصل فى الدعاوى التى تقام على الاكليروس بحسب قانون الكنيسة كما نصت مادته التاسعة والعشرون على أن يكون للمجلس حق ادارة الاديرة الكائنة بمدينة القاهرة وضواحيها . أما أديرة الرهبان خارج القاهرة وضواحيها فيكون النظر فى أمر أوقافها وكذلك ترقية رجال الأكليروس وانشاء المدارس اللازمة لهم من اختصاص البطريرك وأربعة ينتخبهم من رؤساء الاديرة . فيقوم بضبط أوقافها وتحسين ايراداتها وصرفها فيما يعود بالمنفعة حسب شروط الواقفين وحتم القانون على رؤساء الاديرة تقديم حساباتها سنويا الى البطريرك .

وتم انتخاب المجلس الاول فى أول مارس سنة ١٨٨٣ وتألفت من أعضائه اربع لجان هى لجنة الادارة ولجنة المدارس ولجنة الفقراء والكنائس . ولجنة لقضايا الأحوال الشخصية (١) .

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ ص ٩ - ١٣ .

لم تلبث هذه اللائحة ان عدلت فى سنة ١٨٩٢ ومرة أخرى فى سنة ١٩٠٥ وجعل أعضاء المجلس أربعة وعشرين وجعل اختصاصه طبقا للمادة الخامسة (جميع ما يتعلق بالاوقاف الخيرية التابعة للأقباط عموما وكذا ما يتعلق بمدارسهم ومطبعتهم وفقرائهم وكافة المواد المعتاد نظرها بالبطركخانة) .

أما فيما يتعلق بالاوقاف فقد نصت المادة التاسعة على أن عمل المجلس هو :

أ ـ حصر الأوقاف وقيدها .

ب ـ حفظ جميع الحجج والتقاسيط وسائر مستندات الملكية .

جـ ـ طلب كشوفات بيان المتأخرات الموجودة .

د ـ الحصول على حسابات عن الايرادات والمصروفات والنظر فيها وحفظ ما يكون زائدا من الايرادات وتخزينه بالبطريركية لصالح وقف أهله .

هـ ـ ادارة الاوقاف المذكورة واجراء ما يؤول منه وتحسين حالتها والنظر فيما يلزم لها من انشاء وتصليح والترخيص باجراء ما يرى لزومه من ذلك كما أجازت له افتتاح مدارس ومكاتب جديدة ومدارس دينية وايجاد كتب خانات وترتيب وتنظيم ما يكون موجودا منها على أن تكون كافة المدارس تحت ملاحظة نظارة المعارف .

فلا غرابة اذا أدى هذا الاصلاح الى الاندفاع فى تيار اصلاحى قوى ظهر أثره أول ما يكون فى الناحية التعليمية . فاذا كانت أول مدرسة ثانوية أميرية انشئت فى الاقليم كانت فى طنطا سنة ١٩١٤ فان المدارس القبطية اندفعت فى اثرها منذ سنة ١٩١٦ وان امتازت عنها بتعليم نسبة كبيرة من طلبتها بالمجان :*:

واذا ما انشىء التعليم العالى اندفع الاقباط ينهلون بل يعبون منه عبا فقد وصلت نسبتهم بين طلبته فى سنة ١٩١٠ الى أكثر من ٢٩ ٪ بينما لم تزد نسبتهم فى التعليم الابتدائى الحكومى عن ١٧ ٪ وفى التعليم الثانوى عن ٢٤ر٦ ٪ (١) .

ولم يترك الاقباط المكاتب الاهلية التى كانت تديرها وزارة الاوقاف وتصرف عليها من أوقاف المسلمين دون أن يلتحقوا بها فقد بلغ عدد تلاميذها فى سنة ١٩١٠ (٤٢٩٢) تلميذا كان بينهم ٩١٢ قبطيا وكذلك بعض المدارس الابتدائية التى كانت تديرها وزارة الاوقاف أيضا بلغ عدد تلاميذها ١٨٨٧ تلميذا بينهم ٢٤٢ قبطيا أى بنسبة ١٢ر٨ ٪ .

ولكن نوعا واحدا من التعليم العالى لم يرض عنه الاقباط ولم يتجهوا اليه هو مدرسة المعلمين الخديوية فلم يزد عدد الطلبة الاقباط منذ سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٩١٠ أى مدى ربع قرن كامل عن أربعة من الطلاب هذا شىء

= اما من الناحية الاجتماعية فقد نصت المادة الثالثة عشر على أن يقوم المجلس :

١ ـ بحصر وجمع الايرادات المخصصة للفقراء .
٢ ـ توزيعها على المحتاجين بالعدل والانصاف .
٣ ـ صرف ما يلزم لدفن المعدمين وتربية أبنائهم .
٤ ـ البحث والنظر فيما يترتب عليه زيادة تحسين الايرادات وتحسين حالة الفقراء واجراء ما يؤدى الى ذلك .

(١) محاضر المؤتمر المصرى .

يعاب عليهم . ولعل السبب فى ذلك ما كانت عليه وظيفة المدرس فى مدارس الحكومة من ضعف فى المرتبات وكنهم تناسوا أن المدرس هو منشىء الجيل ولذا كان تعليمهم تنقصه الناحية الروحية ومعرفة الدين الصحيح ، ولعل هذا هو ما يعلل نكبتنا الطائفية الحالية .

ولكن الاقباط وان عزلوا عن ميدان التدريس فقد اقبلوا على ميدان آخر من ميادين القيادة وهو ميدان الجرائد فقد انشأوا جريدتين هما الوطن لمنشيئها ميخائيل عبد السيد التى ظهرت فى أواخر عهد إسماعيل كما مر بنا ، ثم جريدة مصر لمنشيئها تادرس بك شنوده المنقبادى وقد ظهرت عام ١٨٩٥ . ولم تكن إحداها طائفية بل كانت شاملة وكانت أنباء الطائفة احدى نواحى نشاطها . كما انشأوا مجلات عدة مثل المفتاح ورمسيس وصهيون والاولى والثانية مجلتان جامعتان شهريتان . كانت كل منهما فيما يقرب من ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط بينما كانت الثالثة قاصرة على بحث الأمور الدينية .

وشى آخر اهتم الاقباط بانشائه ولم يكن غرضهم فيه ربحا ماديا بل كان ولا يزال مصدر الهام بالقومية المصرية الحية على توالى العصور . ذلك هو المتحف القبطى فقد دأب مرقس سميكة على جمع المخلفات القبطية منذ عام ١٩٠٠ وأفرد لحفظها حجرة بجوار الكنيسة المعلقة بمصر القديمة وما يزال يدأب على هذه المهمة الجليلة وهو يصرف عليها من ماله الخاص حتى استطاع أن يجعل له بناء مستقلا ومازال هذا المتحف ينمو ويكبر حتى ضمته الدولة الى مؤسساتها القومية فى سنة ١٩٣١ بعد أن عرفت اهميته كممثل هام لجزء من تاريخ الحضارة المصرية . ونقلت اليه ما كان بالمتحف المصرى من مجموعاته قبطية نفيسة . وبه الآن — علاوة على قسم المعروضات — مكتبة ثمينة حوت اكثر من ٤٥٠٠ مجلد بين مطبوع ومخطوط كلها فى التاريخ القبطى (١) .

ولقد عرفت الاقباط فى هذا العصر سبب نكبتهم الماضية الا وهو ضعف القادة وعدم وجود الاكليروس القوى الذى يرعى شعبه حق الرعاية ولذا

---

(١) الدليل العام للأقباط ص ٨٩ .

اتجهوا فى هذا الوقت الى خلق الراعى الصالح الذى يرعى خرافه الضالة . ولذا كان انشاء المدرسة الاكليركية عام ١٨٩٣ مظهرا من مظاهر النهضة القبطية الشاملة . ولعل أكبر ما حفزهم على ذلك ما رأوه من نشاط الاساليات الانجايكانية

وأن مدرسة الاسكندرية القديمة التى أسست فى القرن الأول الميلادى التى اخرجت جهابذة العلماء المسيحيين والتى طار صيتها فى أنحاء العالم المسيحى هى صاحبة الفضل الاول فى محاربة البدع والضلالات والقضاء على الآراء الفاسدة التى تخالف التعاليم المسيحية القديمة (١) بل هى صاحبة الفضل الأول فى المحافظة على روح القومية المصرية من ان تمتصها القومية الرومانية . فقد لقيت المسيحية فى الاسكندرية مصاعب لم تلق مثلها فى غيرها من البلاد بسبب ازدحامها بالعلماء الوثنيين الذين تثقفوا فى مدرسة الاسكندرية ثقافات الاغريق الواسعة العميقة والذين ظلوا يجادلون النظريات المسيحية مجادلات مبنية على الفلسفة فعرف المسيحيون حينئذ أن لا سبيل لهم إلى مجادلة الفلسفة الا بمثلها . فأنشئت مدرسة الاسكندرية الاكليريكية ونجحت هذه المدرسة فى تخريج طائفة من الفلاسفة المسيحيين الذين وقفوا أمام الوثنيين وتمكنوا أخيرا من الانتصار عليهم . وفى عهد أكليمندس الاسكندرى وأوريجانوس بلغت هذه المدرسة أسمى درجات التفوق (٢) وفاقت مدرسة أنطاكية . واذا كانت المدرسة قد لقيت الاضطهاد أيام دقلديانوس كما لقيه جميع المسيحيين الا أنها عادت بعده الى رونقها الأول وتخرج فيها كثيرون من ابطال المسيحية الذين قامت على أكتافهم كنيسة الاسكندرية القوية من أمثال البطاركة بطرس ، واثناسيوس ، وكيرلس الكبير وغريغوريوس ، ثم يوليوس المؤرخ واليسيميوس صاحب القانوس اليونانى ، والقديس مكاريوس الملقب بالشاب ، وديديموس الملقب بالضرير . ولعل نجاح اثناسيوس فى مجمع نيقية ثم كيرلس فى مجمع خلقدونية ليمثلان

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٤٢ — ٤٨ .
(٢) نفس المصدر ص ٣١ .

نجاح يمثل هذه المدرسة خير تمثيل .

وقــد افتتحت المدرسة الاكليريكية الجديدة فى سنة ١٨٩٣ واختير لهــا أولا اثنا عشر طالبا علمانيا واثنى عشر قسا وأسندت رئاســتها الى يوسف منقريوس .

ولقد كانت الكنيسة فى خلال هذه الفترة تعــانى أزمة مالية عنيفة من جراء زيادة المصروفات على الايرادات حتى لقد كانت مرتبات الموظفين تتأخر أكثر من ستة شهور الا ان حماسة الاقبــــاط ووعيهم دفعا بهم الى التبرع للمدرسة بمبالغ لم تكن تخطر على بال أحد حتى لقد تمكن ناظرها من أن يجمع من مدينة أسيوط وحدها أكثــر من الف جنيه فى يــوم واحــد وبلغت جملة التبرعات مبلغا مكن ادارة المدرسة من أن تبتاع لها بناء خاصا علاوة على ٣٦٥ فدانا بمبلغ ٢٢٫٨٠٠ ج أوقفت ريعها على الصرف على هذه المدرسة والمدرسة الصناعية التى أنشئت فى بولاق (١) .

ورغم ما قاسته هذه المدرسة من أزمات فى أوقات متفاوتة الا أنهــــا ما كانت تكبو الا لتنهض (٢) فلم تكن مواد هذه المدرسة قاصرة على المواد الدينية بل وجدت ان رسالتها الدينية لا تعفيهــا من تدريس المواد المدنية كى لا يخرج طلبتها بعيــدين عن الوسط الذى يعيشون فيه فدرست فيهــا مواد التاريخ والجغرافيــــا والرياضة والمنطق وعلم النفس والتربية الى جانب اللغات العربية والانجليزية والقبطية والعبرية . وقد أدت هـــــذه المدرسة رسالتها فى تخريج عدد كبير من الرعاة الصالحين وفى تأليف عدد وافر من المؤلفات الدينية والرسائل القيمة والبحوث العميقة كما أنها هى التى أخذت على عاتقهــا النهوض باللغة القبطية ونفخت فيهــا من روحها وعملت على نشرها بين الافراد والأسر كما ان خدمتها لم تقتصر على الاقباط بقدر ما كانت شاملة لأبنــــاء الامة جميعــا من حث على عمل الخـــير ونهى عن الشر

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٢٥٠ و ٢٥١ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ و ١٥١ .

والفساد (١) .

وما يؤسف له ان هذه النهضة الشاملة لم تمتد الى الرهبان فى اديرتهم . فقد نقص عدد الرهبان من ١٠٠٣ فى سنة ١٨٧٠ الى ١٨٦ فى سنة ١٩١٠ (٢) بل من المؤسف حقا أن يكون بعضهم ممن سدت فى وجوههم ابواب العمل بل من طريدى العدالة اذ لم يهتم أحد بتفقدهم وتعليمهم . ولذا كان بعض المطارنة والأساقفة — وهم ينتخبون دائما من بين الرهبـــان — على درجة من الثقافة أقل مما يتطلبه منصبهم وقد عمل مركب النقص عمله فيهم فاتجهوا الى ان يختاروا القسس ممن يقلون عنهم ثقافة ويزيدون عنهم جهلا وتناسوا خريجي الكلية الاكليريكية رغم صدور المنشورات البطريركية المتكررة التى يلفت فيها البطريرك نظر المطـــــــارنة الى ضرورة رسم القسس ممن إتموا الدراسة بالمدرسة الاكليريكية وحصلوا على اجازتها النهائية (٣) .

كما إتجهوا إلى قبول السيمونية وبيع المناصب الدينية الامر الذى دعا المفكرين الى وجوب الانتباه الى هذه النــــاحية ولكن انتباههم لم يأت الا متأخرا .

ومن الطبيعى ان هذه الحالة السيئة لم تمنع من أن يكون بينهم من تثقف ثقافة دينية رفيعة وعرف ما لهذا المنصب من كرامة فحافظ عليه وقام بواجبه خير قيام ولم ينس الاقباط أن يتجهوا فى جهـــادهم اتجاها اجتماعيا يربى فى افراد الأمة روح التعاون الاقتصادى . ولعلنا لا ننكر ان هذا التعـــــاون الأقتصادى كان ولا يزال المسمار الاول فى نعش الاحتـــلال البريطانى الذى سعى منذ بدايته الى تحطيم المصرى وجعله مستندا على الاقتصاد الاجنبى .

فسعى تادرس بك شنودة المنقبادى فى سنة ١٨٠٩ الى تأسيس صناديق توفير اهلية فى أسيوط وسوهاج وجرجا وقنـــا والمنيا والفيوم والعاصمة ولم يكن سكان هذه البلاد اقباطا فقط كما لم ترفض هذه الصناديق ودائع غـــير

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٢٤ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٥ .
(٣) المدرسة الاكليريكية .

الاقباط (١) ونجحت هذه الصناديق فى بث ثقة المصريين فى أنفسهم وظلت هذه الصناديق تباشر عملها حتى انشئت مصلحة البريد نظام التوفير فضمت هذه الصناديق اليها وجعلتها ملحقة بها والفت قبيل ذلك الشركة التجارية القبطية فى سنة ١٨٨٤ برأس مال قدره الف جنيه موزعة على الف سهم وجعلت مجال نشاطها الاعمال المنزلية ، فكان تخفيض ثمن السهم الى جنيه واحد داعيا الى اشتراك كثير من الفقراء وذوى الدخل المحدود فى عمل اجماعى نضـــامنى الغرض منه تخفيف أعباء الحياة عن عاتق الطبقة المكدودة دون ان ينتظروا من ذلك ربحا فقد خصص ربح هذه الشركة للأعمال الخيرية وتمكنت الجمعية فى النهاية بما تجمع لديها من أرباح ان تشترى اطيانا أوقفتها على مدرسة ثانوية فى أسيوط . وكان نجاح هذه الشركة داعيا الى شركات أخرى تماثلهـــا فى كل من سوهاج وجرجا واخميم فى سنة ١٨٨٦ .

وما زالت سياسة الأمة فى وقتنا الحاضر بل سياسة الحكومات الوطنية المتعاقبة تتجه نحو تشجيع الاقتصاد الوطنى وحث ذوى الدخل المحـــدود على التعاون من أجل تخفيف اعبــــــاء الحياة عنهم وما هذه الشركات المصرية المساهمة التى تقوم بالأعمال الكبيرة فى الوقت الحاضر واشراك كثيرين من ذوى الدخل الصغير فيها واقبالهم على حضور جلســـات جمعياتها العمومية ومناقشة اعضاء مجالس ادارتها الا تطورا طبيعيا لمـــا قام به الاقبـــاط فى العشرين سنة الاخيرة من القرن الماضى فكان عمل الاقبـــاط فى ذلك انما هو اللبنة الاولى فى بناء الاقتصادى المصرى القائم على تعاون جهـــود الطبقـــة الشعبية العاملة الكادحة .

وفى سنة ١٨٩٨ استعيد السودان وأبى الانجـليز الا أن ينفردوا بالامر فيه ولكن الاقباط فوتوا عليهم غرضهم . فلم تمض سنتان على الاستعادة حتى كان الاقباط قد احتلوا رقعة كبيرة شمالى ام درمان القديمة وابتنوا فيهـــا مساكنهم فحملت اسمهم التقليدى (حارة النصارى) (٢) .

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٥ .

(٢) Baedeker's , Egypt p - 388

يزعم بعض قصار النظر أن البريطانيين لم يسمحوا للاقباط بدخـــــــول السودان الا ليكونوا لهم انصارا ولكن هذا كلام العاجزين وانما نسوا ما قام به الاقباط من نشاط علمى واقتصادى كان أبعد ما يكون عن رغبة البريطانيين .

فاذا افتخر الانجليز بأنهم هم الذين عملوا على تمدين السودانيين فنشروا المدنية بين ربوع هذا القطر كذبهم الاقباط فى دعواهم فقد أسرعوا هم اليه وانبثوا فى بلاده المختلفة يعملون فى مختلف نواحى النشاط فشغلوا جزءا كبيرا من وظائفه . وقبل أن يجاذف البريطانيون بقرش واحد من أموالهم فى هذا الجزء المجهول بادر الاقباط بطرح أموالهم فى السوق والاشتغال بالتجارة فيه ولم يمض على وجودهم هناك أربع عشرة سنة حتى بلغ عددهم مبلغا اذ كانت لهم ست كنائس منها اثنتان أنشئتا فى سنة ١٩٠٠ وهما كنيستا أم درمان ووادى حلفا ، ثم أنشئت واحدة أخرى فى سنة ١٩٠٥ هى كنيسة الخرطوم وواحدة فى سنة ١٩١٠ فى الدامر واثنتاء فى سنة ١٩١٣ هما الخرطوم بحرى والأبيض . وكانت تكاليفها جميعا من تبرعات الاقباط الذين استقروا هناك (١) فاذا ما ارتفعت قيمة التجارة السودانية فى سنة ١٩١٤ الى مليون وثمانمائة الف جنيه كان الاقباط من ورائها يدفعونها بالجهد والعرق والدم .

واذا ما اراد الانجليز أن ينشئوا كنيسة لهم لم يتمكنوا من ذلك الا فى سنة ١٩١٢ وكأنما شعروا انهم لا يستطيعون أن يعملوا الا اذا تقربوا الى الاقباط وطلبوا الحماية منهم فدعوا نيافة البطريرك الى حضور حفل تدشينها فاعتذر . وفى هذا الحفل القى مطران لندن خطبة قال فيها انه يعترف لغبطة البطريرك بزئاسته لأقدم أمة وأنه يعتبر الكنيسة القبطية الشقيقة الكبرى للكنيسية الانجليزية (٨) واذا ما حضر الى القاهرة بادر بمقابلة البطريرك وقال له « أملنا أن تعمل الكنيستان كتفا لكتف فتنهض كل منهما من عزيمة الاخرى على القيام بخير الاعمال » فكأن الانجليز هم الذين طلبوا حماية الاقباط لهم ولم يكن الاقباط هم الذين عملوا فى ظل الاحتلال البريطانى كما يزعم البعض .

اما قصة نشر الحضارة الحديثة فى السودان والارتفاع بمستوى سكانه من الحياة البدائية الاولى الى حياة المدينة فلست فى احتياج الى جهد كبير لاثبات فضل المصريين فى ذلك ؟ فمن القادر على أن يأخذ بيد السودانى فى

---

(١) السودان فى التاريخ القديم ج ٢ ص ١٣٢ .
(٢) الاقباط فى القرن العشرين ج ٥ ص ١٤ .

هذا السبيل ؟! أهو الموظف البريطانى الذى عاش يتردد الى مكتبـه صباحا والى بيته الانيق المزود بملعب التنس وحمام السباحة ظهرا واخيرا الى ناديه الذى لايستطيع السودانى اقتحامه الا اذا كان يعمل خادما فيه ؟ وفى كل هذه الحـالات لا يعيش معيشة أوربية فحسب ، بل أوربية رفيعـة لا يستطيع السودانى أن يرقى الى مجرد التفكير فيها . أم هذا القبطى الذى يعيش فى أم درمان وأخـيرا يستقبل السودانيين فى منزله ويستقبله السودانيون فى منازلهم .

لا جدال فى أن الاقباط وحدهم هم الذين قادوا المجتمع السودانى نحو الحضارة الاوروبية وليس انصاف الالهة من الاوروبيين . ولم يكن هذا التأثير قاصرا على الموظفين بل شاركهم فيه هؤلاء التجار واوساط الناس من المصريين الذين عاشوا فى مدن السودان . واختلطوا بالسـودانيين . وكان اقبـال المصريين على سكنى الخـرطوم وابتناؤهم البيوت والكنائس والنوادى هـو الذى رفع ثمن الارض من مليمين للمتر المربع الى جنيهين فى مدى الخمس سنوات الاولى من الاستعادة .

وقد أخذت الادارة الجديدة فى تنفيذ جملة من المشروعات كان منهـا الاهتمام بفتح المدارس فلم تجد من يعمل مدرسا الا هذا القبطى الذى اخذ على عاتقه قيادة الجيل الجديد من السودانيين لا الى الحضارة بل الى الافكار والاهداف التى بنى عليها السودان الحديث .

ولم يقتصر نشاط الاقباط فى هذه الحقيقة على السودان فحسب ، بل كانت صفحتهم فى اتيوبيا أنقى وأنصع . فقد ارتقى الامبراطور منليك العرش الاتيوبى فى سنة ١٨٩٠ بعد قرن من الفوضى (١) لم تنقطع خلاله العـلاقات الروحية العتيدة التى ربطت بين الكنيستين المصرية والاتيوبية (٢) فعول على أن يدخل بلاده ضمن نطاق الحضارة الاوروبية وأولى خطواتها خلق الجهاز الادارى الحديث الذى يقسم الأعمال الحكومية فى وزارات يشرف على كل

---

(١) Budge, History of Ethiopia Vol II

(٢) السنكسار ٢٨ برمهات .

منهـــــا وزير مختص يراسهم الوزراء وجميع هؤلاء الوزراء مسؤولون عن اعمالهم امامه ، فكان منها وزارة التعليم وعين مصرى هو الاستاذ حنا صليب سكرتيرا عاما لها فعول على ادخال التعليم الحديث الى أتيوبيا فأنشأ مدرسة منليك الثانى مقسمة الى ثلاثة اقســام قسم انجليزى وآخر فرنسى وثالث ايطالى . وارسل الى البطريركية فى القاهرة يطلب اختيار اساتذة لهـــذه الاقسام . فاشرك البطريرك معه فى اختيار الاساتذة لجنة المدارس والتعليم بالمجلس الملى وكذلك تادرس بك شنودة المنقبادى (١) واخيرا اختير ستة من الاساتذة المصريين سافروا الى هناك فى سنة ١٩٠٧ عن طريق البحر الأحمر حتى وصلوا الى ثغر جيبوتى الفرنسى حيث اخذوا القطار الىديردوا ثم اكملوا رحلتهم على ظهور البغال الى اديس ابابا. وهناك بداوا عملهم واستمروا فيه فتخرج على ايديهم كثيرون من الشباب الذين سرعان ما تبوأوا مراكز الدولة وحين سافرت الى اثيوبيا سنة ١٩٣٤ كان وزير التعليم آنذاك هو بلاتن جيتا سهلا ستيدالو الذى سمعته يفخر بانه كان تلميذا لهؤلاء الاساتذة المصريين . والى هــذا الوزير يعـــــزى فضل انشاء المسرح الأول فى إتيوبيا . وظلت البطريركية ثم وزارة المعارف المصرية تواليان ارسال الاساتذة المصريين لهذه المدرسة حتى قضى الاحتلال الايطالى على استقلال اتيوبيا عام ١٩٣٦ ، اى قرابة تسع وعشرين سنة متوالية فكان معظم هؤلاء الاســـاتذة حتى سنة ١٩٢٧ من خريجى الاكليريكية . أما العشرة سنين الاخــيرة فقد تولت وزارة المعارف انتقاءهم من خريجى مدارس المعلمين والجامعة . فكان الاقباط بذلك أول من نشر الثقافة المصرية خارج الحدود المصرية منذ بداية القـــرن العشرين . وان كان ذلك بلغة اجنبية . قبل أن تعرف الحكومة المصرية نظام انتداب المدرسين الى الاقطار الشقيقة بربع قرن .

وقد ظل هذا الرعيل الاول من المدرسين يقوم بواجبة حتى مات منهم من مات وآثر الباقون الاستقالة للاشتغال بالاعمال الحرة فعمل احدهم وهو الاستاذ نصر عوض فى تجارة البن حتى أصبح من أكبر تجاره الى أن مات فى سنة ١٩٣٩ وقد اقبل هذا التاجر اثناء اقامته الطويلة على دراسة اللغة الأمهرية

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ٣ ص ٥٥ .

حتى بز فيها أهلها واستطاع أن يترض فيها الشعر الجيد الرصين الذى بادرت الجرائد الامهرية بنشره له وفى مقدمتها جريدة برهاننا سلام « النور والسلام » وظل احد هؤلاء المدرسين يعيش فى اديس ابابا بعد ان اعتزل التدريس واصبح وكيلا للراس كاسا الى ان مات منذ عامين .

ولنعد الى مصر . فقد قام فيها مصطفى كامل يدعو الى جلاء البريطانيين عنها وكان الرجل وطنيا فى دعوته وان لم يكن وطنيا كملا . ففى الوقت الذى دعا فيه الى جلاء البريطانيين عن مصر وندد بهم وبأعمالهم ونعى على المصريين تهاونهم واستسلامهم وتسليمهم للبريطانيين لم يذكر الاتراك بسوء . فقد آمن بالولاء التام للسلطان . ودعا الى الخضوع له كما آمن بالجامعة الاسلامية دينيا وسياسيا .

ولم يستطع الاقباط أن يهضموا هذه الدعوة . فهم وان آمنوا بعدم شرعية الاحتلال وعملوا جهدهم على مقاومته بطريقتهم الخاصة من حيث تعليم الشعب ونشر الوعى القومى بين الناس الا أنهم لا يستطيعون مطلقا أن يؤيدوا دعوة تدعوهم الى أن يستبدلوا بالسيد البريطانى سيدا آخر هو السيد العثمانى الذى قاسوا من حكمه ما قاسوا وكادت القومية المصرية تحت حكمهم الفاسد ان تصبح فى خبر كان . خصوصا وقد كان الحكم العثمانى فى ذلك الوقت افسد من الفساد . فقد كان على رأسها السلطان عبد الحميد الثانى ينشر فيها حكمه الملطخ بالدم .

لم يستطع الأقباط أن يؤمنوا بمصطفى كامل وهم يرون أحرار تركيا يعانون الاضطهاد والنفى ويذرعون أجزاء أوروبا طولا وعرضا هربا من هذا الطاغية الذى كان يتعقبهم ليقضى عليهم بينما كان مصطفى كامل يسافر سنويا الى استنبول ليلقى كل احترام وترحيب كما كان موضع عطف من السلطان ورجاله المجرمين حتى لقد منح رتبة الميرمران التى تبيح له ان يلقب (بالباشا) .

لم يستطع الاقباط أن يتصوروا دعوة تضع الايرانى والافغانى والتونسى الى جانب المصرى المسلم على قدم المساواة ثم تضع القبطى المصرى فى مرتبة اقل منهم فالقومية المصرية كما يفهمها الاقباط هى ان خيرات مصر حلال للمصريين وان اختلفت دياناتهم حرام على غيرهم . وان حبهم لمصر وتفانيهم فى

سبيلها وموتهم من اجلها انما ينصب على هذه الرقعة من الارض الى تحدها الحدود السياسية المعروفة . وقد تضيق هذه الحـــدود تحت حكم ظروف خارجة عن ارادتهم كما كان الحال بين ١٨٨٥ — ١٨٩٩ أو تتسع كما كان الحال فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الا انها تحمل اسم مصر . ولذا وقف الأقباط من حركة مصطفى كامل وقفة التردد غير المؤمن بهـا فلم ينضم الى الحزب الوطنى الا قبطى واحد هو الاستاذ ويصا واصف فأطلقوا عليه اسم يهوذا (١) .

ولم يكن الاقباط فى موقفهم هذا نسيج وحدهم فقد شاركهم هذا الراى اغلبية الامة اذ لم تستطع جريدة اللواء أن تعيش الا عن طريق المساعدة التى كان مصطفى كامل يتلقاها من السلطان (٢) والخديوى . ويوم انقطع عنه هذا المورد الأول بعزل السلطان والمورد الثانى باعراض الخديوى عن الحـــزب الوطنى قبيل وفاة رئيسه بقليل اخذت الخسارة تكتنفها وأخذ محمد بك فريد يسدد هذه الخسارة من ماله الخاص . وقد ألف بعض هؤلاء المعارضين وعلى راسهم احمد لطفى السيد حزب الامة الذى جعل ينادى بمصر المستقلة البعيدة عن اى نفوذ اجنبى سواء كان بريطانيا و عثمانيا . ولم يكن افق أعضاء الحزب الوطنى ليتسع لمثل هذه النظرة القومية الصحيحة ولذا رمى هذا الفـــريق الاخير بالخيانة .

وقد برهن الاقباط بموقفهم هذا من حركة مصطفى كامل على وطنيـــة عريقة وقومية صحيحة مأثورة عنهم طوال تاريخهم . فان الاقباط بعد أن رأوا تخلى فرنسا عنهم فى سنة ١٨٠١ أيام المعلم يعقوب وكذلك تخليهما عنهم عام ١٨٤١ أيام محمد على وتخليها عنهم فى سنة ١٨٦٧ فى حادثة فاشـــودة حين ارادت أن تقف فى وجه التقدم البريطانى فى افريقيا (٣) ثم تخليها عنهم فى سنة

---

(١) لم يلبث الرجل أن استقال عنـــدما أصبح الشيخ عبد العزيز جاويش رئيسا لتحرير جريدة اللواء ونشر مقالته « الاســلام غريب فى بلاده » التى شبه فيها الاقباط بزنوج الكونغو (أغسطس ١٩٠٨) .

(٢) آخر ساعة عدد ١١٩٧ فى ٢ اكتوبر سنة ١٩٥٧ مقال لعباس محمود العقاد .

(٣) مصطفى كامل لفتحى رضوان ص ٦٨ .

١٩٠٤ لم يعـــودوا يؤمنون بدول أجنبية يعتمدون عليهـــا بل أصبح ايمانهم الوحيد ان القومية المصرية يجب أن تنبع من مصر وحدها وأن تعتمـــد على اذرع المصريين وحدهم . أما غير ذلك فعبث فى عبث .

وقد حاول من تصـــــــــدوا للدفاع عن مصطفى كامل أن يذكروا انه كان لا يبغى غير الاستقلال التام وانه لم يتخذ من تركيا غير تكأة يتكأ عليها تعاونه على هذا الاستقلال . وهذا كلام من السهل أن يقال . ولكن هل كانت تركيا هى الدولة التى تسدى الجميل دون أن تأخذ له ثمنا . اذ لم يكد مصطفى كامل يبدأ دعوته حتى هرع الى استنبول ونجح فى أن يقابل السلطان . الذى دعاه الى صلاة الجمعة فى الجامع الاحمدى وتقابل معه وفى أثناء هذه الزيارة أهدى اليه هدية من الذهب والماس ومن الطبيعى أن هذه الهدية لم تكن الا نتيجة تفاهم تام بينهما .

واذا كان مصطفى كامل قد تنصل فى خطبـــــــه من تهمة اخلاص مصر لتركيا فقد كان صادقا فى ذلك فهو بايمانه بالجامعة الاسلامية دينيا وسياسيا لا يجد تعارضا مطلقا فى تبعية مصر للدولة العلية وكـــونها مستقلة استقلالا تاما . فهـــو فى حديثه مع الأميرالاى بازنج شفيق اللورد كرومر سأله الاخير عن جنسيته فأجاب (مصرى عثمانى) وحين تعجب الاخير لذلك وسأله (هل تجتمع الجنسيتان) فأجاب مصطفى « ليس فى الامر جنسيتان بل هى فى الحقيقة جنسية واحدة . لان مصر بلد تابع للدولة العلية والتابع لا يختلف عن المتبوع (١) .

وقد كتب مصطفى كامل كتابا عن المسألة الشرقية وتطورها وصفت فيه علاقة تركيا بالدول الاجنبية خلال القـــــرن التاسع عشر وما كانت عليه من الضعف وتكالب الدول الاجنبية وخصوصا انجلترا على اكتساب المنافع منهـــا فلا يكاد يكتب كلمة سوء واحدة عن تركيـــا ولا يصورها إلا ضحية مسكينة لأطماع الدول الا شبعبية القاسية . بل تمنى لتركيا الاحتفاظ بمصر حين كتب يقول « حسب الانجليز أنهم يبلغون متمناهم من مصر وراء النيل ويضعون بذلك

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن لاحمد شفيق باشا ، والحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ١٨ .

ايدهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية . والسلطة العثمانية ولكن مما لا ريب فيه هو أن نصيبهم فى مصر الفشل عاجلا أو آجلا .

بل اندفع مصطفى كامل فى تأييد السلطان عبد الحميد فى أعماله الاستبدادية فوصم الوطنيين الاتراك الذين كانوا يعارضون سلطة السلطان المطلقة ويطالبون بالدستور أنهم سابحون فى الاحلام . بل وصل الى حد تهديد المصريين أعضاء حزب الأمة الذين يطالبون بأن تكون مصر للمصريين بمحاكمتهم طبقا للقانون لأن السيادة العثمانية مقررة فيه (١) ولا استطيع أن أقول ان مصطفى كامل لم يؤد الى مصر خدمة بل كان الرجل وطنيا ولكن من طراز خاص آمن بحقيقة واحدة وهى وجوب ان تكون مصر جزءا من تركيا تسعى اليها . هذا الى أنه نجح فى التشهير بالحكم البريطانى فى مصر والعالم الخارجى . وبذل فى ذلك جهدا مشكورا كما سعى الى نشر العلوم والمعارف بين المصريين بالمشاركة فى فتح المدارس على أساس من الدين القويم السليم من اجل تنبيه الراى العام بنشر الكتب وانشاء الصحف وفهم الوسيلة الفعلية لبث الروح الوطنية وايجاد حب السؤدد والرفعة ومسابقة الامم الراقية وجعل الاستقلال رائدها) (٢) .

وخلف محمد فريد مصطفى كامل فى زعامة الحزب الوطني فلم تختلف سياسته عن سياسة سلفه فى أول الأمر بل صرح فى خطبة تأبين مصطفى كامل (أن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى نفس الطريق الذى رسمه ومهده لنا) ولكنه اختلف عنه فى المبادرة بطلب الدستور وصرح بذلك للمستر كتل العضو بمجلس العموم فى حديث له حين لخص له مطالب مصر فى .

أولا : الجلاء عن مصر .
ثانيا : انشاء مجلس نواب .
ثالثا : تأسيس حكومة اهلية محضة . ولم يشر الى تركيا بخير أو

---

(١) مجلة آخر ساعة عدد ١١٩٣ فى ١٩٥٧/٩/٤ مقال لعباس محمود العقاد .
(٢) اللواء سنة ١٩٠٧ .

سوء . واذا ما بدأ الجهاد الايجابى بادر بالسفر الى إستنبول كما كان يفعل سلفه فوصلها فى ابريل سنة ١٩٠٩ وكان جل عمله هناك تقوية روابط الود بين مصر وتركيا (١) ولتعريف احرار تركيا بمقاصد الحركة الوطنية واحباط مساعى انجلترا فى حمل تركيا على الاعتراف بمركز الإحتلال فى مصر (٢) .

وكان من شأن هذه الدعاية (الناجحة) ان إكبرت الصحف التركية من شأن مصر واعجبت بجهادها ضد الاحتلال ومجدت الحركة الوطنية .

ولا اظن احدا مهما بلغ به حسن الظن بهذا السعى يظن أن تمجيد الصحف التركية لجهاد هذا البطل واعجابها بالحركة الوطنية معناه خروج مصر من التبعية العثمانية ، بل اذا سايرنا المدافعين عن الحزب الوطنى فى حسن ظنهم به لوجدنا إن اقصى امانى احرار تركيا هو أن تكون تركيا ومصر دولة ثنائية شبيهة بنظام النمسا والمجر (٣) ما كان احد من الاقباط يطمع فى ذلك مطلقا .

وليس ادل على ولاء محمد فريد لتركيا من انه جند نشاطه من اجل تأليف كتاب فى تاريخ تركيا (تاريخ الدولة العلية) بل انه دعا فى صيف سنة ١٩١١ الى التطوع فى صفوف الأتراك لنصرتهم ونصرة الطرابلسيين فى حربهم ضد ايطاليا . ولم ينس بعد هذه الدعوة المرور على استنبول ليتلقى ثمن هذه الدعوة من صحافتها ومن دوائرها السياسية كل حفاوة واجلال . وعندما دخلت تركيا الحرب فى صف المانيا سافر محمد فريد الى المانيا وركز دعايته على نصرة تركيا والمانيا ضد انجلترا . واذا كان محمد فريد قد تخلى بعد ذلك عن مبدأ نصرة تركيا ومناداته بمبدأ « مصر للمصريين » فليس له فى ذلك فضل . انما هو فضل الاتراك بعد أن اظهروا له وللعالم أجمع سياسة (الاتحاد والترقى) من اصرارهم على احياء الجامعة الطورانية التى تنادى باستعلاء العنصر التركى على غيره من العناصر التى تكون الامبراطورية العثمانية واحتقارهم للعرب .

وظهرت هذه السياسة صريحة حين ابلغه الأمير سعيد حليم فى نوفمبر

---

(١) التمهيد محمد فريد ص ١٣٠ . (٢) المرجع السابق ص ٨٥ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦ .

١٩١٤ نقمة الباب العالى منه ومن الحزب الوطنى قولهم دائما « مصر للمصريين وعندما تبين الرجل أن هذه الأفكار لسبت أفكار الامير سعيد حليم ، بل شاركه فيها معظم زعماء الترك وبخاصة طلعت وجلال فلم يرضوا أن يقيدوا أنفسهم بأى عهد لمصر خلال الحرب بل ظهرت هذه السياسة منهم بطريقة عملية حين عين جمال باشا واليا على الشام فى بداية الحرب العالمية الاولى فنصب المشانق فى ميادين دمشق وبيروت لزعماء الشام المطالبين بالاستقلال .

واذا كان الاقباط قد وقفوا من الحزب الوطنى هذا الموقف فانهم لم يترددوا عن مؤازرته حين رأوا مطالبه معقولة تحقق آمالهم فى الحكم القومى الصحيح وذلك حينما طلب من الخديوى اصدار الدستور فأقبلت الامة على تعضيده عن طيب خاطر اقبالا جماعيا وأخذت فى توقيع العرائض التى طبعها لذلك حتى اكتمل لديه الفوج الاول وعليها خمسة واربعون ألف توقيعا فرفعها الى الخديوى فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٨ (١) . الى جانب الحزب الوطنى وان عارضه فى الاتجاه قام حزب الامة باعلان مفاجىء لحسن عبد الرازق باشا فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وكان معنى هذه الخطوة أن تلاميذ الشيخ محمد عبده لم يكتفوا بالعداء لأفكار مصطفى كامل بل عزموا على تكوين حزب سياسى يساند (الجريدة) فى ابداء وجهة نظرهم ورأس هذا الحزب محمود سليمان باشا أحد أعيان الصعيد البارزين وجعل أحمد لطفى السيد محرر (الجريدة) سكرتيرا عاما له .

وكان الحزب فى الواقع يضم أغلبية رؤساء العائلات . وعلى اثر اعلان قيامه انضم اليه عدد من المحامين والاعيان ورأى الاقباط فى هذا الحزب ما يعارض الاتجاه الدينى الذى بدا واضحا فى خطب مصطفى كامل لا سيماوقد نادى هذا الحزب بأنه الممثل (للأمة المصرية) فانضم اليه أربعة عشر قبطيا جعل أحدهم ضمن اللجنة الادارية .

وانحصرت مبادىء هذا الحزب الجديد فى أول الامر فى محاولة الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة بالسعى فى توسيع

---

(١) قبل اعلان تأليف الحزب الوطنى بشهر تقريبا .

اختصاص مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ثم النهوض بالتعليم والعمل على تقدم الزراعة والصناعة والتجارة . وكان الاقتصار على هذه (الوسائل) يعنى ارجاء الهدف وهو المستقبل السياسى للبلاد من هنا ظهر عداء رجال الحزب الوطنى له كمتعاونين مع سلطات الاحتلال التى كان يمثلها آنذاك سير الدون جورست (١) .

والى جانب هذين الحزبين الرئيسيين كانت هناك أحزاب أقل شأنا وهى :

١ ـ الحزب الوطنى الحر أو حزب الاحرار رأسه محمد وحيد الذى اتهم جماعة الحزب الوطنى بأنهم جرثومة التعصب والفتن ويرى مسالمة المحتلين والسعى فى نيل ثقتهم والسعى الى الشعب بنشر التعليم الابتدائى ثم السعى الى الحكم النيابى .

٢ ـ الحزب الدستورى ورأسه ادريس راغب ويدعو الى الولاء للسلطة الشرعية والبريطانية والخديوية ثم الى طلب الدستور على أن يكون للأمى صوت وللمتعلم خمسة أصوات .

٣ ـ حزب النبلاء ورأسه حسن حلمى زادة ويدعو الى الدفاع عن الخديوى والى عودة السيادة للعناصر التركية والشركسية .

٤ ـ الحزب المصرى ورأسه اخنوخ فانوس بعد أن أثارت مبادىء الحزب الوطنى مخاوف الاقلية القبطية التى كانت تضيق بالدعوة العثمانية ويلح فى اصدار الدستور بعد ازالة التفرقة بين المسلمين والمسيحيين فى الحقوق والمصالح . وكان يشجع الاقباط على طلب العلم الذى يراه خطوة أساسية فى التقدم وبلغ الأمر برئيسه أن أرسل فى سنة ١٩٠٨ عشرة من الشبان الى الخارج فى بعثة علمية على نفقته .

٥ ـ حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ورأسه الشيخ على يوسف

---

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٥٠ ـ ٥٥ .

ودعيا الى تدعيم السلطة الخديوية ومطالبة إنجلترا باعتبارها السلطة الحقيقية بتحقيق وعودها وكان الخديوى يؤيده لا لأنه يؤمن بالدستور بل لأنه كان يراه مساندا له ضد سلطة الإحتلال كما فعل جده اسماعيل .

٦ ــ الحزب الجمهورى ورأسه محمد غانم ويدعو الى اعلان الجمهورية واتخذ من شعار الجمهورية الفرنسية (حرية ــ أخاء ــ مساواة) شعارا له وذلك بعد نيل الدستور والإستقلال التام الذى فسره بأنه استقلال ادارى فكان أن اتهم بالخيانة (١) .

ولم يخل الامر من رجال كانوا يعملون بعيدين عن هذه الاحزاب بما يرونه من الوسائل لمصلحة بلادهم . وبعيدين أيضا عن صخب الدعاية الكاذبة وليست لهم جرائد تعبر عن وجهة نظرهم ومن هؤلاء بطرس غالى باشا الذى شغل منصب وزير الخارجية فى وزارة مصطفى فهمى باشا ثم أصبح رئيسا للوزراء الى أن اغتيل فى سنة ١٩١٠ ومما يؤسف له ان هذا الرجل لقى نفس الجحود والنكران الذى وجده سلفه المعلم يعقوب حنا بعد أن اتهم مثله بالخيانة .

ولد بطرس غالى فى الأيام الأخيرة لحكم محمد على وعاش حتى عصر عباس الثانى .

كان والده غالى بك نيروز احد رجال مصطفى باشا فاضل بن ابراهيم باشا . وقضى صباه يتعلم فى مدرسة حارة السقايين التى إنشأها كيرلس الرابع ثم فى مدرسة مصطفى باشا فاضل ثم التحق بمدرسة الترجمة حيث اتقن العربية والفرنسية والتركية والفارسية ثم تعلم القبطية وهو فى الثلاثين من عمره . واشتغل فى أول الامر مدرسا بمدرسة حارة السقايين ثم تقدم فى امتحان مسابقة بمجلس تجار اسكندرية (وهو الذى صار فيما بعد المحكمة المختلطة) وكان ترتيبه الأول فاشتغل كاتبا به . وما زال يرتقى حتى صار رئيس كتاب المجلس ولم يكمل الثلاثين سنة ومنها انتقل الى رئيس كتاب نظارة الحقانية .

---

(١) الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال ص ٦١ ــ ٦٤ .

وبدأت الحكومة فى انشاء المحاكم الاهلية واخذت فى ترجمة القوانين الاجنبية الى اللغة العربية فلم تجد خيرا منه للقيام بهذه الترجمة . وهناك التقى بنوبار باشا . ولم يكن قد تجاوز الثلاثين الا قليلا حين اصبح سكرتيرا عاما لوزارة الحقانية . كما عين مساعدا لمندوب الحكومة فى لجنة صندوق الدين . واذا عين رياض باشا رئيسا لهذه اللجنة اصبح بطرس غالى مندوبا للحكومة بها . ولم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين سنة حين عين وكيلا لوزارة الحقانية .

وقد وصفه معاصروه بالذكاء وبعد النظر واتساع الافق وقوة الشخصية ولذا لم يكد يعين فى هذا المنصب حتى اخذ فى تعيين الاكفاء فى وظائف القضاة الجديدة . وان اتهم بالتعصب الدينى حين جعل للأقباط نصيبا من هذه التعيينات . الا انه لم يحفل بهذه الصغائر . فقد كان يرى مساواة افراد الأمة جميعا فى الحقوق والواجبات دون نظر الى دين . الامر الذى هو من الوطنية لبها وصميمها . وفى يونيو سنة ١٨٨٢ طلب عرابى باشا الانعام عليه برتبة الميرمران فأجيب الى طلبه .

واذا ما اضطربت أمور العرابيين والخديوى . نصح العرابيين بالتريث وطلب منهم أن يطلبوا الصفح من الخديوى كى لا يتخذ اعداء البلاد هذه الفرصة للدس بين ابناء الوطن الواحد فانصاعوا لنصيحته ولم يجدوا خيرا منه ليحمل هذا الرجاء الى الخديوى .

ولا ينسى الأقباط له جهاده الحق فى سبيل انشاء المجلس الملى فقد عرف كيف يحمل الحكومة على أن تجافى الرئاسة الدينية على ما بيدها من أموال لتتصرف فيها بما فيه مصلحة الشعب . هو فى هذه الخطوة لم يكن قبطيا بقدر ما كان مصريا يسعى الى تعويد الشعب محاسبة رؤسائه مهما كانت سلطتهم ومهما كان مصدر هذه السلطة (١) .

واذا كان معاصروه قد ظلموه ووجهوا اليه مختلف التهم التى تنقص من

(١) الاقباط فى القرن العشرين جـ ١ ص ١٢٨ .

وطنيته بهذه كلهــا لا تثبت أمام التمحيص النزيه . وأول هذه التهم أنه كان صنيعة الاحتلال يعمل بأمر المحتلين والحق انه لو كان هــؤلاء مكانه فمــا فعلوا غير ما فعل . فقــد كان شابا حين رأى الانجليز يطيحون باسماعيل كأنه ملك من ورق اللعب دون أن يحفلوا بشيء . ورآهم وهم ينصبون توفيق رغم ارادة السلطان . ورآهم وهم يدسون بين توفيق والشعب . وكان الأول فى أيديهم لعبة من اللعب .

ورآهم وهم يدخلون العاصمة دخــــول الظافرين ويكادون يحطمون كل مقدسات الوطن فرأى من الخير لوطنه أن يصانعهم . فالثورة عليهم لا تعنى غير الضرر ببلاده . وان نجحت هــذه الثورة فلن تعنى غير العــــودة الى الحكم التركى الفاسد الذى لا يعنى شيئا سوى الفوضى والرجعية . ولم تجن مصر من تبعيتها لتركيا طوال ثلاث قرون سوى التأخر والجمود والانحطاط . سواء فى مبدان التجارة أو الصناعة أو التعليم والاخلاق ولم يكن الحكم التركى فى هذه الآونة بالذات ــ تحت حكم السلطان عبد الحميد الثانى ــ فــوق مستوى الشبهات . فالمصانعة هنا حكمة لا جبن ولم يكن بطرس غالى فى هذه المصانعة نسيج وحده . بل آمن بها غيره كثيرون من رجال عصره . آمن بها سعد زغلول وآمن بها الشيخ محمد عبده وآمن بها لطفى السيد . ولم يتهمهم أحد بالخيانة كما اتهم بطرس غالى وآمن الرجل بعد ذلك بأن خير سياسة نرسم من أجل مصلحة الشعب هى الرقى بهــذا الشعب الى مستوى يؤهله للوقوف على قدميه قبل أن يرفع صوته بالمطالبة بالاستقلال . فقد يكون هذا الاستقلال مضرا به فى هذه المرحلة من النضوج غير المتــكامل . واذا كانت انجلترا قد احتلت مصر وقضت على اســـتقلالها كما قضت على دستورها وبرلمانها فما فائدة هذا الدستور وهذا البرلمان الذى لم يكن أكثر من لعبــة يتلهى بها كل من الشعب والخديوى . كما ان الدستور لم يكن فى يوم من الايام غاية فى ذاته . بل هو لا يعدو أن يكون وسيلة لرفاهية الشعب . أما اذا لم يكن كذلك فبئس الدستور . وبئس أصحاب الدستور .

ووقع فى سنة ١٨٩٩ بصفته وزير الخارجية اتفاقيتى الحكم الثنـــائى للسودان وهى سيئة أخرى يأخذها أعداؤه عليه . والاتفاق فى حد ذاته ــ دون النظر الى مساوئه ــ نهاية طبيعية لسيطرة البريطانيين على مصر منــــذ

احتلالهم فى سنة ١٨٨٢ ثم لاشتراك الحكومة البريطانية فى استعادة السودان ما دامت الحكومة فى ذلك الوقت عاجزة عن استرداده بمفـردها . وكانت الظروف تحتم عليها أن تقوم بهذا الاسترداد فى هذا الوقت بعد أن امتدت يد فرنسا وبلجيكا تحاولان الاستيلاء على أجزاء منه وهل كان من المنتظـر ان تشترك انجلترا فى الاستعادة لتتركه خالصا للمصريين . وكان هذا الاشتراك هو الثمرة التى سعت انجلترا اليهـا منذ ١٨٦٩ حين افتتحت قناة السويس للملاحة واصبحت ومعهـا البحر الأحمر شريان المواصلات البريطانية نحـو املاكها فى الشرق الاقصى (١) .

ومن المدهش أن ينصب جزء كبير من الحملات بل كل الحمـلات التى قادها الوطنيون على رأس وزير الخارجية دون غيره من الوزراء لأنه هـو الذى وقعها باسم الحـكومة المصرية . ولم يوجه اى عتـاب الى رئيس الوزراء مصطفى باشا فهمى باعتباره المسئول الاول عن سياسة وزارته أو غيره من الوزراء باعتبارهم متضامنين مع رئيسهم ووزير الخارجية فى تحمل المسئولية الوزارية .

وهذه المعاهدة وان كانت قاسية على مصر بالنسبة للدور الذى قامت به وللمصاريف التى تكبدتها وللدماء المصرية التى أريقت . الا اننا نسأل . هل كان هناك من بين المصريين من يستطيع عقد اتفاق افضل منه . فضـلا عن أنها لم تمس حقوق السيادة المصرية على السودان مطلقا وأنها لا تعـد أن تكون اشتراكا فى الادارة . واذا كانت مصر قد حرمت من مباشرة حقوقها فى السودان . فان هذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق بقدر ما أتى نتيجة لعجز الجهات المصرية عن الاشتراك الفعلى فى الادارة والاستفادة من الاتفاقية بقدر ما تفيد من نصوصها .

هذا الى ان انجلترا قد اعترفت أكثر من مرة بأن موقف مصر بالنسبة للسودان لم يتغير مطلقا فقد صرح اللورد كرومر ان هذه المعاهدة لم تبرم لغـرض

---

(١) مصر والسودان ص ١١٢ .

انتقاص حقوق مصر الشرعية فعندما طلب مجلس شورى القوانين تبليغه تناصيل ايرادات حكومة السودان ومصروفاتها لم يتردد اللورد فى اجابة هذا الطلب (١) كما ان انجلترا رفضت أن تتحمل أى نصيب من نفقات الادارة فى السودان (٢) لأن موقفها منه لا يعدو أن يكون موقف من أؤتمن على وديعة ليسلمها الى صاحبها غير منقوصة .

وقد حوت هذه المعاهدة كثيرا من الغموض ومع ذلك لم يحاول أحد من الوطنيين فيما بعد حتى سنة ١٩٥٢ الاستفادة منه . فاذا كانت هذه المعاهدة قد بينت كيفية تعيين حاكم السودان العام . فانها لم تبين كيفية تعيين بقية الموظفين الكبار ولا جنسيتهم وعندما عين ونجحت فى سنة ١٩١٠ السكرتيرين الثلاث ثم مجلس الحاكم . لم تحاول السلطة المصرية مطلقا ان تفرض عليه ولو مصريا واحدا . وكذلك عند تعيين كبار الموظفين لم تحاول السلطة المصرية التدخل مطلقا من أجل تعيين بعض المصريين فى بعض المناصب التى لها خطرها فى السودان . وهذا الجبن الذى كتبه المصريون على أنفسهم لا ينصب فقط على وزراء مصر حتى سنة ١٩١٤ بل يتعداهم الى كل من تولى السلطة حتى عام ١٩٥٣ .

هذا ، اى هذا الاتفاق وان بين كيفية تعيين الحاكم ومدى سلطته . الا انه كان غامضا من حيث حق مصر فى معارضة التعيين وحق مصر فى عزله . ولم يحاول أحد من الذين ادعوا الوطنية فيما بعد حتى سنة ١٩٥٣ الاستفادة من هذا الغموض . مع ما أتاه الحاكم العام فى كثير من الاحوال من تحدى السلطة المصرية فى أكثر من مناسبة . واذا جاز أن نقول أن محاولة تدخل الوزراء سواء فى المعارضة أو من أجل عزل الحاكم لا تجدى لانها لا تملك القوة التى تجعل قرارها نافذا . فان مجرد محاولة الوزارة عرقلة التعيين أو محاولتها العزل كان يكفى لأن يخلق حالة تجعل انجلترا تتردد مرة اخرى ى

---

(١) The Unity of The Nile Valley p . 74

(٢) I bid p - 66

الانفراد بالامر . هذا الى ان الحالة بعد سنة ١٩٠٨ قد تغيرت بعد ان خلقت محكمة العـــدل الدولية واصبح الاختلاف على تفسير المعـــاهدات اهم اختصاصاتها .

فمصر اذا كانت قد حرمت من كثير من حقوقهـا فى السودان بمقتضى هذا الاتفاق فهذا الحرمان لم يأت نتيجة لشروط هذا الاتفاق قدر ما اتى من عجز الجهات المصرية الوطنية عن الاشتراك الفعلى فى الادارة . بعد ان سلموا متوالين للبريطانيين بجميع الحقوق على طول الخط مدة استطالت الى اكثر من نصف قرن . رغم تغير الظروف التى ابرم فيها هذا الاتفاق ورغم قيام الحركة الوطنية وازدياد الشعور بالقومية المصرية . وازدياد الشعور بالغبن الذى وقع على مصر . هذا الى ان الزعماء الوطنيين الذين حاولوا مفاوضة انجلترا منذ سنة ١٩١٩ والذين تولوا الحكم لم يحاولوا مطلقا تغيير نصوص هذا الاتفاق بل كان جل امانيهم هو العمل على تنفيذ هذا الاتفاق والاشتراك فى الادارة عمليا بالقدر الذى يتيحه لهم الاتفاق (١) .

ولنساير المتشائمين فى تشائمهم لنرى ماذا ضيع هذا الاتفاق من حقوق لمصر فى السودان فقد استأذن محمد على السلطان فى فتح السودان .ولسنا الآن فى صدد بحث الاسباب التى ادت الى هذا الفتح ـ فاذن له على أن يضم ما يشاء من أراضى السودان على أن يكون ذلك باسم السلطان (٢) وتقدمت الجيوش المصرية الى السودان ونجحت فى مهمتها . فأصدر الباب العالى امرا الى محمد على بتعيين ابنه اسماعيل حاكما على سنار سنة ١٨٣٢ ولا جدال فى أن معنى هذا الامر تبعية السودان للســـلطان لا لمصر . اذ ليس لدولة مسلوبة السيادة أن يكون لهـــا سيادة على دولة اخرى .

حتى اذا ما تأزمت الأمور بين السلطان ومحمـــد على فى سنة ١٨٣٩ تدخلت الدول الأجنبية انتهى امر الى صـــدور فرمانى ١٣ يوليـــو ١٨٤١

---

(١) الكتاب الاخضر المصرى عن السودان ص ١٧ و ٤٠ و ٦٢ .
(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٥ .

وبمنح احدهما محمد على ولاية مصر على أن يكون حكمها وراثيا . ويعطيه الثانى حكم السودان مدة حياته وقد جاء فى فرمان السودان ما نصه (لوزيرى محمد على باشا والى مصر المعهودة اليه مجددا ولايات مقـــاطعة النوبة ودارفور وكردفان وسنار ان سدتنا الملكية كما توضح فى فرماننا السـلطانى السابق قد ثبتكم فى ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر ولاية مقــاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حـدود مصر ولكن بغير حق التوارث) (١) .

ولا أظن هذا الا دليلا واضحا على السودان لا يتبع مصر بحـال من الاحوال وحدث بعد ذلك أن صدر فرمان سنة ١٨٤٩ بتولى عباس باشا حكم مصر والسودان (على أن يكون لعباس حكومة مصر وتوابعها على أن يكون ذلك بالشروط التى وردت فى الفرمان المرسل الى محمد على باشا) ومعنى ذلك ان حكم مصر وراثى فى أسرة محمـــد على اما حكم السودان فلمدى الحياة (٢) .

وواضح من كل ذلك انه لم يترتب على هذه الفــرمانات أى نوع من السيادة المصرية أو الحقوق فى السودان . فالسلطان وان كان لا يملك حق سلب أسرة محمد على على ولاية مصر الا انه يملك حق سلبها حكم السودان فى أى وقت يراه .

وفى سنة ١٨٦٦ نجح اســماعيل باشا فى الحصول على حق الوراثة الصلبية وامتد هذا الحق الى السودان (على هذا جميعه أن تنتقل ولاية مصر مع ما هو تابع اليها من الاراضى وكامل ملحقاتهـا وقائم مقاميتى ــ سواكن ــ ومصوع الى أكبر أولادك الذكور بطريق الارث بالصورة نفسها الى أكبر أولاد ذريتك » (٣) .

---

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٢٠ .
(٢) مصر والسيادة على السودان ص ٣٠ .
(٣) فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ الموافق ١٢ محرم الحرام ١٢٨٣ .

فاذا كانت مصر قد كسبت من هذا الفرمان حق التوارث الصلبى فى السودان أيضا الا أن مركز السودان القانونى لم يتغير عن كونه تابعا للسلطان لا لمصر وهو يملك حق سلبه له .

وحدث ان عجزت الحكومة المصرية عن ادارة السودان ادارة حسنة فلم تأت سنة ١٨٨١ حتى كان هذا الجزء يغلى بالثورة وعجزت الجيوش المصرية عن سحقها ولقى هكس باشا حتفه وابيد جيشه فى موقعة شيكان سنة ١٨٨٣ . مما جعل الحكومة البريطانية وقد اصبحت صاحبة الأمر فى مصر منذ سبتمبر ١٨٨٢ تشير على الحكومة المصرية باخلاء السودان وعملت الحكومة المصرية بهذه النصيحة . وأرسل لذلك الجنرال جوردون الذى فشل لا فى الاخلاء فحسب بل فى انقاذ الجيش المصرى الذى كان هناك بل قتل جوردون فى السابع من يناير سنة ١٨٨٥ .

ومنذ الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ لم يعد للحكومة المصرية صورة من نفوذ فى السودان واقيمت هناك حكومة وطنية نجحت فى فرض سلطتها على بعض اجزاء السودان وهى وان فشلت فى الحصول على اعتراف الحكومات الاجنبية بها الا انها كانت الحكومة الشرعية الوحيدة وصاحبة السلطة الفعلية هناك .

واعترفت الحكومة البريطانية بأن السودان قد أصبح أرض خلاء . ودعت الحكومة الاجنبية أن تضع يدها على اجزاء منه . فاذا ما أبرمت فى يوليو ١٨٩٠ اتفاقا مع المانيا لتعيين المناطق الاستعمارية لكل من الدولتين بساحل افريقية الشرقية احتفظت انجلترا لنفسها بجميع حوض النيل الاعلى حتى الحدود المصرية . . وكانت تعتبر هذه المنطقة أرض خلاء لا يملكها أحد . اذ لم يذكر فى هذا الاتفاق ان انجلترا تحتفظ بالمنطقة المشار اليها نيابة عن السلطان العثمانى أو الخديوى (١) واذا كانت فرنسا قد نادت بغير ذلك فلم يكن موقفها هذا بسبب مصر بل بسبب موقف العناد الذى وقفته أمام بريطانيا منذ انفراد الاخيرة باحتلال مصر . حتى اذا غيرت انجلترا موقفها وعادت تذكر ان السودان من أملاك مصر . (وما كان يوما من

---

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٣ .

املاكها) . وقفت فرنسا فى الناحية الاخرى واعلنت انه أرض خلاء وأرسلت جيشها بقيادة الجنرال مارشان لاحتلال أعالى النيل ونجح فعلا فى الوصول الى فاشودة واذا كان مارشان قد انسحب بعد ذلك منها فلم يكن ذلك تسليما منه بحقــوق مصر أو السلطان فى السودان بل لأن فرنسا لم تكن مستعدة للاشتباك فى قتال قد يعود على مستعمراتها وعليها بأوخم العواقب (١) .

واذا كانت مصر قد نجحت بعد ذلك فى استعادة السودان فلم يكن ذلك نتيجة لمساعدة السلطان العثمانى لها سواء بالمال أو الجند كما انه لم يكن نتيجة لدعواها فى الســـــيادة السابقة على السودان . وكانت الاستعادة بالاشتراك مع البريطانيين . وكانت نتيجة هذا الاشتراك عقد هذا الاتفـــاق الذى أطلق عليه اسم اتفاق السودان وهو الذى يبيح لبريطانيا الاشتراك مع مصر فى ادارة السودان .

فليست هناك اذن أى حقــوق لمصر أو سيادة مصرية أو شبهة لسيادة مصرية ضيعها هذا الاتفاق . واذا كانت هناك سيادة على السودان . فانها كانت لتركيا ولم تحاول هذه الدولة الاحتفاظ بهذه السيادة او بذل أى مجهود للاحتفاظ بها فهذا الاتفاق اذا كان قد بدد ســـيادة ما . فقـــد بدد السيادة التركية التى كانت قد تبددت من تلقاء ذاتهـــا منذ قيام الحـــكم الوطنى فى السودان .

ويبدو ان مصطفى كامل كان حريصا على هذه السيادة التركية أكثر من حرصه على أى شىء آخر ولعله كان يرى نفسه ممثلا للدولة التركية فى مصر أكثر مما هو مصرى ، فبطرس غالى بعقده هذا الاتفاق لم يكن الا معترفا بالحقيقة الواقعة وهى ان مصر وانجلترا قد فتحتا بالاشتراك أرضا جديدة . لهما الحق فى حكمها .

ومع ذلك فقد حرص بطرس غالى على أن يؤكـــد « حقوق » مصر فى السودان التى كان يرى ان الاتفاق المصرى البريطانى لم يمسها فى قليل أو

---

(١) مصر والسيادة على السودان ص ٦٦ .

كثير . فقد انتهز فرصة المفاوضات البريطانية الفرنسية بشأن فاشودة ليكتب الى القنصل البريطانى « ان حكومة الخديوى كما تعرف سيادتكم لم يغب عن نظرها فى حين من الاحيان العودة الى استئناف احتلال الاقاليم السودانية التى هى مصدر الحياة لمصر . ومصر لم تنسحب من تلك الاقاليم الا عقب قوة قاهرة . وان استعادة الخرطوم تفقد الغاية منها اذا لم يعد الى مصر وادى النيل الذى ضحت مصر فى سبيله الضحايا العظيمة » .

« ولعلم الحكومة المصرية أن مسألة فاشودة هى موضوع مفاوضات الآن بين بريطانيا العظمى وفرنسا . فانها تكل الى أن أطلب الى سيادتكم أن تتفضلوا بحسن الوساطة لدى اللورد سالسبرى ليتم الاعتراف لمصر بحقوقها التى لا تقبل نزاعا ولكى تعاد اليها الاقاليم التى كانت تحتلها حتى قيام ثورة محمد ابن عبد الله المهدى (١) .

ورأى بطرس غالى بصفته وزيرا للخارجية ما جرته على البلاد سياسة وخز الابر التى سار عليها كل من اللورد كرومر والخديوى . فقد كان كل منهما يحرص على أن تكون الكلمة العليا له ولم تجن البلاد من ذلك سوى ضياع هيبتها وفقد كرامتها . فقد كانت الازمات فى العادة تنتهى بانتصار اللورد كرومر ، فقد انتقد الخديوى الشاب نظام الجيش المصرى عندما زار الحدود الجنوبية فعد اللورد كتشنر هذا الانتقاد انتقاصا لقدرته كسردار عام للجيش المصرى وكانت النتيجة أن أرغم الخديوى على الاعتذار . وأمثال هذه الحادثة كثير . فلم يجد الوزير الحريص على كرامة بلاده بدا من التقريب بين الخديوى والانجليز فما ان زار معه انجلترا فى سنة ١٩٠٨ حتى انتهى مع وزارة الخارجية البريطانية الى تغيير هذه السياسة الى سياسة الوفاق أى تفاهم الطرفين على الاشياء قبل تنفيذها . أى تنازل الحكومة البريطانية عن سياسة حصر السلطة كلها فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين البريطانيين . بل تركت للمصريين أمر التصرف فى سياستهم داخل اطار خاص . فاسندت بعض المناصب الكبيرة الى الأكفاء من المصريين فاقبلت وزارة مصطفى باشا فهمى واسندت الوزارة الجديدة

---

(١) الامبراطورية السودانية ص ٢٣٨ .

الى بطرس غالى فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٠٨، ولم يدخلها من أعضاء الوزارة القديمة غيره وسعد زغلول باشا ودخلها حسين رشدى باشا ومحمد سعيد باشا وكل منهم وطنى صادق الوطنية . وجدير بنا أن نشير الى تاريخ تولية بطرس غالى الوزارة كحدث وطنى جدير بالتسجيل فى التاريخ المصرى اذ كان بطرس غالى باشا أول وزير من أصل مصرى تولى منصب الوزارة منذ انشائها . بل أول رئيس وزراء اختاره الخديوى دون تدخل من الانجليز .

ونستطيع الآن أن نذكر فى كثير من الايجاز ما عرف فى السياسة المصرية (بأزمة طابا) دليلا على وطنية هذا الرجل وصدق خدمته لبلده أن سياسة الوفاق التى أسسها مع بريطانيا لم تكن خيانة منه لبلده كما ادعى المعترضون .

فى سنة ١٨٩٢ حين تولى عباس الثانى السلطة أصدرت له تركيا كعادتها فرمان التولية ولكنه هذه المرة جاءت به بعض التعديلات عما سبقه من الفرمانات التى صدرت لكل من عباس الاول وسعيد واسماعيل وتوفيق . وقد قصدت تركيا بهذا التعديل استرداد شبه جزيرة سيناء من مصر وهى التى حصلت عليها بمقتضى فرمان سنة ١٨٤٠ — وهو الفرمان الذى جعل حدود مصر الشرقية خطا مستقيما يصل من رفح ورأس خليج العقبة — جزءا من مصر .

وقد حاولت تركيا بهذا الفرمان — الى جانب استرداد شبه الجزيرة التى أصبحت على درجة كبيرة من الاهمية منذ افتتاح قناة السويس — تحرير علاقتها بمصر من الصيغة الدولية التى كسبتها فى اتفاق سنة ١٨٤٠ .

ومما يؤسف له ان الحزب الوطنى ومن ورائه مصطفى كامل لم يتردد فى تأييد الباب العالى فى هذه المحاولة حتى وان أدى الى تمزيق وحدة الاراضى المصرية التى لم تكن تعنيه قدر عنايته بوحدة أراضى الدولة العثمانية وهو المبدأ الذى اتخذه مصطفى كامل أساسا لجهاده الوطنى .

ولكن مصر لم تلبث ان تنبهت الى هذه المحاولة وعدل فرمان التولية واحتفظت مصر بسياستها كاملة على شبه الجزيرة .

وفى سنة ١٩٠٥ ــ حين كان مصطفى فهمى باشا رئيسا للوزارة المصرية وبطرس باشا غالى وزيرا للخارجية ــ حاولت تركيا هذا الأمر مرة ثانية حين شرعت فى تعزيز قواتها فى طابا الذى تقع على الناحية الغربية من راس خليج العقبة .

ووقف الحزب الوطنى من جديد نفس موقفه السابق متفاضيا أيضا عن المصالح المصرية مضحيا اياها على مذبح المصالح التركية التى كانت تمده بالمال والتأييد من أجل مقاومة الاحتلال البريطانى لمصر متناسيا ان كلا من بريطانيا وتركيا مستعمران لبلده . ولكن الحكومة المصرية بادرت الى التصدى لهذه المحاولة الجديدة وحفظت وحدة الأراضى المصرية بالرغم من ان الوالى (عباس الثانى) حاول أن يلعب فيها دورا مزدوجا حين تظاهر بتأييد الوزارة فى مسعاها فى الوقت الذى أرسل فيه أحمد شفيق باشا الى استنبول ليقابل السلطان ليطعن الوزارة من وراء ظهرها .

وقد استندت تركيا فى هذه المحاولة الجديدة الى ان (مصر كلها مقاطعة متممة للممالك الشاهانية وليس هناك من حدود بينهما الأمر الذى يعد منافيا لصداقة التبعية) .

ووجهة النظر التركية هذه وان بدت منطقية لعلاقة مصر بتركيا الا أنها كانت منافية منافاة صريحة للاتفاقات الدولية المبرمة بشأن مركز مصر الخاص تحت ولاية بيت محمد على (١) وقد كانت الحكومة المصرية ومن ورائها بطرس غالى وزير الخارجية متشددا غاية التشدد فى موقفه وظهر هذا التشدد واضحا فى ردوده على السلطان الا أن الخديوى كان كثير التدخل من أجل تخفيف لهجة التشدد كما انه كان يرسل الى السلطان من وراء ظهر وزير خارجيته برقيات متتالية بهدم النظرية المصرية ويقول « ان تفسير

---

(١) لم يجر الى جعل العلاقة التركية المصرية الى علاقة دولية الا ضعف تركيا واستنجارها لكل من انجلترا وروسيا حين هددت الجيوش المصرية استنبول وبدا العرش السلطانى على وشك الانهيار .

الاتفاقات وايضاحها هما من حق صاحب الامر دون سواه وان الدولة التى تترك ادارة جهة من جهاتها الى أحد اتباعها « مصر » هى صاحبة الحق فى أن تسترد هذا الحجة » .

ونحن لا ننكر ان موقف التشدد الذى كانت الحكومة المصرية تقفه كان مؤيدا من بريطانيا تحقيقا لمصالحهما من ناحية وتأييدا لسيادة الوفاق التى اتفقت عليها مع وزير الخارجية المصرية ولكن هذا التأييد لا يجب أن يعمينا عن انه كان لصالح مصر ١٠٠ ٪ .

وكان من نتيجة هذا التشدد ان تراجعت تركيا عن محاولتها بعض التراجع وعرضت اقتسام شبه الجزيرة بين مصر وتركيا ولكن الحكومة المصرية ظلت محافظة على موقفها الأمر الذى أرغم الخديوى على التراجع عن دوره المزدوج لا سيما وقد ترددت الاشاعات ان انجلترا لم تكن تتردد فى عزله .

ومما هو جدير بالذكر ان الخديوى حاول خلال الأزمة أن يلعب على وتيرة الدين حين جعل رسوله شفيق باشا مبعوثه الى السلطان يسأل السلطان التساهل فى مسألة دير السلطان للقدس الذى كانت الكنيسة المصرية تتمسك بملكيته والموافقة على وجهة نظرها لقاء رضا بطرس غالى القبطى فيتساهل فى تبعية سيناء لمصر ولكن وظيفة بطرس غالى تنأ به عن هذا الموقف .

وانتهت الازمة فى مايو سنة ١٩٠٦ (على بقاء القديم على قدمه) واحتفاظ مصر بشبه الجزيرة كاملة لسيادتها .

ولنتصور معا ما كان يحدث لشبه جزيرة سيناء ولقناة السويس فيما لو نجحت تركيا فى هدفها وزحفت الحدود التركية حتى قناة السويس ثم جاءت الحرب العالمية الاولى وقسمت الاراضى العربية بين الدول المنتدبة وجاءت انجلترا الى فلسطين ومعها وعد بلفور وسمحت لليهود بالهجرة وسكنى شبه جزيرة سيناء واستقروا على الضفاف الشرقية للقناة منذ سنة ١٩٢٠ .

وكأن بطرس غالى الوطنى قد نظر الى المستقبل بعين السياسى البعيد

النظر ورسم سياسة الوفاق التى ضمنت لمصرية تأييد انجلترا لموقفها فى هذا النزاع وهو الموقف الذى رماه بعض المؤرخين بسببه بتهمة الخيانة (١) .

منذ سنة ١٩٠٢ أخذ عـــدد اليهـــود اللاجئين الى انجلترا هربا من الاضطهاد الروسى والرومانى يزداد والحكومة غير راضية عن وقفتهم بسبب سياستها ، ولكنها من ناحية أخرى لانهم كانوا يقبلون اجورا اقل من اجور البريطانيين مما أدى الى تفاقم العطلة بين العمال .

وحضر هرتزل الى لندن طالبا اتخاذ أرض لتجميع اليهود عارضـــا أوغندا أو قبرص او سيناء وكان هرتزل قد عرض هذا الاقتراح على السلطان (عبد الحميد الثانى) بعد أن اتخذ فيه مؤتمر بازل الخامس قرارا بالموافقة عليه وقابل فى ذلك اللورد روتشلد (وكانت أوغندا تشمل أوغندا الحـــالية وكينيا) واتفق الاتفاق على تركيز جهودهم على لندن حتى اذا قابل هرتزل مستر تشامبرلن وزير الخارجية مال هذا الاخير الى قبوله رغبة فى التخلص من اليهود الوافدين على انجلترا ولم تلبث قبرص ان استبعدت لئلا تثـــار الروسيا التى كانت تدعى حماية الارثوذكس فى العالم (ما عدا مصر) واستمر الرأى على أن فلسطين ومعها شبه جزيرة سيناء هى ارض الأمل .

وكان تشامبرلن يرغب من ناحية أخرى فى ارضاء اليهود واهالى جنوب افريقيا للاستيلاء على مناجم الذهب هناك وكانت سياسة بريطانيا ازاء هذا الجزء من مستعمراتها هى استرضاء أهلها بعد أن هـــزموا فى حرب التحرير كما ان استقرار اليهود فى فلسطين تحت حماية بريطانيا تجعل من هذا الجزء أملا بريطانيا بعد انهيار تركيا .

وكان مفتاح هذا الموقف اذن فى يد الحكومة المصرية التى تملك التصرف فى أمورها منذ فرمان سنة ١٨٤٠ كولاية ممتازة وتحت ارشاد بريطانيا منذ سنة ١٨٨٢ وانتهى الامر الى قدوم بعثة صهيونية فى يناير سنة ١٩٠٣ مكونة من ستة اغلبهم من المهندسين ومكثت بها نحو شهر وكتبت تقريرا عن أحوال

---

(١) ابراهيم أمين غالى فى « شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ الحديث » عدد ٤٨ من مجلة السياسة الدولية اكتوبر سنة ١٩٧٤ م .

شبه الجزيرة قدرت عدد سكانها ٤٨٠,٠٠٠ مواطنا يقطنون خمس مناطق وانتهت الى ان المنطقة غير صالحة لسكنى الأوروبيين ولكن اذا حلت مسألة الماء بانشاء الآبار امكن اصلاح أجزاء كبيرة منهـا وزراعة القمح والذرة والشعير والبقول كالعدس والفول والصوبا ومن الفواكه البلح والتين والبرتقال والليمون والزيتون والخروب وبعض الاشجار الخشبية كالكافور ، كما يمكن انشاء بعض الصناعات الزراعية للزيوت وسكر القصب والفواكه المجففة والأنبذة والكحول بل بلغت بها الجرأة أن حددت حدود المنطقة التى تجرى المفاوضة بشأنها مع الحكومة المصرية بالحدود التركية شرقا وقناة السويس غربا والبحر الابيض شمالا ومرتفعات التيه جنوبا أى كل شبه جزيرة الجزيرة بل يرى التقرير أن يقوم الفلاحون المصريون بالمجهود الزراعى بل حرروا صيغة عقد لعرضه على الحكومة المصرية يتيح لهم (احتلال) الارض واستعمارها مدة ٩٩ سنة ثم استغلالها بالصورة التى يرونها ، بل للشركة حق تجديد الامتياز لمدة مماثلة ، ورفع الاقتراح الى الوزارة المصرية مشفوعا بتوصيات الحليف البريطانى ولكن لم يكد يمر أسبوعان حتى تلقت من بطرس غالى وزير الخارجية المصرية ردا بأنها (لا تستطيع وفقا للقرارات الشاهانية لأى سبب أو مبرر التنازل عن جزء أو كل الحقوق المتعلقة بالسيادة وكذا فانه يجب أن نستبعد بصفة قاطعة كل فكرة ترمى الى الحصول على اتفاقات من هذا النوع) وفى نفس اليوم أرسل اللورد كرومر الى حكومته صورة من رد الوزير مع رأيه الشخصى الذى يقول ، ان الحكومة المصرية غير مستعدة للأخذ بهذا الاقتراح لانها لا ترى فيه أى نسبة من العدل ومن ثم ترى وجوب صرف النظر عن هذا المشروع .

هذا هو موقف الرجل الذى يرميه بعض المؤرخين بالخيانة ومسايرته للانجليز فى كل مشروع وان كان ضارا بمصر فها هى الحكومة البريطانية تعضد المشروع وتوصى هرتزل بالمضى فيه بل مساعدته على ارسال القضية اليهودية ولكنها لم تملك الا النزول عنه بعد موقف التشدد الذى أبداه وزير الخارجية المصرى (١) .

---

(١) ابراهيم أمين غالى الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية فى شبه جزيرة سيناء ، مجلة السياسة الدولية عدد ٤٣ يناير ١٩٧٦ .

أما بعث قانون المطبوعات فان المسئولية لم تكن على بطرس غالى بل على الخديوى عباس نفسه ، ففى اكتوبر سنة ١٩٠٨ تقابل الخديوى مع جراهام نائب الدون جورست الذى حل محل كرومر وحدثه فيما وصلت اليه الصحف المصرية من تمادى فى نقده الى حد أن اتهمته صحيفة الحزب الوطنى بالخيانة وطلب وضع قانون لكبح جماحها فلم يرافق جراهام على هذه الفكرة ولكن ذلك لم يمنع الخديوى من أن يطلب الى بطرس غالى الذى أصبح رئيسا للوزراة سن هذا القانون فرضخ بطرس غالى للرغبة الخديوية وقدم هو القانون الى مجلس الوزراء فعارضه كل من سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد مما أدى الى تدخل الخديوى شخصيا لدى الوزراء المعارضين وبعد أن وافق على القانون مجلس الوزراء أرسل الى مجلس شورى القوانين الذى كان فى استطاعته رفضه ولكنه وافق عليه دون أى تعديل مما يدل على تدخل الخديوى لدى النواب أيضا .

وكان من ملتمسه هذا ان رأى بطرس غالى صورة ادخال تعديل على سلطة مجلس شورى القوانين يعطيه الحرية فى مراجعة أعمال الحكومة واتفق فى ذلك مع ممثل انجلترا وكان غريبا ان الحزب الوطنى عارض هذه الرغبة بدعوى ان الحكم الدستورى يعارض الاسلام (١) .

وقد حاولت انجلترا فى ظل هذه السياسة الجديدة أن تحمل الحكومة المصرية على مد امتياز شركة قناة السويس الى مدة جديدة نظير مبلغ عاجل من المال وزيادة نصيبها من الارباح وكانت الصفقة ولا شك خاسرة لمصر . فما كان من الوزير الا أن أوعز الى مجلس شورى القوانين — بعد ان تظاهر هو بالموافقة — بأن يطالب بمناقشة هذا الاتفاق وما تقدم المجلس بهذا الطلب حتى أسرع رئيس الوزراء بتلبيته . أما عن دفاع الوزارة عن المشروع أمام المجلس فليس بطرس غالى مسئولا عنه فقد مات الرجل قبل نظره . ولسنا فى ذلك نلقى الكلام على عواهنه بل نستدل عليه بأن بطرس غالى كان رئيس

---

(١) ابراهيم أمين غالى — شبه جزيرة سيناء عبر التاريخ « السياسة الدولية عدد ٣٨) .

الوزراء الاول الذى قرر علنية جلسات مجلس الشـــورى (١) بعد ان كانت سرية وجعل الوزارة مسئولية امام المجلس عن اعمالها (٢)،وبذلك مكن الرأى العام من الاطلاع على اعمـــــال كل من الوزارة ومجلس الشورى كما مكن السلطة الدستورية الصورية من أن تصبح سلطة دستورية فعالة وليس هذا بعمل رئيس الوزراء الذى يعمل عملا يخاف ظهـــوره ولم يكن هذا العمـــل الوحيد الذى فعله رئيس الوزراء من أجل تمكين الشعب من الاشراف الفعلى على أعمال السلطة التنفيذية بل والاشتراك فيها فقد عدلت وزارته قـــانون مجالس المديريات فزادت من عدد أعضائها فجعل لكل مركز عضوين كمـــــا خولت هذه المجالس سلطة فرض ضرائب اضافية على الاطيان لانفاقها على المنافع العامة ومنها التعليم (٣) .

وكانت نتيجة شجاعة هذا الرجل الذى حمل راسه على كتفه اينمـــــا ذهب ان اعتدى عليه علنا فى العاشر من فبراير ١٩١٠ ومات الرجل وهو يردد (يعلم الله انى لم اعمل عملا يضر ببلادى) وكان الرجل صادقا . فبطرس غالى هو الذى :

١ ــ علم المصريين قيمة العمل الهادىء المبنى على التعاون الصادق والذى يرمى الى خدمة الوطن دون اللجـــــوء الى الصخب الذى يرمى الى الدعاية اكثر مما يرمى الى الخدمة .

٢ ــ أشعر المصريين بضرورة تعاون جميع ابناء الامة وقد جعله ذلك موضع تقدير كثيرين من المسلمين الصادقى الاسلام كالشيخ محمد عبـــــده والشيخ محمد النجـــــار . اذ لم يكن يتردد عن خدمة احد اذا وجد الحق فى جانبه .

٣ ــ علم المصريين كيف يقف الرجل مدافعا عن رايه فى شجاعة دون

---

(١) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

(٢) مقال لمحمـــــد حسين هيكل عن بطرس غالى بالمجلة الجـــديدة سنة ١٩٣٥ .

(٣) الشهيد محمد فريد ص ٨٤ .

النظر الى رأى الآخرين ما دام يرى الخير فى جانبه . اذ انه لم يتردد وهو الوزير القبطى عن أن يتدخل بنفسه عند اصلاح المحاكم الشرعية ويعطى حاكم البلاد حق تعيين قاضى القضاة وكذلك حق اصلاح ما يراه دون تدخل من السطان فقطع بذلك خيطا قويا من خيوط السيادة التى تربطها بمصر بينما كان رجال الأزهر وعلى رأسهم الشيخ حسونة النواوى يعترضون ويصرون على أن السلطان العثمانى هو وحده الحاكم الشرعى المطلق فىالأمورالشرعية وان القاضى الأكبر العثمانى هو نائبه يعين بارادته ويفصل بمجرد ارادته ولا حق للحكومة المصرية باحداث اى تغييرفى هيئة المحكمة الشرعية لأن ذلك ليس من اختصاصها (١) ووافقهم على هذا الرأى اعضاء مجلس شورى القوانين . وان هذا الموقف ليذكرنا بموقف هؤلاء المشايخ انفسهم أيام نابليون حين أراد أن يعين مصريا فى منصب القاضى الاكبر ورفضوا جميعا هذا التعيين .

فبطرس غالى هو الذى استيقظ قبل معاصريه ووقف على حقيقة بلاده ففضل أن يتجرع حقيقتها المؤلمة فحاول أن يجعل هذا العلقم عسلا عن أن ينام فى نعيم الخيال .

وقبل أن تصل هذه الحقيقة الى نهايتها فى سنة ١٩١٨ ظن الانجليز أن مصر قد خلصت لهم الى الأبد فقد أصبح التعليم المصرى خاضعا لهم تمام الخضوع وانبث رجالهم فى جميع مصالح الحكومة يسيرونها ، كما خيل اليهم وراح السير الدون جورست يطوف انحاء البلاد (٢) متفقدا هذه البقرة التى اصبحت غنيمة سهلة للشركات البريطانية بعد أن توسعت فى زراعة القطن من أجل مصلحة لانكشاير بل أكثر من ذلك فقد قضوا على القومية المصرية حيث بثوا التفرقة بين ابنائها واقصوا الاقباط عن مناصبها وجعلوا فريقا من الأمة يعتقد فى حقه وحده فى أن يحتل كبرى وظائفها بدعوى نيابة صاحبها عن ولى الأمر بل حرموا بناتهم من الالتحاق ببعض المدارس (٣) حتى اذا سن

---

(١) الاقباط فى القرن العشرين ج ٢ ص ٩٣ .
(٢) تذكار المؤتمر القبطى ص ٣٥ .
(٣) تصريح وزير المعارف بجلسة مجلس شورى القوانين فى ١٩٠٩/٦/١٨

القانون الذى يؤيد هذه التفرقة كان مشجعا لسن قانون آخر مشابه له خاص بالذكور (١) رغم المعارضة الشديدة لبعض أعضاء الهيئة التشريعية . وبذلك خلقوا فتنة التمييز المذهبى بين ابناء الوطن الواحد (٢) وتظـــــاعروا أمام المصريين بأنهم أول من ينصر الضعيف ويأخذ بحقـــة من الغالب (٣) ودفعوا ببعض الأجانب كالشيخ عبد العزيز جاويش (٤) الى سب الاقباط سبا جارحا حين نددوا بسياسة التفرقة فتقدموا بالشكوى الى رئيس الوزراء مطـــالبين بمساواة المصريين جميعا فى الحقوق كما هم متساوون فى الواجبات (٥) واباحة جميع الوظائف فى وجه الاكفـــاء من المصريين جميعا بلا قيـد بالمذهب أو الدين (٦) .

فى الوقت الذى ظن فيه الانجليز هذا الظن الخاطىء وناموا على سرير من الورد نسجوه من احلامهم الواهية وجه الاقباط الى الاحتلال ضربة قاصمة حين دعوا الى عقد المؤتمر القبطى فى أسيوط ليرموا بالقفاز فى وجه الانجليز وليعلنوا ان هؤلاء الدخلاء هم سبب هذا البلاء الذى تقاسيه الامة من حيث اشاعة التفرقة بين أبنـــاء الوطن الواحد (٧) وانتخبت لذلك لجنة من بشرى بك حنا وجورجى بك ويضا وبسطوروس خياط وسينوت حنا وتوفيق دوس قررت توجيه الدعوة بعقد جمعية عمومية فى أسيوط فى ٦ مارس سنة ١٩١١ .

---

(١) جلسة ٢١ مايو سنة ١٩١٠ .
(٢) تذكار المؤتمر ص ٥ .
(٣) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٠ .
(٤) الشيخ عبد العزيز جاويش رجل تونسى هرب من تونس سنة ١٨٨١ وترك أهله هناك ليطأهم الفرنسيون ويسقوهم المر والعلقم وقدم الى مصر متظاهرا بالحمية الدينية فخدع المصريون فيه فقابل احسانهم اليه بمحاولة التفرقة بين عناصر الامة فحاول بذلك أن يخلق لنفسه ميدانا للنضال . ولم يلبث ان هرب من مصر الى تركيا وعمل زمنا مع مصطفى كمـــال فى حركته المعروفة الا انه لم يلبث ان انقلب عليه وحاول التآمر عليه الا انه اسرع وعاد الى مصر حيث رحب به الملك فؤاد من أجل الدعاية للحركة التى ترمى الى تنصيبه خليفة للمسلمين فعينه فى وزارة (المعارف) وظل بها حتى مات .
(٥) تذكار المؤتمر القبطى ص ٨ .
(٦) جريدة مصر فى ٢١ مايو سنة ١٩٠٨
(٧) تذكار المؤتمر القبطى ص ٧٠ .

ولم يكن الاقباط وحدهم هم الذين اعتقدوا ان الانجليز هم أصل البلاء بل شاركهم هذا الرأى بعض أحرار الانجليز مثل الدكتور بتلر Butler الذى قال ان الاتحاد الذى كان قائما بين المسلمين والاقبـــاط فى مصر قبل الاحتلال البريطانى قد تحطم نتيجة لسياسة الحكومة البريطانية الخاطئة

وقد قابل أحرار البلاد هذا المؤتمر أحسن مقابلة فنشرت اللواء (اننا معاشر المسلمين نود من صميم أفئدتنا أن تعطى وظائف الحكومة لمن يستحقها من الأكفاء القادرين من الوطنيين من غير تمييز بين طائفة وأخرى ولا دين دون دين) .

كما نشرت الجريدة (ان رأى الجريدة فى التسوية بين المســـلمين والاقباط معروف مشهور وانها تقول ان كل مصرى له حق فى المساواة العامة من غير تمييز) بل زادت وقالت انه لا شك ان الاحتلال البريطانى هو المسئول الاول عن هذه الحالة السائدة بين المسلمين والمسيحيين .

ونشرت المؤيد تقول لا ندرى لماذا لا يأخـذ (الاقباط) حصتهم كوطنيين لهم ما للوطنى فى الوظائف العمومية . .

كما طلب الشيخ عبـد الرحيم الدمرداش شيخ الطريقة الدمرداشية (منع معاكسة المؤتمر القبطى) كما أرسل محمد بك توفيق الأزهرى صاحب جريدة الرائد العثمانى برقية قال فيهـا « أسأل الله أن يكلل أعمال مؤتمركم بالنجاح والفلاح لأنه مؤتمر خير وسلام واتفاق ووئام رغم أنف الذين يعملون للتفرقة وانقسام » (١) .

وسألت جريدة « مصر الفتاة » فى عددها الصادر فى ٢٩ يناير سـنة ١٩١١ عن المسئول عن هذه الحالة التى يشكوها الاقباط . ومن هو الذى ينكر كفاءة الاقباط هل هم المصريون أم الانجليز ؟ كمـا أرسل عثمان بك عبيد المدير السابق الى جريدة الوطن فى نوفمبر ١٩١٠ يقـــول « أن الاقباط مع مع ما عرف عنهم من تمسكهم الشديد بدينهم يشاركون المسلمين جميـــع

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٦٨ .

عواطفهم من كل قلوبهم » . ولكن الانجليز عرفوا قبـــل غيرهم أن الضربة موجهة اليهم فأوعزوا الى الحكومة بمنع الاجتماع كما تدخلوا لدى البطريرك كى يأمر بوقف المؤتمر . ولكن الاقباط بما عرف عنهم من وطنية ترقى فوق الصداقة والرعاية والدين صمموا على أن يبينوا وجهة نظرهم كاملة .

وعقد مؤتمر من الاقباط لابداء وجهة نظر خاصة فى مسألة عامة ليس فيه ما يؤخـــذ عليه فقد أجمع الاقبـــــاط في مؤتمر عام فى سنة ١٩٥٦ فى القاهرة اشتركت فيه الحكومة وخطب فيه أحد أعضائها . أما عن المطـــالب الخاصة التى يتقدم بها الاقباط فليس هناك ما يؤخذ عليها أيضـــــا . فليس الاقباط سوى فريق من الأمة له مطلق الحرية يحكم ما يتمتع به من مساواة فى الحقوق والواجبات أن يدلى برأيه فى مسألة من المسائل أو يطلب طلبــا خاصا . أو ينبه الى خطر يراد بالوطن ولم يكن مؤتمر أسيوط فتنة كما وصفه البعض بل كان لطمة وجهها الاقباط الى الانجليز فى حنكة ودراية فكان بذلك تنبيها للأمة لما كان يراد بهـــا من بث الفرقة بين ابناء الوطن الواحد وتنبيه الامة الى أعدائها الحقيقيين . ولذا نشرت جريدة الاخبار القبطية ان أعـــداء المؤتمر ثلاثة :

(أ) الحكومة لأن اعلان الحيف للقابضين على أزمة الحل بما لا يرضون أن يعرف عنهم .

(ب) السير الدون جورست . الذى يريد أن يرضى الاغلبيـــة (على حساب الوطن) .

(ج) الحزب الوطنى لانه يريد أن يصور الاقبـــاط عبيدا يتهالكون على محبة الانجليز .

وقبل أن يجتمع المؤتمر نشرت جريدة مصر فى فبراير سنة ١٩١١ مطالب المؤتمر التى تتلخص فى :

١ ــ المساواة فى الوظائف .

٢ ــ تمثيل الاقلية فى الهيئة النيابية .

٣ — صرف ضريبة الخمسة فى المائة التى تجمعها مجـالس المديريات على فتح مدارس لابناء الامة جميعا .

٤ — محاكم الاحوال الشخصية القبطية تطبق شريعتهم .
٥ — التعليم الدينى والادبى للأقباط .
٦ — راحة الأحـد .

على أن لجنة المؤتمر عادت فى ٣ مارس وقصرت هـذه المطالب على خمس نقط هى :

١ — مساواة جميع المصريين فى احترام يوم الراحة الدينى .

٢ — التعويل على الكفاءة دون سواها فى الترشيح فى الوظائف العامة للمصريين .

٣ — تمثيل جميع العناصر المصرية فى جميع مجالسها النيابية تمثيـلا يضمن الموافقة على حقوقهم والمحافظة عليها .

٤ — تمتع الاقباط بجميع حقوق التعليم الاهلى القائمة به لأن مجالس المديريات تجبى لاجله ضريبة ٥ ٪ من جميع المصريين .

٥ — جعل خزينة الحكومة مصدرا للانفاق على جميع المرافق العامة المصرية .

ولم يكن الاقباط فى هذه المطالب يطلبون شيئا جديدا او امتيازا مستحدثا انما كانوا يطلبون العودة الى ما كانوا عليه من مساواة مع جميع المصريين قبل عهد الاحتلال البريطانى واذا استثنينا المطلب السادس فليس هناك من مصرى قط الا ويرى ضرورة تحقيق هذه المطالب فقد نص دستور سنة ١٩٢٣ عليهـا جميعا كما أبقى عليها دستور سنة ١٩٣٠ والذى أصـدره صدقى باشا والذى انتقض فيه كثيرا من حقوق الامة كما نص عليها أيضا دستور سنة ١٩٥٦ الجمهورى .

واجتمع المؤتمر فعلا فى الميعاد المحدد وانفض دون أن يحدث أى اختلال بالامن وكان أول ما صرح به الخطباء اعلان ان وحدة الامة مقدسة بعيدة عن الاهواء والاغراض . فقد قال ميخائيل بك فانوس المحامى فى خطبته :

« أما مصر فشعب أصله واحد من سلسلة واحدة من آلاف السنين ، ولا يمكن تمييزهم من بعض اذ وجوههم واحدة وملامحهم واحدة متشابهة وما حقيقتهم الا عنصر واحد يختلف بعضه فى العقيدة عن البعض فمن ظلم الناس تسميتهم عنصرين » (١) .

وحين قرئت فى الجلسة الثانية رسالة من محمد بك وحيد يناشد فيها المؤتمرين « أن يضعوا نصب أعينهم تقوية الوحدة الوطنية » . صفق لها الحاضرون جميعا (٢) .

ونفى توفيق دوس مطالبة الاقباط بنصيب من وظائف الدولة يوازى نسبتهم العددية « فان هذا يستلزم ان يتربع فى المناصب العليا قوم غير أكفاء لادارتها لا لعلة الا لكونهم اقباط وفى هذا ضرر بالمصلحة العامة » وساق للتدليل على كلامه نصا للشيخ على يوسف وهو ان (كفاءة القبطى الذاتية ككفاءة المسلم الذاتية لا تقف عند حد . وكلاهما توصلان الى أعلى المناصب » كما رمى بالقفاز فى وجه بريطانيا فساق تاريخ التمييز فى الوظائف الى سنة ١٨٢٢ فقط .

كما أعلن مرقس حنا بك انه ينكر ان يعين في القانون عدد مخصوص من الاقباط لأنه يكره أن يذكر فى القانون كلمة قبطى ومسلم بل طالب باتباع الطريقة البلجيكية وهى طريقة الانابة النسبية بمعنى أن كل فئه تمثل بعدد من النواب يناسب عدد المنتخبين من هذه الفئة (٣) وهو رأى ينادي به كثيرون فى الوقت الحاضر .

وتكلم وهيب بك دوس مطالبا بوضع نظام لمجالس المديريات يكفل

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ١١٥ .
(٢) تذكار المؤتمر القبطى ص ١١٤ .
(٣) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٦٩ .

لجميع العناصر التمتع بالتعليم الاهلى (١) وهو ما تسير عليه الحكومة فى الوقت الحاضر .فلم يكن المؤتمر اذن يستحق شيئا من الضجة اثيرت لأجله انما كانت ضجة مفتعلة أثارها الانجليز لانهم ادركوا ان هذه الصيحات لا تؤدى الا الى كشف موقفهم فأشاروا على الخديوى بأن يسعى الى عقد المؤتمر المصرى فلم يجد الا محمود رياض باشا اليهودي الاصل العراقى المنبت البريطانى الهوى ليراس هذا المؤتمر .

وتوالى الخطباء فى هذا المؤتمر الثانى من ٢٩ ابريل الى ٤ مايو سنة ١٩١١ واعترفوا جميعا بأن :

١ ــ الامة المصرية كلها من عنصر واحد (١) .
٢ ــ نواب الاقباط فى المجالس التشريعية قليلون (٣) .
٣ ــ نظام التوظف فى الحكومة مختل فاسد (٤) .
٤ ــ الحقوق والمرافق فى مصر يجب أن تكون على الشيوع بين جميع المصريين على السواء لا امتياز لواحد منهم على أحد بكونه مسلما او مسيحيا أو يهوديا (٥) .

٥ ــ الانجليز هم الذين بدأوا سياسة التفرقة (٦) .

وبانتهاء المؤتمر الاخير انتهت الضجة كلها وعادت الامة الى صفائها السابق رغم ما حاوله الانجليز من إشعال نار الفتنة فقد كتب مراسل جريدة التايمز فى مصر معقبا على المؤتمر الاول انه لا يمكن التسليم بمطالب المؤتمر لعدم كفاءة الاقباط فى تولى وظائف الادارة (٧) .

---

(١) تذكار المؤتمر القبطى ص ١٨٣ .
(٢) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى .
(٣) مجموعات اعمال المؤتمر المصرى ص ٢٣ و ٣٢ و ٤٨ و ٨٠ .
(٤) مجموعات اعمال المؤتمر المصرى ص ٥١ .
(٥) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى ص ٣٧ .
(٦) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى ص ٦٣ .
(٧) مجموعة اعمال المؤتمر المصرى ص ٦٥ و ٦٦ .

ولكنا كأمة حية لم تفتنا هذه المناسبة لنتعظ بها فقد عرفنا عدونا الحقيقى كما اصررنا على وحدة الأمة وعلى وجوب ازالة سـوء التفـاهم وعـودة الصفاء كما عرفنا اختلال أحوالنا الادارية والاجتماعية والاقتصادية ووضعنا لهـا بعض الحلول التى أخذنا بها فيما بعد .

ولقد كان نجاح المؤتمر القبطى فذا فى النتائج التى وصل اليهـا فقد شعر السير الدون جورست ان سياسته هى المقصودة بهذا الهجوم القبطى فكتب تقريرا الى حكومته (١) فى أكثر من عشرين صفحة كانت كلها عبـارة عن محاولة لتبرئة نفسه وحكومته من تهمة سوء الادارة البريطانية فى مصر لعل اغرب ما جاء به من محاولة التنصل هو أنه لم يسمع قبل ذلك عن هذه الشكوى ولـكن ذلك لم يكن يعنى فى الواقع غير الفشل الذريع للسياسة البريطانية فى مصر والتى كان الاقباط سببا فى اظهارها وكشفها فلم يكن بد من تغييرها وتغيير من يمثلهـا فعين اللورد كتشنر معتمدا بريطانيا جديدا وهو الذى قال عنه السير ادوارد جراى فى مجلس العموم فى ١٨ يوليوسنة ١٩١١ « ان خبرته فى الشئون المصرية وكفاءته وعدم تحيزه سوف تكسبـه ثقـة الجميع » (٢) وعد الاقباط هذا التعيين انتصارا لهم خصوصا وقد بدأ العميد الجديد عهده بالغاء قانون المطبوعات . فأطلقت حرية الصحافة ولكن ليس معنى ذلك ان حال مصر قد تحسنت فى هـذا العهد الجـديد بل ظلت سيئة ما دامت السلطات البريطانية تعتمد على أناس راعت فيهم جانب الولاء اكثر مما راعت جانب الكفاءة مما اشاع نوعا من السخرة وعدم العـدالة التى ارتكبهـا موظفو الحكومة اعتمادا على سـلطة الاحتلال التى تسندهم (٣) فكانت السلطة البريطانية تتدخل حينئذ لاقرار العدل بأخذ جانب الفـلاحين وكانت هذه المطـالب سببا فى هذه الازمة التى اجتاحت البلاد قبيل الحرب العالمية الاولى مما أدى الى انهيـار الاسعار انهيارا كبـيرا مما أودى بمستوى البلاد الاقتصادى وكان غرض بريطانيا من ذلك الرد عن طريق غير مباشر على المطالبين بترك الادارة للمصريين .

---

(١) Copts and Muslims p . 36 — 56

(٢) Copts and Muslims p . 137

(٣) Copts and Muslims p . 140 , 141

وأخيرا عرف المصريون ان خيرهم فى اخراج اليد الاجنبية التى تسعى دائما الى النيل من وحدتهم وان الدين ليس الا مظهرا من مظاهر اختلاف الفكر وان شعور المصريين جميعا ونفوس المصريين جميعا تحمل من عواطف الحب أكثر مما تحمل عواطف البغض . بل تحمل من عواطف التعاطف والتآزر والتعاون أكثر مما تحمل من عواطف التنافر والتنابذ . وان طبيعة بلادنا السمحة الحلوة وارضها السهلة ونيلنا المنتظم وشمسنا الساطعة ، بل احساسنا بارتباط مصالحنا وتداخلها،وكل هذه عوامل توصى بالوحدة بل ترغمنا على أن نشعر اننا شعب واحد بل جسم واحد وما يضر عضوا يضر بالعضو الآخر وأنه سرعان ما تتحد الاعضاء على طرد الجرثومة الغريبة وعرفنا أيضا ان طبيعة المصريين تحمل عاملا ديناميكيا يعمل تلقائيا من أجل الحياة لا من أجل الموت . انها نعمة من السماء ولا أظن شعبا آخر يحملها كما يحملها المصريون واننا يجب أن نحرص عليها ونحرسها ونحافظ عليها بل ننميها وليس على ذلك من أمثالنا الشعبية التى نتداولها فتمثل الروح المصرية الحقيقية أصدق تمثيل (اليد الواحد ما تصفقش) ـ (أنا وأخويا على ابن عمى . وانا وابن عمى ع الغريب) .

ولقد عرف اللورد كرومر وهو الاستعمارى الاصيل والذى كانت سياسة التفرقة بين العنصرين أهم ما يميز عصره ما فى اتحاد أبناء الوطن الواحد من تأصل حين قال « ان الفرق الوحيد بين الاقباط والمسلمين فى مصر انما هو ان الاولين مصريون يتعبدون فى كنائس بينما الآخرون مصريون يتعبدون فى مساجد » (١) .

---

(١) Modern Egypt Vol II p - 206

الباب السادس

الحركة الوطنية منذ ثورة ١٩١٩

واخيرا انتصر الاقباط وقامت الامة كلها تنادى بما كان ينادى به الاقباط بعد ان آمنت انها الدعوة الحق وكل ما عداها باطل . قامت الامة كلهـــا تنادى بالقومية المصرية بعيدة عن كل من الانجليز والاتراك . وانفك سحر هذا الطلسم الذي خلقه الحكام الاجانب . واستغلوه لمصلحتهم وحدهم . لا لمصلحة المصريين . طلسم القومية الاسلامية الذى كان يعصف بالقــومية المصرية .».

كانت صرخة واحدة من سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ كافية لأن يهب المصريون جميعا بعد أن نسوا مصطفى كامل وعبد العزيز جاويش ورشيد رضا . متآخين متعاونين .»

كانت صرخة لم يحسب الإنجليز حسابها بعد أن هزمت تركيا وأصبح تنازلها عن أملاكها العربية حقيقة واقعة . وظن الإنجليز بعدها انه قد خلص لهم هـــذا الركن من العـــالم . فبهتوا ولم يملكوا الا أن يصوبوا الى صفوف الامة بنادقهم ومدافعهم فقابلها المصريون جميعا وصدورهم مفتوحة فارتوت الارض المقدسة بدمائهم ممتزجة فانبعث منهـــا هذا المارد الذى ظل نائمـــا قرونا طويلة . مارد القـــــومية المصرية الصحيحة المنبعثة من نفسها . المخلوقة من ذاتهـــا . لا المصنوعة بيد اجنبية . فلم يكن القرن الماضى كله . بل والعشرون سنة الاولى من القرن العشرين سوى معركة واحدة متواصلة خاضها الاقباط بصبر وشــــجاعة كى يجعلون الشعب يؤمن بما يؤمنون . واخيرا لاح النصر وكانت فرحة الاقباط به لا توصف . فقد أثمر جهـــــادهم الطويل واذنت صرخات المعلم يعقوب أن تصل الى آذاننا عبر السنين والأيام

فلم تكن وقفات المعلم رزق وراء على بك الكبير وصرخات المعلم يعقوب حنا ومدارس كيرلس الرابع ثم صرخات ثورة سنة ١٩١٩ الا أجزاء من معركة متصلة ذات هدف محدد دائم هو هدف الاستقلال التام . واذا كانوا الاقباط قد هزموا في مرحلة او اكثر من مراحل هذا الكفاح الا أنهم كانوا وما زالوا يحافظون على هذا الغرض الذى هو كالشعلة المشتعلة التى تهديهم وتقودهم دائما نحو الهدف الأصيل . هدف الاستقلال التام في ظل القومية الصحيحة .

وعرف سعد زغلول ان لا نجاح لهذه الحركة الا اذا أخذ الاقباط مكانهم فيها فدعاهم فلم يترددوا وكتب سعد زغلول الى واصف بطرس غالى وكان يقيم في باريس منذ قيام الحرب — تلغرافا يدعوه الى أن يأخذ مكانه الى جوارهم فأسرع ممسكا سلاحه . وحاول المتشككون أن يعيقوه فذكروه ان المسلمين قد قتلوا أباه منذ تسع سنوات فصرخ فيهم كما صرخ المسيح من قبل على لسان الأب وهو يقول لولده « أدخل وافرح معنا . لان أخاك كان ميتا فعاش . وكان ضالا فوجد » (١) .

وظهرت وحدة الامة صافية نقية وبدت مظاهر هذه الوحدة حين وقف شيوخ الازهر على منابر الكنائس كما وقف القسس ورجال الدين الاقباط على منابر المساجد مباركين هذه الوحدة . منددين بالمحتلين . محرضين على التضحية والفداء من أجل الوطن . كما ظهر الصليب يعانق الهلال على الأعلام المصرية . وبدت مظاهر هذه الوحدة أكثر من ذلك حين أخذت تبرعات المسلمين تنهال على الجمعيات القبطية في المناسبات المختلفة فقد أقامت جمعية التوفيق القبطية معرضا لمدارسها كانت لجنته العليا مكونة من فتح الله بركات وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس ، وعاطف بركات ومحمد محمود خليل الى جانب سينوت حنا وصادق حنين ومرقس حنا وغيرهم . كما أقامت الجمعية الخيرية القبطية سوقا آخر كانت لجنته مكونة من السيدات هدى شعراوى وشريفة رياض الى جانب أستر فهمى

---

(١) لوقا ١٥ : ٣٢ .

ويصا وروجينا خياط (١) واذا ما احتفل الحزب الوطنى بجنازة المرحوم محمد فريد اشترك جميع أفراد الأمة بها احتفالا شعبيا هائلا (٢) كما طافت لجنة الوفد المصرى بالبلاد لجمع التبرعات لنفقة اعضاء الوفـــد وكانت مكونة من فتح الله بركات ومرقس حنا وسينوت حنا ومصطفى النحاس وويصا واصف وحافظ عفيفى والأب مرقس سرجيوس .

فجمعت من مدينة الاسكندرية فى يوم واحد اربعـــــة عشر الفا من الجنيهات ومن مدينة فاقوس ثمانية آلاف جنيها .

وكان من أثر هـــذا التضامن أن نشر المستر بوند القــــاضى السابق بالمحاكم المختلطة بيانا ينصح فيه حكومته بالتسليم بالمطالب المصرية . بعد أن اتحدت جميع عناصر الأمة هذا الاتحاد المتين (٣) .

ولم تكف انجلترا عن سياستها التقليـــــدية التى نجحت أيما نجاح فى القرن الماضى وهى سياسة التفرقة فاتجه معتمدها اللورد اللنبى الى بطريرك الاقباط يمنيه بالحماية البريطانية له وللأقباط لو انتفضوا وتراجعوا . ورغم ما كان بين الاقباط وبطريركهم من جفـــوة نتيجة لمـــا حدث بينهما منذ ابتداء وجود المجلس الملى حتى لقـــد نفى أكثر من مرة . فانه لم يتردد عن أن يأخذ مكانه الذى يحتمه عليه واجبـــــه الوطنى والدينى فرفض هذه الحماية كما رفضها غيره من أعيان الطائفة عندما عرضت عليهم . اذ لم يتورع الانجليز فى بعض الاوقات عن استغلال الصداقات الشخصية فى سبيل سياستهم . فقد قال المستشار الانجليزى لوزارة الداخلية لحبيب المصرى باشـــا مادام الاقباط يشكون من بعض تصرفات المسلمين فى الوظائف لم لا يكتب القبط لدار المندوب السامى يطلبون حمايتهم . فما كان من الرجل ــ رحمه الله ــ الا ان أجابه ردا حاسما فقال له « لنا من ضمائر مواطنينا . خير سياج يحمينا فنحن ابنـــاء وطن واحد . نستطيع التفاهم مع بعضنا . أما أنتم فلا يعنيكم الا مصلحتكم . فان استدعت هذه المصلحة عينها أن تلعبوا دور المدافع لتفاخرتم بذلك على

---

(٢) جريدة الاهرام عدد ١٩٢٠/٢/١٦ .
(٣) جريدة الاهرام عدد ١٩٢٠/٦/١٠ .
(١) المقطم عدد ٧ يناير سنة ١٩٢٠ .

الملأ . لقد عشنا معا وليس لنا من يحمينا غير الله » (١) .

وفضل الاقباط أن يضطهدهم اخوانهم على أن يخونوا وطنهم . وما كان لاخوانهم فى الوطنية أن يظلموهم فالمصريون جميعا حريصـــون على ما ورثوه من أخوة صادقة أمينة ووطنيتهم قديمة قدم النيل . فما دامت هذه الوطنية قد استيقظت فيهم فلن يعودوا لينقضوا هذه الوطنية أو يلطخوها بالوحل .

وتألف الوفد المصرى الاول ومعظم اعضائه ممن اشتركوا قبل ذلك فى حزب الامة . وسمح له بالســـفر الى باريس فى ابريل سنة ١٩١٩ لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصـــلح فكان وداعهم يوما مشهودا غصت فيه الميادين والطرقات بآلاف المودعين وانضم اليهم الثلاثة المعتقلون فى مالطة . ومن الاقباط الذين اشتركوا فى هذا الوفـــد واصف غالى . وسينوت حنا وجورج خياط . ولكن الوفد لم يكد يصـــل الى باريس حتى وجد الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية قد اعترف بالحمـــاية البريطـــانية على مصر فكانت ضربة قاسية أصابت الوفـــد المصرى فى الصميم .

واستمر الوفـــد فى باريس يطرق كل باب دون كلل أو ملل سنة كاملة وصلت الى مصر فى اثنائها لجنة بريطانية برئاسة اللورد ملنر للوقوف على أسباب الاضطرابات المصرية . ولكن لما كان الوفد المصرى الموجود فى باريس هو الوحيد الذى اجمعت الأمة كلها — بما قدمته اليه من توكيلات أقبل جميع أفراد الامة على توقيعها فى حماس بالغ — على ترك مهمة المحادثة اليه وحده ولذا نظمت لجنة الوفد المركزية حملة نجحت فى مقاطعة الامة لجميع أفراد اللجنـــة . .

وكانت هذه المقاطعة الاجماعية من الأمة للجنة ملنر هى التى دفعت انجلترا الى الاعتراف بالوفد المصرى ودعته لفتح باب المفاوضة فى صيف سنة ١٩٢٠ ودارت مفاوضات طويلة حتى أوائل أغسطس انتهت بأن قدم الوفد البريطانى مشروعه الذى عرف فيما بعد باسم مشروع ملنر ناقشه الوفـــد

---

(١) المذكرات الخاصة للسيد حبيب المصرى بأذن خاص من ورثته .

داخليا ورأى أن يعرضه على الأمة لتقول فيه رأيها .

واعلن سعد زغلول على الامة وجوب مقاطعة الحكم بأن لا يقبل أى مصرى تأليف وزارة فى ظل الاحتلال البريطانى ولكن حدث أن عرضت الوزارة على يوسف باشا وهبة (وكان مسيحيا) فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فقبلها، فكان ذلك مثار سخط المصريين جميعا لا سيما وان البطريرك كان قد نصحه بعدم تأليفها . كما تقدم اليه وفد من الاقباط يطلب منه أن يرفض تأليفها فرفض مقابلته فكان من أثر ذلك ان اعتدى عليه فى ديسمبر من نفس السنة فكان أن تقدم قبطى هو عريان يوسف سعد أحد طلبة كلية الطب وألقى قنبلة عليه وهو يمر بسيارته فى ميدان سليمان باشا وكان الجهاز السرى أثناء بحثه عن شخص يقوم بهذه المهمة أن تقدم هذا الطالب وطلب اختياره لهذه المهمة حتى لا يقال أن المسلمين قد اعتدوا عليه ولكن حدث أن نجا من هذا الاعتداء ، واذا ما وصل الى مكتبه طلب رؤية هذا الشاب وسأله عن اسمه فأجابه (عريان يوسف سعد قبطى) فحكم عليه بالسجن عشر سنوات وقد حاول المحامى ان يخفف من الأمر أمام المحكمة بادعاء أن الشاب أراد فقط ارهاب الرئيس فكان يبادر بنفى الادعاء والتصريح بأنه ألقى القنبلة وهو ينوى قتله لا ارهابه (١) .

هذا فى الوقت الذى كان الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول يطرق كل باب فأبدت الأمة رغبتها فى ادخال بعض التحفظات على المشروع وعرض الوفد المصرى هذه التحفظات على الوفد البريطانى فى نوفمبر من نفس العام فأبى ادخال أى تغيير على المشروع فتوقفت المفاوضات .

وحدثت بضع أمور داخلية فى الوفد المصرى لا تتصل بالقضية المصرية عن قريب أو بعيد أدت الى انفصال سبعة من أعضاء الوفد ووصولهم الى مصر فى ٢٧ يناير سنة ١٩٢١، وهذه الحادثة ان دلت على شىء فهى تدل على أن القضية المصرية لم تأخذ من نفوس الاعضاء مكانا جديرا . وان المحافظة

---

(١) الكتاب الممنوع : على أمين ص ١٣٤ — ١٣٧ .

على كرامتهم الشخصية كانت اثمن لديهم من المحـــــافظة على القضية المصرية .

وكان توقف المفاوضات سببا فى عودة الاضطرابات من جديد وقيـــام المظاهرات فقابلها البريطانيون كما قابلوا المظاهرات الاولى بالعنف والقسوة حتى اضطرت الحكومة الى اغلاق المدارس .

وكانت عودة بعض اعضاء الوفد منشقين على الوفد الاول داعيـــا لان تحاول انجلترا اشعال نار هذا الخلاف فأرسلت فى ٥ مارس ١٩٢١ بلاغا الى السلطان تبلغه فيه رغبتهـــا فى الغاء الحماية البريطانية وطلبت تعيين وفد مصرى رسمى للمفاوضة مع الحـــــكومة البريطانية على أساس هذا الالغاء . وكان المعنى الواضح لهذه الدعوة العودة الى تجاهل الوفد المصرى الذى ما زال فى باريس تحت رئاسة سعد زغلول .

فدعا السلطان عدلى باشا الى تاليف وزارة جديدة تقوم بالمفـــاوضة واسرع هذا الى تأليف الوزارة الجديدة وابرق الى سعد زغلول بذلك فكان هذا دليلا على تسامحه عن الموقف السابق الذى ادى الى استقالة الاعضاء السبعة . فقـــابلهم فريق باريس بالدعاء لهم بالتوفيق وأسرع سعد زغلول بالعودة الى مصر وقامت الامة كلها تستقبله استقبالا ما زالت تذكره وتتحدث به حتى الآن .

واذا كان سعد زغلول وصحبه قـــد وصلوا الى مصر فى الخـــامس من ابريل سنة ١٩٢١ فانه لم يعن بمقابلة السلطان أو تقييد اسمه فى التشريفات كما تقضى التقاليد آنذاك بل أسرع الى مقابلة البطريرك فى السابع من ابريل واستقبله هذا ومعه الاقباط جميعا بل والمسلمون أيضا وتبادلا خطبا كلهـــا تحث على الاتحاد وبذلك ظهر لكل انسان ان هذه الدار المتواضعة التى تقع فى أحد الشوارع الضيقة من القاهرة أصبحت قبلة لجميع أهالى مصر سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين وان لا مكان لدخيل بينهما كما كانت جميع نداءات الوفد تحض على التمسك بأهداب هذا الاتحاد .

ولكن لم يكن ينقضى شـــهر ابريل سنة ١٩٢١ حتى ظهر الخلاف بين

الوزارة والوفد فقد طلب الثانى :

(أ) أن تكون له رئاسة الوفد الحكومى .

(ب) أن تكون أغلبية أعضاء الوفد الحكومى من أعضاء الوفد المصرى .

(جـ) أن يصدر مرسوم سلطانى بتحديد مهمة الوفد .

(د) الغاء الأحكام العرفية والرقابة على الصحف .

وأنكرت الوزارة هذه الأشياء وانقسمت الامة الى معسكرين الاول مع الوفد ينصر سعد زغلول والآخر مع الحكومة ورئيسها عدلى يكن . وسعى الساعون لأجل الصلح وحاولوا ن يوفقوا الى حل يصون وحدة الامة ولكن دون جدوى .

ويلاحظ على هذا الخلاف شيئان أولهما ان جميع من انشقوا على الوفد عندما كان فى باريس – الا اذا استثنينا حمد الباسل – قد انضموا الى المعسكر الوزارى . مما يدل على ان الخلاف الثانى كان متأثرا بالخلاف الأول . وأنه يتعلق بما خيل اليهم جميعا أنه شيء من الكرامة أكثر ما يتعلق بمستقبل المفاوضات القادمة ومستقبل البلاد السياسى وما كانت تبغيه من ضمان الوحدة .

أما الأمر الثانى فهو انقسام الاقباط أيضا مع المعسكرين فلم ينضموا جميعا الى معسكر الوفد أو الى معسكر الوزارة ولو فعلوا لكان موقفهم غير طبيعى ولأمكننا أن ننعته بالطائفية بل انضم فريق منهم الى جانب الحكومة كيوسف سليمان وتوفيق دوس ووهيب دوس بينما انضم آخرون كسينوت حنا ومرقص حنا وجورجى خياط الى جانب سعد زغلول . وهم جميعا وقفوا صفا واحدا فى المؤتمر القبطى سنة ١٩١١ مما يدل على ان اختلاف الرأى هو الذى يسيرهم كما هو رأيهم وليست الطائفية . وهذا الموقف وان كان غير جديد عليهم بل هو ما اثر عنهم فى كل حياتهم الماضية الا أنه جدير بالتسجيل هنا أكثر من أى وقت آخر .

وسرعان ما تألف الوفد الرسمى فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢١ مكونا من عدلى يكن باشا رئيسا وحسين رشدى باشا نائبا للرئيس وعضوية اسماعيل

صدقى ومحمد شفيق وأحمد طلعت ثم يوسف سليمان .

ومما يؤخذ على هذا الوفد انه تألف على النحو الذى جرى عليه تأليف الوزارات قبل ذلك من وجود قبطى واحد يمثل الأقباط وهو موقف ما كان يجب أن يقفه عدلى يكن مطلقا . فقد اشترك الاقباط فى كل الخطوات السابقة دون النظر الى نسبة عددهم الى عدد المصريين أو الى نسبة ثروتهم كما ان رصاص الانجليز عندما أطلق على المتظاهرين لم يكن ليصيب الاقباط بنسبة عددهم الى عدد المصريين . بل وقفوا جميعا جنبا الى جنب ليتلقوا مصيرا واحدا امام الخطر الاجنبى فكان من الواجب أن تكون نظرة الحكومة الى مثل هذه الامور أوسع من نظرتها السابقة . فالحكومة مازالت تمثل حكومة اسلامية وهى التى تملك حق التصرف فى مثل هذه المواقف فكان يجب ان تبدى هذه النظرة المتسعة كيتظهر للعالم أجمع وللأقباط خاصة انموقفها بعد الحركة الوطنية يختلف تماما عن موقفها قبلها .

وكان مظهر الخلاف بين الفريقين هذه الخطب النارية التى أطلقها كل فريق على الآخر ينعته بأقبح النعوت وبذلك نجح الانجليز فيما فشلوا فيه أولا من محاولة بث الفرقة بين ابناء الوطن الواحد عن طريق الدين .

ولعل اظهر ما حدث آنذاك هو تقديم الحكومة لتسعة من الموظفين اعلنوا رأيهم فى هذا الخلاف معارضين رأى الحكومة الى المحاكمة التأديبية وهم صادق حنين وسلامة ميخائيل ووليم مكرم وأحمد خشبة ونجيب اسكندر ومحمود فهمى النقراشى وزكى جبره وفؤاد شيرين وحسن أبو الفتوح فقضت بفصلهم جميعا .

وطالت المفاوضات بين الوفد الحكومى واللورد كيرزون حتى نوفمبر سنة ١٩٢١ وانتهت بالفشل بعد أن تبين المفاوضون المصريون ان الحكومة البريطانية لا ترغب فى شىء — كما كانت دائما — أكثر من استخلاص اعتراف مصرى بشرعية الاحتلال . فقد كان مشروعها الجديد — الذى دارت المفاوضة على أساسه — خلوا من كثير من المزايا التى كان اللورد ملنر قد اعترف بها فى مفاوضته الاولى . وكان موقفا طبيعيا من الحكومة البريطانية

بعد أن رأت أن الخلاف تسد مزق وحدة الامة ولكان موقفا يستحق أن يبادر رؤساء الفريقين لأجله الى نسيان الماضى والعودة الى الاتحاد يجـــــابهون بريطانيا . فكان موقفا مخزيا حقا .

وكان هذا الموقف هو الذى حدا ببريطانيا الى ابلاغ السلطان رأبهـــا فى أنها لا توافق مطلقا على فكرة الجــلاء عن مصر بل تصر على الاحتفـــاظ بجيش بريطانى كى يحافظ على المصالح البريطانية وأهمهـــا المواصلات بينهـــا وبين ممتلكاتها فى الشرق الاقصى . خصــــوصا بعــد أن غــدت قناة السويس أهم حلقة من حلقاتهـــا . وهى لا ترى سبيلا الى معالجــة الحال فى مصر الا بعقد محالفة دائمة تظل فيها بريطانيا وصية على مصر فى كل أمورها والخارجية منها على وجه خاص (١) .

وقبل أن يمر شهر على هذا التبليغ اتهمت بريطانيا سعد زغلول وسبعة من أعضاء الوفد بأنهم يعملون على الاخلال بالنظام وطلبت منهم أن يسافروا الى الريف والامتناع عن كل عمل ســياسى وهم ـ عاطف بركات وفتح الله بركات ومصطفى النحاس وسينوت حنـا ووليم مكرم وصادق حنين ومحمد عز العرب فبادر الآخيران الى تنفيذ هذا الطلبالا أن مقاومة الباقين دعت السلطة البريطانية الى القبض عليهم ونفيهم الى عدن ثم الى جزيرة سيشل .

وكان هذا فى الوقت الذى استقالت فيه الوزارة ولم تتألف بعد وزارة أخرى . فكان اجراء قاسيا قصــد به تحدى الأمة وارهابهــا أولا ثم اعطاء الفرصة للفريق الآخر كى يتقدم بما يراه من مقترحات عملية بعيدة عن تأثير الزعيم . هذا التأثير الذى يصل اليه فى سهولة ويسر عن طريق خطبه التى كانت تجتذب الجماهير ولتستثيرهم . وكان الرجل حقـا . خطيبا بارعا . وتمكن ببراعته هذه من امتلاك ناصية الجماهير ويحركهـا كيف يشاء وكانت الجماهير من ناحية أخرى متعطشة الى هذه القوة غير المنظورة التى تفيض عليها وتقودها .

---

(١) من اللورد اللنبى الى عظمة السلطان فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢١ .

فقامت المظاهرات صاخبة عنيفة قابلها البريطانيون بالشدة وسقط كثيرون صرعى رصاصهم. وهرعت طوائف الأمة الى السلطان تحتج على هذا الاعتقال وهذا العنف وبادر الاقباط من ناحيتهم فاحتجوا على طريقتهم الخاصة. فأعلنت الجمعية القبطية الخيرية الكبرى عدم الاحتفال بعيد الميلاد فسرعان ما وجد هذا الاحتجاج الصامت صداه فى نفوس الاقباط فبادرت جمعية الاقباط فى مصر الجديدة الى الموافقة على هذه الخطوة وتلتها جمعيات دمياط والمنيا والسنبلاوين وطوخ النصارى وشبين الكوم وطنطا وغيرها . وفى أول يناير سنة ١٩٢٢ اصدر القس بطرس عبد الملاك رئيس الكنيسة المرقسية الكبرى بيانا بعدم المعايدة فكان ذلك بمثابة احتجاج طائفى صامت أعلنه البطريرك الذى شارك الامة احتجاجها فكان اعلانا لهذا التضامن المقدس الذى أصبح حقيقة لا سبيل الى الشك فيها .

واصدر بقية أعضاء الوفد بيانا موقعا من حمد الباسل . ومحمد محمود وويصا واصف وعلى ماهر وواصف غالى وأحمد لطفى السيد وجورج خياط وعلوى الجزار وحافظ عفيفى ومراد الشريعى يستنكرون هذا الاعتقال ويدعون الى عقد مؤتمر وطنى لتقرير الخطة الجديدة (١) .

وجاءت هذه الضربة المباغتة على رأس الشعب فأفقدته وعيه بعض الشيء الا انه سرعان ما أفاق وتألف وفد جديد من حمد الباسل وواصف غالى ومرقص حنا . وويصا واصف ومراد الشريعى . وجورجى خياط (٢) . اجتمع ليعلن حلوله مكان الوفد المعتقل وأصدر بيانا الى الامة دعاها الى عدم المعاونة مع المحتلين . وبين لهم فى هذا البيان أوجه تنفيذ هذه السياسة الجديدة وهى الاضراب عن تشكيل الوزارة وعدم التعامل مع البريطانيين سواء كانوا افرادا أو هيئات بمقاطعة البنوك البريطانية والسفن البريطانية والتجارة البريطانية .

---

(١) المقطم ١٠ يناير سنة ١٩٢١ .
(٢) أهرام ٢٢ يناير سنة ١٩٢١ — وآخر ساعة عدد ٢١٧١ فى ١٩٧٦/٦/٢ .

وكأنما هذا الصراع المصرى البريطانى قد أيقظ روح العناد فى الشعب واستعد لحركته القادمة . ولم ترهبه هذه القوات البريطانية التى انبثت فى الشوارع (للمحافظة على الامن) خصوصا بعد أن قبضت السلطة البريطانية على موقعى هذا البيان فى الثامن والعشرين من يناير سنة ١٩٢٢ وارسلتهم الى ثكنات قصر النيل ولكنها خافت تبعة هذا العمل فأسرعت باطلاق سراحهم فى اليوم الثانى . وكان هذا التحدى من جانب انجلترا ومقابلة التحدى بمثله من جانب الشعب سببا فى تأخير تأليف الوزارة الجديدة . ثم اصدار تصريح ٢٨ فبراير .

وقابلت الامة هذا التصريح بما هو جدير به من الاستنكار وقامت المظاهرات من جديد تستنكر قيام الوزارة واستنادها الى هذا التصريح الاعرج وكذلك اقرارها بحق انجلترا فى ابعاد المصريين . ولم تكد البلاد تهدأ بعض الشىء حتى بدت وطنية الاقباط مرة أخرى حين قاموا يستنكرون حق انجلترا فى حمايتهم اذ عرفوا تماما ماذا تعنيه انجلترا بكلمة (الأقليات) . واصدر الاستاذ عزيز ميرهم بصفته سكرتيرا للحزب الحر الديمقراطى بيانا يرفض فيه حماية انجلترا للأقليات . اذ (لا تخالف بين سكان مصر الا من جهة العقيدة أما واجباتهم المدنية فهى واحدة) (وتمسك انجلترا بحماية الاقليات لا مسوغ له على ما فيه من العدوان على الاستقلال . فلا محل للاحتفاظ به) .

وشىء آخر جدير بالبحث أيضا . وهو اعتراف انجلترا باستقلال مصر . فقد دخل البريطانيون مصر سنة ١٨٨٢ يوم ان كانت البلاد تحت السيادة العثمانية . واعترف الانجليز أنفسهم أكثر من مره ان هذا الاحتلال مؤقت وانه سوف ينتهى اذا ما استقرت الاحوال فى مصر . فهذا الاحتلال بموجب هذا الاعتراف غير شرعى . ولا يعرف القانون الدولى سوى السيادة العثمانية التى كسبتها تركيا بحق الفتح فى سنة ١٥١٧ واعترفت بها مصر فى فرمانى سنة ١٨٤١ . فاذا ما انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة تركيا . ووقعت معاهدة سيفر التى تنازلت بها عن سيادتها على كل البلاد العربية

فكان ذلك معناه ان مصر قــد استقلت فعـــلا بمجرد توقيع معاهدة سيفر . ولم يكن ينقصها غير اعتراف الدول بهذا الاستقلال وهذا الاعتراف موجود ايضا ما دامت انجلترا وفرنسا ومن معهما من الحلفاء قد وقعوا على هذه المعاهدة . فكان هؤلاء المصريون ماسعوا الا ليأخذوا من انجلترا اعترافا بشيء سبق أن اعترفت به من قبل . فكان واجبهم أن يكون السعى لتنظيم انهـــاء الاحتلال غير الشرعى . فرضاؤهم بتصريح ٢٨ فبراير واشتراكهم فى وزارة ثروت باشا التى تألفت على أساس تنفيذ هذا التصريح اعتراف بشرعيـــة الاحتلال البريطانى وشرعية وجود البريطانيين فى مصر .

وفى ١٥ مارس صدر مرسوم باعلان استقلال البلاد واتخاذ السلطان لقب مصر . كل ذلك وما زالت الأحكام العرفية البريطانية مفروضة على البلاد والمحاكم العسكرية تزاول عملها فى محاكمة المصريين فكان اســـتقلالا فريدا فى بابه .

وفى الخامس من ابريل الفت الوزارة (لجنة الدستور) مكونة من ثلاثين عضوا برئاسة حسين رشدى باشا واشترك فيها خمسة من الاقباط هم يوسف سابا والانبا يؤنس مطران قنـــا وقلينى فهمى والياس عوض وتوفيق دوس .

وكان تأليف اللجنة عنوانا جديدا على أن الاقباط لم يعودوا عنصرا منفصلا كما ان عددهم فى اللجنة كان دليلا أيضا على انقضاء خرافة نسبة عددهم فى الهيئات التى يشتركون فيها . وتوخى الحكومة سياسة البحث عن الكفاءات مهما كانت ديانة أصحابها وهى السياسة الجديرة بالاتباع فى أمة تبغى الحياة الحقيقية والسعى الحقيقى نحو المستقبل المجيد .

وقوبل تأليف هذه اللجنة بموجة من الاستنكار فقد احتجت عليهـــا نقابة المحامين ورفض النقيب الاشتراك فيهـــا عندما عرضت عليه (١) اذ كانت الأمة تأبى الا أن يشرع الدستور جمعية وطنية منتخبة من الامة . وهى

---

(١) المقطعم فى ١٣ ابريل سنة ١٩٢٢ .

خطوة طبيعية ولا شك ، ولكن الوزارة رفضت هذه الفكرة بدعوى أن البلاد التي شرعت دساتيرها بواسطة جمعيات وطنية كانت في ظروف استثنائية زالت فيها السلطة الشرعية وحلت محلها سلطة مؤقتة على نحو ما حدث في الثورة الفرنسية .

وان الظروف التي كانت تجتازها مصر لم تكن استثنائية وانه قد جرى العرف في مصر على أن تصدر القوانين من ولي الامر وحده (١) .

وفي اثناء مناقشتهم الدستور ثبتت فكرة تمثيل الاقليات بعدد من النواب يناسب عددهم في مصر ودافع عن هذه الفكرة جميع أعضاء اللجنة من الاقباط ونشرت الجرائد الخبر فأسرع الاقباط الى استنكاره فكان موقفا يضاف الى مواقفهم الوطنية السابقة . ورغم ان هذا المطلب كان مطلبا اساسيا في مؤتمر اسيوط سنة ١٩١١ الا أن الاقباط كعادتهم دائما لم يذكروا الا وطنهم وما يجب عليهم نحوه . وقامت جمعياتهم تستنكر هذه الفكرة واصدر القمص باسيليوس الوكيل العام للدار البطريركية بيانا (بأنه لا يوجد في مصر الآن قبطي ومسلم بل الجميع مصريون على السواء وان القول بأقلية واكثرية ليس من شأنه الا العمل على التفريق والانقسام) (٢) كما اجتمع عدد كبير من الاقباط بالكنيسة البطرسية الكبرى وقرروا أن طلب تمثيل الاقليات الدينية في المجالس النيابية بدعة ضارة سواء بتلك الاقليات أو المجموع المصري . وموجبة لتمزيق الوحدة . التي يجب أن تظل قائمة (٣) وايد هذه القرارات اقباط نادي رمسيس واقباط مديرية البحيرة والمحلة الكبرى والمنيا واسيوط وجرجا وبور سعيد وسمالوط والبلينا وطنطا والزقازيق وبنها والفيوم وغيرهم . ورغم قيام بعض المسلمين داعين الى وجوب تمثيل الاقليات تطمينا لهم على مستقبلهم في مصر (٤) الا أن الاقباط لم يكن يعنيهم هذا الاطمئنان بقدر ما يعنيهم المحافظة على وحدة الأمة امام الاعداء . اذ ان الامة كلها في

---

(١) مذكراتي ص ٢٧ .
(٢) المقطم في ١٧ مايو سنة ١٩٢٢ .
(٣) المقطم في ٢٠ مايو سنة ١٩٢٢ .
(٤) المقطم في ٢٢ مايو سنة ١٩٢٢ .

معركة أمام عدو لا يتورع عن استعمال أى سلاح ما دام يؤدى الى تحطيم هذه القوة التى وقفت فى وجهه .

ولكن هذا لا يمنع من ان أقول ان تمثيل الاقليات بالنسبة لعددهم فكرة لست بخاطئة كل الخطأ خصوصا اذا استقرت الاحوال ولم يعد هناك عدو يخشى تدخله فقد أخذ بهذه الفكرة الدستور البلجيكى ضمانا لسماع صوت الأقلية خصوصا اذ كانت هذه الاقلية لا تسكن اقليما معينا أو تكون الاغلبية فى اقليم آخر الأمر الذى يمكنها من انتخاب من يعرض بعض شئونهم الخاصة .

أما اذا كانت هذه الاقلية العددية تختلط بالأغلبية وتشترك معها فى جميع المصالح فلا بأس مطلقا من تمثيلها بعدد كاف من النواب يتناسب مع نسبتهم الى مجموع السكان . وليس فى هذا مطلقا ضرر على الوحدة فنواب هذه الاقلية اقدر ولا شك على شرح مشاكلهم الخاصة التى لا تستطيع الاغلبية فهمها مهما خلصت نية أفرادها وتجردت من الاغراض .

ولم يكن هذا بمانع من استمرار لجنة الدستور فى عملها لأجل اقرار احكامه من أن تستمر الحكومة فى سياستها التى ترمى الى الحد من الحرية الشخصية وحرية ابداء الرأى . فعطلت جريدة الاهالى التى كانت لسانا من ألسنة الوفد المصرى . كما استمرت المحاكم العسكرية فى اجراءات محاكمة المقبوض عليهم فى المظاهرات فكان من الواضح ان هناك حكومتين تعمل كل منهما فى ناحية وتنفذ كل منهما قانونا غير الذى تنفذه الاخرى . وهذا لا يمنع من تعاونهما فى بعض الاحيان اذا ما اتحدت الغاية فى ارهاق الوطنيين ولذا أصدر الوفد المصرى الجديد بيانا الى الامة يصف فيه الوزارة بأنها ما زالت تعمل على مصادرة الحريات العامة ويتهمها بأنها تتعاون مع الحكومة البريطانية على حكم البلاد بالحديد والنار ولم كن البيان شديد اللهجة أكثر من البيانات السابقة التى أصدرها الوفد كما أنه كان اتهاما للوزارة اكثر مما هو اتهام للبريطانيين ، ولكن بادرت السلطة العسكرية البريطانية عقب اذاعة البيان فى ٥ يوليو الى القبض على أعضاء الوفد وهم حمد الباسل ، ومرقس حنا وواصف غالى ومراد الشريعى وويصا واصف وجورج خياط وعلوى الجزار وقررت محاكمتهم أمام محكمة عسكرية وكان مجرد سكوت الوزارة على اجراءات الحاكم العسكرى البريطانى يلقى الريب

على سلوكها بل على وطنيتها . وقدم الأعضاء فعلا الى المحاكمة فى التاسع من اغسطس بتهمتى الحض على كراهية الحكومة واحتقار حكومة جلالة ملك مصر . فكان من الأجدر ولا شك أن يصدر أمر التبنى من الوزارة المصرية ليحاكم المتهمون امام محكمة مصرية .

وبعد محاكمة لم تستمر أكثر من جلسة واحدة صدر الحكم عليهم جميعا بالاعدام . فهتف مرقس حنا بصوت جهورى رددته قاعة المحكمة « تحيا مصر » . بينما تقدمت والدة واصف غالى لتهمس فى أذن ولدها (اذكر اسم أبيك) .

ما أروعه من موقف لهذه السيدة التى رات زوجها يسقط مدرجا بدمائه على درجات وزارة العدل منذ تسع سنوات ليس عبير — من اجل مصر ، وها هى تسمع بأذنيها حكم الاعدام على ولدها من اجل مصر . ان كل مصرى يا سيدتى ليتمنى أن يكون ولدك .

ولم يلبث حكم الاعدام ان استبدل فى نفس المحكمة بالحبس سبعة أعوام مع غرامة قدرها خمسمائة جنيه لكل منهم . وزج بهم فى السجن ليعاملوا معاملة المجرمين العاديين بعد أن رفضوا جميعا دفع الغرامة . ومن مهازل القدر ان يصدر هذا الحكم فى اليوم الثانى من معاودة لجنة الدستور الأجتماع بعد الاجازة .

ولم يكن هذا الحكم ليمنع غيرهم من التقدم لقيادة الصفوف فتألف الوفد المصرى الثالث من المصرى السعدى . والسيد حسين القصبى والشيخ مصطفى القاياتى وفخرى عبد النور ونجيب اسكندر وراغب اسكندر ونجيب الغرابلى (١) .

ولم يكد يصدر هذا الحكم حتى أسرعت السلطات البريطانية أيضا وقرنت هذا الاجراء القاسى باجراء يضاهيه فى القسوة وهو القبض على اثنين من أعضاء الوفد الثالث هما الشيخ مصطفى القاياتى وفخرى

---

(١) المقطم ٢٨ يوليو سنة ١٩٢٢.

عبد النور . ولم يكادا يستقران فى قصر النيل حتى تألف الوفـــد الرابع من عبد الســـتار الباسل . ومحمود فهمى النقراشى وحسن يس . فاعتقلوا بدورهم كمـــا عطلت جريدة الاهرام وبذلك ظهر المصريون جميعـــا اقباطا ومسلمين فى هذه الفترة القاسية مثلا للتضحية والفداء من أجل مجـــد الوطن وتألف الوفد الخامس من المصرى السعدى وحسين القصبى ومحمود حلمى اسماعيل وسلامة ميخائيل وعبد الحليم البيلى فاعتقلوا كذلك .

وكان الوفد يحرص فى كل مرة على أن يظهر تضامن الامة فكان الاقباط دائما يكونون نسبة كبيرة من اعضائه لا يرهبهم عن أخـــذ مكانهم سجن أو اعتقال ولا يكاد الوفد يؤلف حتى يبادر فيزور البطريرك (١) حيث يجد أعضاؤه كل ترحاب . وحيث يتلقون بركات البطـــــريرك ودعواته لهم بالتوفيق والنجـــاح .

وفى هذا الوقت الذى كان فيه الاحرار يساقون الى السجون فريقا اثر فريق كان غيرهم يجتمع فى حرية مطلقة وظهرت نتيجة هذه الاجتماعات وهذه الحرية فى ظهور حزب الاحرار الدستوريين وفى انشاء جريدة السياسة لتكون لسان حال هذا الحزب . وعرضت رئاسة هذا الحزب على عدلى يكن باشا فقبلهـــا .

وفى خلال هذه المدة والت لجنة الدستور اجتماعاتها وتوالت على مصر وزارتان الأولى وزارة توفيق نسيم ثم الوزارة الثروتية فى نهاية نوفمبر سنة ١٩٢٢ ثم وزارة يحيى ابراهيم التى تألفت فى ١١ مارس سنة ١٩٢٣ وكانت قد عرضت على عدلى يكن قبل ذلك فرفض تأليفهـــا قبل الغـــاء الاحكام العرفية .

وكان من الواضح أن انقسام الامة هذا الانقسام المريع وعدم شعور جماعة الوزارة ومن معها بما تقاسيه البلاد من مصادرة الحريات وسلسلة الاعتقالات والمحاكمات البالغة منتهى العنف هو الذى أوحى التشـــدد الى الانجليز فى مراقبة أعمال لجنة الدستور فأصروا على أن لا ينضمن الدستور الجديد أى

---

(١) المقطم ٨ يناير سنة ١٩٢٢ .

اشارة الى السودان . ولو كانت هذه الاقلية الوزارية تملك فى ذلك الوقت ذرة من الروح الوطنية لشاركت الامة محنتها وامتنعت عن العمل فى اتمام الدستور ووقفت من الانجليز موقفا سلبيا ولتغير وجه التاريخ .

وأخيرا صدر الدستور بعد أن نص على أن تكون مصر ملكية دستورية يتولى الملك رئاسة سلطتها التنفيذية على أن يزاول سلطته بواسطة وزرائه الذين يكونون مسئولين أمام البرلمان المكون من مجلسين . أحدهما مجلس النواب المنتخب والآخر مجلس الشيوخ ذو الخمسين المعينين .

والغريب ان هذا الدستور الذى تباهى واضعوه آنذاك بأنه جاء وفقا لأحدث النظم الدستورية لم يلق منهم غير النقد المر العنيف حين فشلوا فى الحصول على أية أغلبية برلمانية فى ظله . فقد وصفه عبد العزيز فهمى بأنه ثوب فضفاض . كما وصفه اسماعيل صدقى بأنه لا يلائم الاحوال الاجتماعية والاقتصادية العامة فى مصر خصوصا من حيث التعليم ونوع الثروة العامة وتوزيعها فاتهموه بأنه هو الذى ساعد على خلق الاوتوقراطية البرلمانية التى نعم بها الوفد المصرى (٣١٥ نائبا) والتى اصبحت فيما بعد سببا من أسباب فساد الحال . والامر فى الحقيقة لا يعود الى هذا الدستور بقدر ما يعود الى الذين وضعوا الدستور والظروف التى وضع فيها، فقد أبى واضعوه الا أن يعملوا بينما كانت الامة مضرجة بدمائها تئن من الم الظروف الاستثنائية التى تعانيها وظنوا أن هذا الدستور سوف يوصلهم الى مراكز الحكم والزعامة ، فلما جاءت الانتخابات أبت هذه الامة الواعية الا أن تكيل لهؤلاء الناس الصاع صاعين فأثبتت لهم حيويتها كما اثبتت بطولتها ومنحت ثقتها لمن كان فى السجون والمعتقلات . ومن وقفوا معها فى وجه المحتل لا يرهبهم اعدام ولا سجن ولا اعتقال فكان موقف الامة من هذا الفريق موقفا جديرا بالاعجاب حقا . ان دل على شىء فهو يدل على ما فى طاقتها من حيوية كامنة ما زالت مختبئة بها منذ عهد أحمس واخذت تنتهز كل فرصة لتظهر كما فعلت أيام دقلديانوس . وأيام تيودوسيوس وأيام المأمون . وأيام سيف الدين قلاوون .

وعلى اثر صدور الدستور أطلق سراح المبعدين فى سيشل . وسمح لهم بالعودة إلى الوطن . والغيت الاحكام العرفية فى يوليو . ووصل سعد زغلول

فى منتصف سبتمبر ليقود المعركة الانتخابية .

وكان صدور الدستور وقانون الانتخاب عملا تشريعيا ناقصا خصوصا وقد وضعا موضع التنفيذ فورا دون أن يصدر قانون بتحديد الجنسية المصرية . وكان هذا خطأ دستوريا فاحشا مما سمح لبعض الاجانب ان يتقدموا لقيد أسمائهم فى الكشوف الانتخابية بل الى ترشيح أنفسهم لعضوية البرلمان كما فعل الشيخ عبد العزيز جاويش التونسى (١) بل بلغت به الجرأة أن يحاول رفع قضية على الوزارة من أجل اثبات حقه فى قيد اسمه بجدول الانتخاب استنادا الى الدستور (٢) ولم تتدارك الهيئة التنفيذية هذا الامر الا فى سنة ١٩٢٦ حين صدور قانون الجنسية الاول .

وهنا يحق لبعض الناس أن يسألوه كيف أجاز الوفد لنفسه أن يخوض المعركة الانتخابية وهو لم يعترف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وبالتالى لا يعترف بكل ما ترتب عليه من صدور الدستور وقيام الحكم النيابى .

ولكن الوفديين يقولون ان الدستور لم يصدر نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير ، اذ لم يشر الى هذا التصريح فى مقدمته . بل مصر استقلت منذ توقيع تركيا لمعاهدة الصلح . وتنازلت فيها عن كل أملاكها العربية ومنها مصر . وبذلك اصبحت مستقلة قانونا وليس هناك ما يمنع صاحب الامر فى مصر أن يعلن هذا الاستقلال وهذا ما تم فعلا عندما اعلن سلطان مصر دولة مستقلة ذات سيادة (٣) وقد تم هذا فى الخامس عشر من مارس سنة ١٩٢٢ فاتخذ لنفسه لقب ملك ثم شاء أن يصدر بعد ذلك دستورا يشترك به الشعب فى تحمل المسئولية . فليس هناك اذن ما يمنع من اشتراك الوفديين فى الانتخابات بل فى الحكم ما دام هذا النوع من الحكم لم يأت نتيجة لتصريح ٢٨ فبراير .

وكسب الوفد المعركة ونجح ٨٨ ٪ من مرشحيه ولم ينجح من زعماء

---

(١) المقطم فى ٥ اكتوبر سنة ١٩٢٣ .

(٢) أهرام ١١/١٠/١٩٢٣

(٣) خطبة سعد زغلول باشا فى نادى سيروس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

الخصوم سوى محمــــد محمـــود باشا وبعض أفراد من الحـزب الوطنى والمستقلين . وهو نجاح لم يكن الوفديون أنفسهم يتوقعونه . ومما لا شك فيه أن أغلبية الاقباط كانوا كغيرهم من أفراد الامة قــد أعطت أصواتها للوفديين وبلغ نصيب الاقباط من مراكز النيابة سبعة عشر نائبا وتسعة شـيوخ ومن الطبيعى أن أغلبية ناخبيهم كانوا من المسلمين ولكنهم لم يراعوا فى انتخابهم مسألة الدين مطلقا . ولا يستطيع أحد أن يدعى أن نجاحهم كان فى المدن حيث الطبقة المتعلمة . التى تستطيع هضم المساواة بسهولة بل انتخب منهم اثنان فى القليوبية وهى من المديريات التى كانت نسبة الاقباط فيها نسبة ضئيلة جدا ومما يجب أن نلاحظه أنه لم يكن قد مضى غير أربع سنين على بدء الحركة الوطنية مما يدل على استعداد المصريين دائما لطرح العـــواطف الدينية فى سبيل المصلحة القومية . مما يؤيد ما سبق أن ذكرناه فى أكثر من موضع من عدم تأثر المصريين بالنعرة الدينية واعتقادهم أن اختلاف الدين بين المصريين لا يعدو أن يكون نوعا من اختــلاف الرأى بين الأفراد . وألف سعد زغلول الوزارة فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ فأدخل فيها للمرة الاولى وزيرين قبطيين هما مرقس حنا وواصف غالى وكلاهما ممن حكم عليهم بالاعـــدام واستبدل به الحبس سبع سنوات .

وكان سعد زغلول فى هذا العمل جريئا حقـا . اذ أنه ضرب المثل أن المناصب لا تحتاج الى نسب معينة من كل طائفة ما دامت الامة قد أثبتت فى كل المناسبات الماضية أنها كل واحد يبذل نفسه على مذبح التضحية والفداء . كما أنهـا أيضا فى احتياج الى الكفاءات أينما كانت ومهما تكون ديانة أصحابها وعبر سعد زغلول عن هذه الروح الجديدة فى خطبة ألقاها فى ١٣ مارس سنة ١٩٢٣ حين قال « أما اتحاد العناصر فهو بحمد الله حاصل بين المسلمين وغير المسلمين من الوطنيين اذ أصبحوا جميعا مرتبطين أشد ارتباط برباط الوطنية وأصبح كل فريق يرى أن مصلحة الوطن قبل كل شىء وفوق كل اعتبار » (١) .

ولم يكد يمضى بضـــعة أيام على تأليف الوزارة حتى أثبت أحد الوزيرين

---

(١) خطبة سعد زغلول باشا فى نادى سيروس فى ٢٣ ديســمبر ســنة ١٩٢٤ .

القبطيين تأصل المصرية فيه وقوتهـا حين أصدر أمرا بجعل اللغة العربية هى لغة التخاطب الوحيدة بين مختلف ادارات وزارة الاشغال وكانت حتى ذلك الوقت تدور بالانجليزية،كما أمر بازالة جميع اللافتات الانجليزية واستبدل بها لافتات مكتوبة باللغـة العربية فقط . كما أصدر أمرا بوقف العمل فى مقبرة توت عنخ آمون التى كانت قد أكتشفت قبل ذلك ببضعة اشهر وكان صاحب امتياز الحفر هو اللورد كارنافون البريطانى ووكيله فى العمل المستر كارتر لما حدث بين الطرفين من خلاف ولم يحـاول المنـدوب السامى التدخل فى هذا الخلاف وهو أمر لم يكن يحدث قبل ذلك مطلقا .

وقد كان يجدر بسعد أن يسير فى طريق المساواة حتى نهايته فهـو يعلم أولا أن الاقباط يتطلعون الى المساواة الكاملة منذ سنة ١٩١١ وأنهم كانوا يتمتعون بهذه المساواة لولا التفرقة التى أوجدها البريطانيون خلال حكمهم الأسود وبدأ سعد بالسير فى الطـريق العملى بتعيين وزيرين قبطيين فى وزارته . فكان يستطيع ان يسير فى الطريق . بأن يبدأ يشغل بعض المناصب مثل المديرين ووكلاء المديريات ونظار المدارس العالية والثانوية وأمثالهـا ببعض الاقباط وبذلك يضع الحجر الاخير فيمـا بدأ به من اشعار الجميع بأن الكفاءة وحدها هى التى تدفع بالشخص الى المنصب . وكان سعد زغلول هو الوحيد الذى يملك القوة الشعبية التى تؤهله لأن يضع هذا الحجر ولم يكن هناك آخر يستطيع أن يخطو هذه الخطوة . وهى هنـة لابد أن نأخذها على الرجل .

كأنما أبت الاقدار الا أن تترك فخر تحقيق بعض هذه المساواة الى بطل آخر هو عبد الرازق السنهورى عندما كان وزيرا للمعارف وحمل اليه نبـأ حرمان الاقباط من الترقى الى مناصب نظار المدارس الثانوية (لأن العـادة لم تجر على ترقيتهم الى مثل هذه المناصب) مما أن سمع بذلك حتى انتفض انتفاضة مصرية وأمر بالغاء هذه التفرقة غير القانونية وصرخ فى مستشاره ان لا أقباط ولا مسلمين فى مصر ولست بالمجـرم الذى يحرم مصريا مما يستحقه بسبب دينه . فكان موقفا تسجله القومية المصرية لهذا البطل .

وما زال كرسى البطولة شاغرا ينتظر البطل الذى يجعل نصوص الدستور حقيقة واقعة يبادر فيكمل المساواة التامة فى جميع مناصب الدولة أمام جميع

المصريين فيكمل بذلك صرح القومية الصحيحة فيستحق بذلك تقدير الوطن اما عن منصب الوزير فيجب الغاء هذا التقليد وان تختار الوزارة الاقباط لكفائتهم فى الوزارة التى يعينون فيها دون مراعاة الى عددهم سواء كان واحد او اكثر .

أما عن الشئون القبطية وغيرها من شئون الاقليات الدينية فمن الافضل انشاء (وزارة الاقليات الدينية) وجعل المجالس الملية (بعد تعديل تكوينها لتمثل جميع أبناء الملة فى جميع أنحاء البلاد لتكون بمثابة مجالس استشارية للوزير الذى يخضع لاشراف مجلس الامة كغيره من الوزراء وتتكون ميزانية هذه الوزارة من ايراد أملاك هذه الاقليات .

أو أن يستبدل بوزارة الاوقاف وزارة الشئون الدينية ويعين لها وكيل من بين أبناء الاقليات ليتعاون مع أعضاء المجلس الملى — بعد أن يعدل تكوينه وتشرف الهيئة التنفيذية على انتخاباته يصبح المجلس الاعلى للشئون غير الاسلامية .

ونعود بعد ذلك الى موضوعنا فنقول ان انجلترا انتهزت فرصة اعتداء بعض المصريين على سردار الجيش المصرى (البريطانى الجنسية) لتتقدم الى الحكومة المصرية انذارا تطلب فيه غرامة قدرها نصف مليون جنيه والموافقة على توسيع رقعة أرض الجزيرة فى السودان من ٣٠٠ الف فدان الى ما لا نهاية من الافدنة ثم الوعد بقمع كل مظاهرة شعبية بكل شدة علاوة على اعادة كل وحدات الجيش المصرى من السودان على أن يتم ذلك بأمر يصدر خلال أربع وعشرين ساعة (١) وقبلت الوزارة الوفدية من هذه المطالب ما يتعلق بالحادث ورفضت بقيتها مما ادى الى استقالة الوزارة .
وكان الاعتداء الاول على الدستور حين حل مجلس النواب وتولت الامر وزارة من الاقلية التى لم يكن أعضاؤها ممثلين فى المجلس . فكان طبيعيا ان يكون المتآمرون بالدستور ممن نالهم الضرر من هذا العهد ومعهم الانجليز الذين وقفت الوزارة الوفدية دون تدخلهم فى الشئون المصرية . والملك الذى أحس

---

(١) الكتاب الاخضر بشأن السودان ص ٢٧ و ٢٨ .

بشدة وطأة العهد الجديد بالحد من سلطانه ثم هؤلاء الذين لم ينجحوا فى الانتخابات . وتمكن هذا العهد من أن يجعل الوزارة من نصيب هؤلاء الذين لم يكونوا يحلمون بها فى ظل الدستور وأن يجعل الانجليز يعيدون تدخلهم فى الشئون المصرية كما كان الحال من قبل . ويعيد الى الملك بعض سلطانه التى سلبه الدستور اياها . ولذا تكرر الاعتداء على الدستور أكثر من مرة . ومن الغريب ان كل اعتداء على الدستور كان يقرن باساءة معاملة الاقباط بالحد من تعيينات الاقباط وترقياتهم . وما كان الاقباط ليأبهون بهذه الصغائر التى تنم عن عقول مصدريها أكثر مما تنم عن سياسة مرسومة . كما أن وطنيتهم كانت أعلى من أن تحفل بهذه الصغائر . فصدر فى فبراير سنة ١٩٣٤ أيام وزارة عبد الفتاح يحى باشا منشور وقعه وكيل وزارة الداخلية . يحتم على راغبى بناء الكنائس الحصول على ترخيص خاضع لشروط خاصة (٢) وهو ولا شك منشور باطل لانه صادر من موظف عمومى لا يملك سلطة التشريع . هذا الى كونه لا يتفق مع الدستور الذى كفل حرية العقيدة . كما ساوى بين جميع المصريين فى الحقوق والواجبات .

ومن الغريب أن تلجأ الوزارة حديثا فى اجابة رسميةعلىسؤالأحدأعضاء مجلس الشعب فى هذا الشأن الى المغالطة فتذكر ان الاذن الذى يجب أن تحصل عليه البطريركية لبناء كنيسة ما يعود الى أيام السيادة التركية اذ نص عليه (خطى همايون) الصادر فى سنة ١٨٥٦ من أجل حقوق المسيحيين من رعايا الدولة . فمصر تملك شخصيتها المستقلة منذ اتفاقى لندن اللذين عقدهما محمد على باشا ولم تكن القوانين التركية تسرى على مصر فى قليل أو كثير . كما ان خطى همايون لم ينص على شىء من هذا مطلقا ، ولكى لا أتهم أنا أيضا بالمغالطة الجأ الى نشر نص هذا الخطى فى آخر الكتاب ؟؟ .

ولكن اين هذا الاعتداء اليسير على الدستور من العمل الذى قامت به هذه الوزارة والتى قبلها من الغاء الدستور نفسه ووضع دستور جديد منتقص سلطة الأمة بحجة القضاء على الاوتوقراطية البرلمانية (١) وفى ابريل

---

(٢) مجلة الايمان عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ص ١٦٤ .
(١) مذكراتى ص ٤٦ — ٤٩ .

سنة ١٩٤٠، صدر قرار وزارى يمنع المدرسين الاقباط من تدريس اللغـــة العربية حتى وان كانوا متخرجين فى قسم اللغة العربية لكلية الآدب فدفعوا بعدد كبير منهم الى التعطل دون ما ذنب سوى تبطينهم وابلغ هـــذا القـــرار الى المناطق فى ابريل سنة ١٩٤٠ يحمل توقيع وكيل المعارف المساعد وما كان الاقباط ليحفلوا بأمثال هذه الصغائر التى لا تصدر الا عن نفوس صغيرة .

وفى سنة ١٩٣٦ تعقدت الظروف العالمية وبدت الحرب قريبة الوقوع فأرادت انجلترا أن تطمئن الى مركزها فى مصر اذا وقعت الواقعـــة وابدت استعدادها للمفاوضة من أجل المسألة المصرية فتألفت الجبهـــة الوطنية التى رأسها رئيس الوفد المصرى واغلبية اعضـــــائها من أعضـــائه وانتهت الى عقـــد معاهدة الزعفران التى اعتبرها الوفد نهاية سعيه وجهاده ولذا اصبح مستقبل الوفد بعد ذلك يختلف عن ماضيه اختلافا كبيرا فأصبح همه الاحتفاظ بالحكم بأى ثمن وكان ذلك عن طريق ارضاء الأنصار فأصبحت الحـــكومة ومناصبها ومناقصاتها وأراضيها واملاكهـــا نهبـــا نهم . واصبح الدخول فى عضوية الوفد أو الترشيح باسم الوفـــد لا يتم الا للقادرين بعد دفع (الثمن) الذى لا بد ان يكون باهظا بقدر الامكان . على أن يسترد بعد ذلك أبهظ مما دفع أضعافا . ومنذ هذا الوقت شعر الأقباط ان الجهاد السياسى قد أصبح ملوثا فانصرفوا يهتمون بمصالحهم الخاصة وشئونهم الطائفية .

ولكن فساد الادارة السياسية وانتشار الرشوة وكذلك فساد الأحزاب وضايع المصلحة الوطنية فى زحمة المنافع الشخصية هو الذى أدى الى قيـــام ثورة الجيش سنة ١٩٥٢ ونجح الجيش فى ثورته بفضل تعضيد الأمة وحسن تقبلها للدعوة .

وليس أدل على هذا الفساد من ظهور الاخوان المسلمين الذين حاولوا اعتمادا على تنظيماتهم السرية ـــ القبض على السلطة عن طريق القتل وسفك الدماء ولكن يد الثورة امهلتهم حتى يعودوا الى رشدهم حتى اذا تبين لهـــا استمرارهم فى خطتهم امتدت اليهم يد الثورة كما امتدت الى غيرهم من نواحى الفساد الشامل وقد أظهرت محاكمة رئيسهم وأعضاء الحزب ما كانوا ينوونه من القضاء على الاقباط فى مصر .

وكان تعضيد الاقباط لثورة الجيش قويا حين أعلنت حكومة الثورة ان أول أهدافها المحافظة على الوحدة المقدسة والضرب على أيدى العابثين بها . وكان الاقباط أول من كشفوا عن هذا الفساد الذى انتاب الحياة السياسية فعزفوا عن الاشتراك فيه واضرب معظمهم عن الاشتراك فى الانتخابات . كما عزفوا عن التقدم لعضوية الهيئة التشريعية .

ولم يكن جهاد الاقباط فى النواحى غير السياسية ليقل شرفا عن جهادهم السياسى الناصع ففى ميدان الاجتماع . اندفع الاقباط يجاهدون فى سبيل رفع المجتمع المصرى فأقبلوا على تأسيس الجمعيات القبطية التى تعنى بشئون اليتامى والفقراء والارامل والمعدمين فأصبح لهم حتى سنة ١٩٥٠ أى فى مدى ثلاثين سنة أكثر من ثلاثمائة وخمسين جمعية (١) بين صغيرة وكبيرة وجميع اموالها من التبرعات ولم يقتصر عملها على هذا بل امتد الى تدريس الدين لمن يرغب فى ذلك وتدريس اللغة القبطية وطبع الكتب بها ونشرها . وكذلك الطواف على الكنائس والاشتراك فى الصلاة والقاء العظات وتقديم المساعدات للكنائس . وتملك بعضها المستشفيات والصيدليات والمشاغل والملاجىء ما بين بنين وبنات . ويشرف على كل منها مجلس ادارة يتجدد أعضاؤه بالانتخاب سنويا وظيفته الاشراف على جمع المال . وصرفه فى مصارفه الصحيحة . وفى سنة ١٩٤٧ أنشئت رابطة لهذه الجمعيات باسم رابطة الجمعيات الخيرية القبطية هدفها تنسيق العمل بينها .

على أن أكبر الهيئات المشرفة على الأعمال الاجتماعية القبطية هى هيئة مدارس الاحد (التربية الكنسية) . وقد تألفت بمرسوم بطريركى فى سنة ١٩١٨ (٢) ● وهى كما تظهر من اسمها هدفها جمع الصبيان والشبان الاقباط

---

(١) الدليل العام للأقباط الفصل الثالث .

(٢) المدرسة الأكليريكية ص ١٣٤ .

● يشير المؤلف هنا الى النشاط الارثوذكسى فقط لكنه لم يشر الى النشاط الكاثوليكى أو الانجيلى خصوصا فى ميدان التعليم ككلية أسيوط أو المستشفيات كمستشفى أسيوط وطنطا أو كلية اللاهوت الانجيلية ونشاط مدارس الأحد ... الخ (الناشر) .

فى الكنائس بعد مواعيد الخدمة الدينية وتلقينهم اصــول ديانتهم ما داموا لا يجدون من يلقنهم اياها فى مدارسهم . وبمعنى أوضح تثقيف الشباب ثقافة دينية تقوم على شرح دروس الدين لتلاميذ المدارس الاميرية والاهليـــــة . مستعينة فى ذلك بالنشرات والفانوس السحرى . يضاف الى ذلك العنـــاية بنظافة طلبتها وصحة ابدانهم بواسطة معلمين اكفـــاء وحث الأولاد والبنات على المواظبة على التردد على الكنائس وتناولهم الأسرار المقدسة .وتعويدهم العبـــــــادة وتنظيم رحلات رياضية روحيـــــا وجسديا . وتدريبهم على الاشتراك فى العطـــاء وتخصيص ما يتبرعون به لأعمال خيرية وتمرينهم على مواساة المرضى والفقراء .

وتعنى أيضا مدارس الأحد بأوقات الفراغ عند الطلبة خصوصا اثناء العطلة الصيفية فتجمعهم فى نواديها لتجنبهم صحبة الأشرار وتعـــوضهم بدلا منها الروح المسيحية فى جميع نواحيهـــا الروحبة والاجتماعية والثقـــــافية حسب برامج موضوعة . وذلك نظير اشتراك شهرى زهيــد لا يتجـــاوز الخمسة قروش ولأجل أن يقوم على اساس تربوى صحيح انشأت معهـــــدا للمعلمين . طلبته من الحائزين لشهادة الاعدادية لاعدادهم ليكونوا مدرسين لهؤلاء الطلبة . وجمعت لهم راتبا شهريا مقررا . منـــذ قبولهم بالمدرسة . ويبلغ عدد تلاميذ مدارس الأحد حسب احصاء سنة ١٩٥٠ ثلاثة وأربعـــون الف طالب . أما عدد المدرسين فيبلغ الفين وخمسمائة . ولم تلبث هـــذه الجمعية ان وسعت نشـــــــاطها فامتدت الى دراسة حالات المرتدين عن المسيحية وغير المعمدين وكذلك حالات التفكك العائلى والانهيـــار الداخلى لدراستها دراسة علمية ومحاولة علاجها قبل أن تستفحل . وهى الآن تصدر مجلة شهرية باسم مجلة (مدارس الاحد) تعنى بنشر الابحاث الدينية علاوة على اهتمامها باصلاح أحوال الطائفة اجتماعيا وثقافيا . يشترك فى تحريرها نخبة من الشباب الجامعى الذين تثقفوا ثقافة دينية عالية .

وقد بارك غبطة البطريرك هذه المدارس وأعلن سروره منها وتشجيعه لطلبتها فى أوقات كثيرة بحضور الصلاة معهم . والقاء النصائح اليهم .

وإلى هذه الهيئة يعزى فضل تنبيه المجلس الملى العام الى سوء حال

تعليم الدين المسيحى فى المدارس الاميرية . بعد أن عمد نظـار المدارس الى تغيير اللوائح والقوانين على غير الصورة المقصودة . فقد عمد بعضهم الى الهبوط بعدد الحصص . وأرغم جميع الطلبة على حضـورها غير مبالين باختلاف فرقهم (١) بل عمد بعضهم الى عدم الاهتمام بتدريس الدين كلية أو جعلها صورية باضافة حصص الدين الى جدول كامل لمدرس مسيحى مما يؤدى الى اهمال تدريسه ما دام لا يجد رقابة فعالة عليه من هذه الناحية .

فكان من اثر هذا التنبيه المتواصل ان كتب المجلس الملى الى وزارة (المعارف) فى سنة ١٩٣٢ بلفت نظرها الى ان الوزارة لم تعد تعد طلبة معهد التربية المسيحية اعدادا يمكنهم من تدريس منهج الدين المسيحى مما جعل مستوى المدرس والتلميذ واحدا كما ان المناهج تعدل من آونة الى أخرى ويفضل تعديل منهج الدين المسيحى . ولم ينس المجلس أن يبدى فى نهاية مذكرته أسفه لأنه يلح فى عرض مطالبه نسلا يجد فى الوزارة من يهتم بشأنها (٢) فطلب العناية بدرس الدين المسيحى والتفتيش على هذا الدرس باسعة مفتش قدير . وتدريس هذه المادة للطلبة المسيحيين بمعهد التربية ثم تعديل منهج الدرس الدينى بواسطة معنمين اعضاؤها على علم الدين المسيحى (٣) .

وقد عاون هيئة مدارس الأحد فى ذلك جامعة الشباب القبطى التى اسست وفق أحدث أساليب الخدمةالروحية والاجتماعية والثقافية والرياضية وجعل مركزها مدرسة الاقباط بالروضة .

وليست (مجلة مدارس الاحد) هى الوحيدة التى تعنى بالشئون الروحية والاجتماعية للأقباط بل قام الى جانبها أربع عشرة مجلة بين أسبوعية ونصف شهرية تعنى كلها بمعالجة الشئون القبطية بمختلف مظاهرها ونواحيها . وليس أدل على الوعى القبطى من ان هذه المجلات لم تتركز

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ١٢٨ .
(٢) نفس المصدر ص ١٣٤ .
(٣) خطاب غبطة البطريرك الى وزير المعارف فى ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ .

كلهـــا فى القـــاهرة والاسكندرية بل تنتشر فى جميع مدن الجمهورية المصرية وتجد كلها من تيقظ الشعب صدى لدعوتهـــا فهى لا تعتمد على التوزيع فى الشوارع أو اكشاك الجـــــــرائد ولا على الاعلانات بل تعتمد كلهـــا على الاشتراكات والتبرعات .

واذا ما تنبهت الأمة عقب الثورة الـــكبرى الى ضرورة نشر التعـــليم بين الشعب واقبلت الحكومة على فتح مدارسها فى كل مركز وبندر ومحافظة واقبل الشعب معهـــا على فتح المدارس الاهلية معاونة الحكومة على اداء رسالتها لم يتردد الاقباط عن الاشتراك فى هذا كله فاقبـــلوا على المدارس الاميرية مع اخوانهم يرشفون من مناهلها . كمـــــا اشترك الاغنياء فى انشاء المدارس الاهلية فانتشرت مدارسهم الى جانب بقية المدارس فانتشرت من أسوان حتى الاسكندرية وهى دائما موضع الثقة من الجميع على السواء .

ورغم صدور الدستور وتعهـــد الحكومة بجعل التعليم الالزامى اجباريا لجميع الذكور والاناث تبين منذ اللحظـــة الاولى عجز الحكومة عن الوفاء بوعدها وأصبح ما تفتحه من المدارس الالزامية رغم كثرة عـــددها لا يسد الا نسبة ضئيلة من احتيـــاج البـــــلاد . حتى اصبح وجود هذا النص فى الدستور حبرا على ورق .

فلم يتردد الاقباط عن أن يشاركوا الحكومة فى نشر هذا النوع من التعليم مجانيا فتألفت الجمعيات الخيرية فى جميع القرى . واخذت على عاتقهـــــا فتح المدارس وتشجيع الطلاب على ورودها . وكانت اكبر الجمعيات العاملة فى هذا الحقل (جمعية السيدات القبطية لتربية الطفولة) والتى بلغ عـــــدد مدارسها تسعا وعشرين مدرسة تضم اكثر من أربعة آلاف طالب وطالبة (١) وتسير هذه المدارس وفق المنهج الوزارى مضافا اليه بعض المواد الاخرى كاللغة القبطية والالحان والطقوس وتاريخ الكنيسة ولدى الجمعية مفتشون يزورون هذه المدارس زيارات دورية يقفون على احوالها ومدى تقدم التعليم فيها . والى جانب التعليم تعمل الجمعية من جانبها على اثارة الروح الفنيـــة

---

(١) مجلة الانوار عدد ٥ فى ١٨/٨/١٩٤٦ .

بين أبنائها وبناتها فامتدت بعض هذه المدارس بأنواع النسيج اليدوية الذى له شهرة فى البلاد . كما أعدت الوسائل اللازمة لانشاء خلايا النحل . هذا الى افساح المجال للتعبير بالرسم والتمـــاثيل عن القصص الدينية . وقد وجهت الجمعية عنايتها ايضا الى الخدمة الاجتماعية فهى تقدم الغذاء للأطفال مرة كل اسبوع كما تقدم لهم الملابس فى كل مناسبة كما تعنى بالنواحى الصحية والرياضية والرحلات المدرسية والى لجنة مدارس الأحد يعزى فضل تنبيه وزارة (المعـــارف) الى ضرورة تعـــليم الدين المسيحى الى جانب الدين الاسلامى فى المدارس الالزامية الحكومية فقدمت مذكرات كثيرة مستفيضة فى هذا الموضوع (١) .

ولم تقف نهضة الاقبـــاط الثقافية عند هذا الحد بل اشتركوا فى نهضة بلادهم الثقافية عن طريق الكتب التى ألفوها فى مختلف ميادين النشـــاط الثقافى ومنهـــا النشاط الدينى وقصـــد كثير منهم الى أوربا يرتشفون من مناهل جامعاتها فى مختلف الشئون ووصل كثير منهم الى مناصب الاستاذية فى الجامعات عن جدارة واستحقاق .

وفى سنة ١٩٥٤ اشترك فريق منهم فى انشاء معهـــد الدراسات القبطية وهو معهـــد عال للدراسات والابحاث المتصلة بالحضارة القبطية فى جميع عصورها . وفى مختلف مظاهرها . الغرض منه تشجيع الباحثين والدارسين على دراسة العلوم القبطية وخاصة فى العصر القبطى الذى لقى من مناهج وزارة التربية كل اهمال .

ويحتوى هذا المعهد على اثنى عشر قسما هى قسم اللغـــات المصرية القديمة الآثار واقسام الدراسات التاريخية فالدراسات العـــربية المسيحية فالدراسات الاثيوبية فالافريقية فالسامية وكذلك الدراسات الاجتماعية علاوة على اقسام اخرى تهتم بدراسة اللاهوت والقـــانون الكنسى والالحـــان والموسيقى الكنسية ثم قسما الفنون والتصوير .

---

(١) خطاب اللجنة العامة لمدارس الاحد الى اعضاء المجلس الاكليريكى فى ١٠ بشنس سنة ١٩٤٢ ش .

ومدة الدراسة فى هذا المعهد ثلاث سنوات يحصل الطالب فى نهايتها على دبلوم المعهد فى فرع التخصص واذا ما قدم الحاصل على الدبلوم بحثا للتخصص فى موضوع معين يضيف جديدا الى الدراسات القبطية حصل على زمالة المعهد . ولا شك ان مثل هذا المعهد لو نظرت اليه الحكومة نظرة قومية خالصة وأسدت اليه يد المعونة المالية والعلمية لأسدى بدوره الى البحوث العلمية الخالصة خدمة لا تقدر .

ولم يقف نشاط الاقباط الثقافى والفكرى عند حد الحدود المصرية بل تعداها الى خارجها ففى السودان حيث وصل عدد الاقباط الى أكثر من خمسة عشر الفا (١) كلهم راق له ميول دينية توية نحو كنيسته الارثوذكسية متمسك بعقيدته وتقاليده ونجحوا الى حد كبير فى الاشتراك فى توجيه التيار الثقافى الى ما فيه خير المجتمع السودانى . فلهم هناك أكثر من خمس عشرة مدرسة تضم أكثر من ثلاثة آلاف طالب وطالبة . من المصريين والسودانيين وهى منتشرة فى تسع مدن من كبرى مدن السودان . ومن هذه المدارس أربع فى الخرطوم وثلاث فى العطبرة منهما مدرستان ثانويتان للبنات وكذلك اثنتان ثانويتان للبنين والباقى بين ابتدائية واعدادية . وتشرف على هذه المدارس جمعيات قبطية أنشأها الاقباط وأمدوها بأموالهم كى تساهم فى نهضة البلاد الثقافية والاجتماعية . ومنها الجمعية الخيرية القبطية وجمعية الشابات المسيحيات . وجمعية الاصدقاء وكلها لا تعتمد على مساعدة مالية من اية جهة من الجهات . وقد أنشأت بعض هذه الجمعيات مكتبات يتردد عليها المصريون والسودانيون لأجل زيادة الاطلاع وتنمية مداركهم .

وفى انيوبيا أخذت البطريركية توالى امداد المدارس الحكومية بالمدرسين المصريين الذين يساهمون فى نشر الثقافة المصرية فى البلاد الشقيقة وان كانت باللغات الانجليزية أو الفرنسية.ولم يكن هؤلاء المدرسون يتناولون أية علاوات من البطريركية أو الحكومة المصرية . أو أية جهة اخرى . بل كانت مواردهم قاصرة على ما كانت تدفعه لهم الحكومة الاتيوبية الفقيرة وحدها من مرتبات غير مغرية .

---

(١) مجلة مار مرقس عدد يناير وفبراير ١٩٥٤ .

وفى سنة ١٩٢٧ اشتركت وزارة (المعارف) مع البطريركية فى الاشراف على من ترسله اليهـا من المدرسين المصريين وان كان هذا الاشراف مقتصراً على الناحية الادبية دون أن يتعدى الى الناحية المـالية ـ أو غير ذلك . بل ظلت بعض المناصب الثقافية الكبيرة فى هذا البلد الشقيق وقفا على المصريين يشغلونهـا اثر بعضهم وظل الحال كذلك حتى سـنة ١٩٣٦ حين ابتليت البلاد الاتيوبية بالاحتلال الايطالى .

ولكن لم يكد هذا الاحتلال ينزاح عن كاهل هذه البلاد وتعود اليهـا حكومتها التى أخذت فى اعادة تنظيم البلاد والعودة بها الى حياتهـا الطبيعية فى سنة ١٩٤١ حتى بادرت فولت وجهها شطر مصر من جديد لتمدها بعـدد من المدرسين يستطيع أن يساهم فى بناء اتيوبيا الحديثة فسافرت اليهـا بعثة جديدة من المدرسين المصريين (١) كى يكونوا مدرسة ثانوية تكون ادارتها ومنهجها وروحها مصرية بحتة . ولكنهم ما ان وصلوا فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى رأت الحكومة هناك أن تسـتعين بأفرادها فى مختلف مدارسها بدل ان يتركزوا فى مدرسة واحدة خصوصا وقد كانت هـذه المدارس كلهـا فى يد موظفين بريطانيين لم ينالوا اى نصيب من الثقـافة التعليمية أو التربوية . فكان ان وزعوا على أكثر من أربع مدارس . بل لجأت الحكومة الاتيوبية زوجات هؤلاء المدرسين وطلبت منهم أن يقوموا بالتدريس فى مدارس البنات الحكومية كى يساهمن مع أزواجهن فى المعركة ضد الجهـل فلم يترددن فى الأخذ بنصيب من هذه المهمة دون أن يتطلعن الى ضآلة ما يدفع اليهن اذا قورن بما يدفع الى غيرهن من المدرسات الاجنبيات . وقد عمل رئيس هـذه البعثة زمنا مديرا لمدرسة تفرى ماكونن ولـكن لم تلبث الوزارة أن عينته مستشارا لها يشرف على مشروعاتها ويوجهها بل جعلتـه ايضا مشرفا على تعليم اللغة العربية فى المدارس الاسلامية وكلفته وضع كتب عربية متدرجة على اساس قومى . تكون مواضيعها مشتقة من البيئة الاتيوبية وحدها . وكان نجاحه فى هذه الناحية دافعا للجمعيات الاهلية الاسلامية لان تستعين

---

(١) كان المؤلف ضمن افراد هذه البعثة التى سافرت فى ابريل سنة ١٩٤٣ حتى مايو سنة ١٩٤٥ .

به فى توجيه مناهجها . بل اعرف انه استشير فى بعض الأوقـــات فى تدريس الدين الاسلامى ومواده وتدرجها فى مختلف السنين الدراسية .

وقد اعرب جلالة الامبراطور له فى اكثر من مناسبة عن تقدير لعمله حتى تمنى أن يكون هناك اكثر من قبطى يستطيع أن يؤدى لاثيوبيا مثل هـــده الخدمات الجليلة التى يقدمها هذا المستشار .

لكن اذا كان للأقباط أن يفخروا بكل هذه النواحى التى اتجهوا فيهـا الى الانتاج لما فيه من مصلحتهم ومصلحة امتهم . الا ان هناك ناحية أخرى لا يملك القبطى اذا اتجه الى دراستها سوى الشعور بالخزى . هى ناحية الدين . فقد كان دور الرعاية الدينية لهذا الشعب يكاد يكون سلبيا محضا. وكأنما عنى الاساقفة والمطارنة باختيار القسس من بين الجهلاء كى لا يرتقوا عن مدارك رؤسائهم حتى اضطر المجلس الملى أن يلفت نظر البطريرك الى الحالة السيئة التى تردى فيها الاكليروس بسبب تجاهل المطـــارنة لخريجى الكلية الاكليريكية . فكان يقوم بتنبيهم الى ما يجب عليهم من اختيار القسس من بين المتعلمين (١) ولكن رغم كل ذلك حرص المطارنة على هذا التجاهل لأن الاخيرين لم يكونوا يدفعون ما يتوقى المطارنة الى الحصول عليه . وقد ابدى كثير من المطــــــارنة عطفهم على المدرسة الاكليريكية وخريجيها فى كثير من المناسبات لكن هذا العطف لم يتعد حد الكلام المنمق حين يقال أو يكتب .

وانا نجد هذه الحال مصورة تماما فى تقرير رفعه ابراهيم تكلا عضـــو المجلس الملى الى أعضاء ونواب المجلس الملى العام ولجنة الكنائس فى ٢١ مايو سنة ١٩٢٩ حين قال « انه لحال ينفر لهـــا قلب كل مخلص لطـــائفته عندما يجتمع برجال أكليروسه وهم رعاته وقادته فيجـــدهم يجهلون ابسط النظريات العلمية . فكيف بهم وهم يجهلون أصول دينهم . ولا اقول فلسفته. مع ان معرفة الدين يستدعى دراسة عميقة فى العلم والفلسفة كما هو الحال فى الطوائف الأخرى . التى أصبح الفرق بيننا وبينها فرقا شاسعا بين رفعة عظيمة عندهم وانحطاط مخز لنا ـــ وكلما فكرنا فى هذا الانحطاط واسبابه اتجه

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ١٠٤ الى ص ١٠٨ .

نظرنا الى المدرسة الاكليريكية التى يتخرج منها رجال الكهنوت والوعاظ بوجه عام (١) رنيت الامر قاصر على خريجى المدرسة الاكليريكية اذ لو كان رجال الاكليروس من خريجى هـــــذه المدرسة لهان الأمر . لانهم أفضل بكثير ممن يرسمون من عامة الشعب الجهلاء . وبعضهم لا يكاد يعرف القراءة والكتابة العربية ● .

« فكان من اثر ذلك ان انحطت المدرسة الاكليريكية ولم يعد يقبـــــل عليها الا من لفظتهم المدارس المدنية . ومن ثم هبط مستوى التدريس فيهـــا حتى كان أعلى مستوى وصلت اليه بعض المواد لا يتجـــاوز مقررات السنة الثالثة الثانوية . أما مواد الدراسة الدينية تمتوسطة ومعظمها سطحى » .

ولذا قرر المجلس الملى فى ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٨ تأليف لجنة تقـــوم بدراسة مشروع لتنظيم المدرسة الاكليريكية واصلاحها . وفوضت هـــذه اللجنة أن تتخذ فى هذا الشأن من القرارات ما تراه سواء من جهة تعـــديل نظام التعليم أو تحديد عدد الطلبة أو انقاص عدد المدرسين . أو استبدال الموجودين بسواهم . أو غير ذلك (٢) وقد اعترف رجال الدين أنفسهم بهذه الحالة السيئة فى تقـــرير لهم مؤرخ فى ١٧ يوليو سنة ١٩٢٨ حين قال « ان معظم رجال الاكليروس القبطى فى جهل مطبق فى العلم والدين » كما اعترف « ان الفرق بين رجال الدين عندنا وعند غيرنا فى الطـــوائف المسيحية فرق شاسع جدا بين رفعة عظيمة عندهم وانحاط مخز لنا » (٣) .

ومع ذلك رفض المجمع الاكليريكى الموافقة على قرار للمجلس الملى العام بارسال بعثة لاهوتية الى انجلترا بدعوى (ان المجلس باقراره هذا الاقتراح قد تجاوز الاختصاص الممنوح له بموجب اللائحة مخـــــالفا لنص المادتين ١٠ و ١٧ من لائحة ترتيب واختصاصات المجلس الملى العام . واعتدى

---

(١) المدرسة الاكليريكية ص ٦٨ .
(٢) المدرسة الاكليريكية ص ٧٩ .
(٣) نفس المصدر ص ٨٣ .
● هذا الوصف لا ينسحب على كلية اللاهوت الانجيلية التى كانت تخرج القادة والمفكرين ولا تقبل الا خريجى المدارس الثانوية (الناشر) .

بذلك على سلطة الاكليروس ويكون قراره من هذه الوجهة باطلا قانونا) .

وكان هذا الانحطاط الذى وقع فيه الاكليروس منذ زمن بعيد والذى بدا واضحا للغاية فى سنة ١٩٢٨ هو الذى سبب الكارثة التى حاقت بالاقباط فى هذه السنة وما تلاها من الايام . فقد مات الانبا كيرلس الخامس فى اغسطس سنة ١٩٢٧ وكان المنتظر أن يكون البطريرك الجديد منتخبا بالشعب من طائفة الرهبان كما كان التقليد منذ دخول المسيحية الى مصر ويشترك فى انتخابه بعد تدقيق وفحص طويلين رجال الدين والشعب فأبى الفساد الذى امتد الى مناصب الاكليروس كلها فى ذلك الوقت الا أن يمتد أيضا الى اكبر منصب فيه فتطلع الى هذه الرئاسة بعض الاساقفة والمطارنة وعلى رأسهم الأنبا يؤنس مطران البحيرة . فكان ان سعى الى هذا المنصب بكل الطرق . وكانت أولى هذه الخطوات اصدار لائحة جديدة لانتخاب البطريرك فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٨ تبيح ترشيح المطارنة للكرسى البطريركى دون أن تستند فى ذلك الى سند من التقاليد سوى قرار للمجمع المقدس فى يوليو سنة ١٩٢٨ يبيح ترقية المطارنة الاساقفة الى رتبة البطريركية وحصر انتخاب البطريرك من بينهم خلو الكرسى (١) وقد استند هذا القرار على كثير من المغالطات المقصودة والتخريجات البعيدة عن المنطق وكون هذه اللائحة مخالفة للتقاليد والقوانين الكنسية تدعو الاقباط ولا شك الى عدم الاعتراف بكل بطريرك يجلس على كرسى البطريركية طبقا لهذه اللائحة وما يشابهها . وانتهزت الحكومة القائمة فى ذلك الوقت هذه الفرصة السانحة لتمد يدها الى التقاليد القبطية فتهدمها كى يكون هذا التدخل سابقة لتدخل الحكومة فى كل اختيار لاحق . فكان ان تم الاتفاق بينه وبين الحكومة على حصر حق الانتخاب فى عدد ضئيل من الوزراء السابقين والحاليين وأعضاء مجلس الشيوخ والنواب الحاليين والسابقين وبعض أعضاء المجالس الملية السابقين واللاحقين أيضا فكان عدد هذه المجموعة ستة وتسعين أوصاهم توفيق دوس (الوزير القبطى آنذاك) واحدا واحدا ان يعطوا أصواتهم للأنبا يؤنس (٢)

---

(١) الرحلة البطريركية ص ١٣ .

(٢) من المذكرات الخاصة بالسيد حبيب باشا المصرى باذن خاص من ورثته .

وفى يوم الانتخاب نال الانبا يؤنس سبعين صوتا من ٨٥ وهو عدد من أدلوا بأصواتهم . وبذلك ارتقى الانبا يؤنس الى منام مار مرقس بعد أن بذل فى ذلك كرامته وكرامة الأقباط . ومنذ هذا اليوم هان الاقباط فى نظر الحكومة بل فى نظر انفسهم .

وحاول الانجليز أن يصطادوا فى الماء العكر :تقربوا بممثلهم الاسقف جوين الى فريق من الغاضبين وأوهموهم أنهم لو خرجوا عن طاعة رئيسهم وأنزلوه عن السدة المرقسية لوجدوا من الانجليز عونا . ولكن الاقباط — رغم عظم الطعنة التى أصابت تقاليدهم وكرامتهم على يد كل من الحكومة والاكليروس ابوا أن يكونوا مخلب القط (١) وان يسعوا الى حتفهم بظلفهم فرضخوا ولكنهم قرنوا هذا الرضوخ باحتقار كل من سعى فى هذا الامتهان او اشترك فيه لأنهم وجدا ان ما سعت اليه الحكومة أيام سعيد واسماعيل ونجحوا فى الدفاع عنه آنذاك قد ضاع منهم بعد هذا العهد بخمسين سنة أو تزيد .

واذا كان الاقباط قد أجرموا فى حق أنفسهم بتهاونهم هذا التهاون الجسيم فخطأ الحكومة فى حق الوطن كان أشد وأنكى . فهى بتدخلها قد اعتـــــدت على ما كان يتمتع به الاقبـــاط طول تاريخهم — حتى فى احلك أوقاته — من حق انتخاب بطاركتهم فى حرية . وهو ما لم تحاول اشد الحكومات تعسفا واضطهادا أن تتدخل فيه . وكان من اثر ذلك أن حمـــل بقية الاقباط هـــذا العمل فى نفسهم وأيقنـــــوا ان الحكومة فى سبيل أن تحيـــــد عن سياسة المساواة التى كفلها الدستور . ومنذ هذا الوقت انعدمت الثقة بين الحكومة والاقباط واصبحت العلاقة بينهما كالعلاقة بين الصياد والطـــائر . وزاد من يقين الاقباط بهذه الفكرة ما كانت تأتيه الوزارة الصدقية وأمثالها من وزارات الاقلية من أعمال أبعدتها عن حسن ظن الناس بهم .

وعاش الأنبا يؤنس التاسع عشر الى سنة ١٩٤٢ حين توفى وانتخب الانبا مكاريوس مطران اسيوط قائمقام بطركيا . ولم يتعظ المطارنة بما فات من حوادث الاربع عشرة سنة الماضية من امتهان مقصود لحقوق الاقباط من

---

(٣) نفس المصدر السابق .

ناحية الحكومة شجعها عليه ما شعرت من جميل على البطريرك . بل تطلعت نفوسهم التي أضلها الطمع مرة أخرى الى المنصب البطريركي ولو كان ذلك على حساب الاقباط وكرامتهم . ولذا عملوا على تحــــدى ارادة الامة مرة أخرى . ورشحوا بعضهم لمنصب البطريرك . ولكي يضمن الانبا مكاريوس تعضيد الناخبين له . وعدهم انه في حالة انتخابه سوف يقف في صف اشراف المجلس الملي على الاوقاف الخيرية القبطية . حتى اذا نجح واخذ في تنفيذ وعده وقف أساقفة الاديرة في وجهـــــه وابوا ان يسلموا للمجلس الملي بأى اشراف . فوقع البطريرك بين المطرقة والسندان (١) واخذ يظهر الضيق من آن الى آخر بالهرب الى الدير والامتناع عن تصريف الشئون العامة ، ولذا لم يكن ما أصاب الاقباط في عهــد هذا الاخير بأقل مما اصابهم في عهد ســـلفه من استمرار النزاع بين المجلس الملي (وهو الذى أصبح يمثل الاقباط تمـــام التمثيل) وبين رجال الدين ممثلين في المجمع المقدس . علاوة على :

أ ــ نقل الكهنة من كنيسة الى أخرى رغم مخالفة ذلك للتقـــــاليد الكنسية .

ب ــ رسم الكهنة مقابل هدايا نقدية .

جـ ــ خلو الابرشيات من الاساقفة زمنا طويلا حتى يوجد المرشح الذى يدفع .

د ــ عدم اكتراث المطـــارنة في كثير من المواقف وتعديهم على أبرشية مصر الاسكندرية يقيمون فيها الشعائر دون رقابة أو تصريح .

هـ ــ تناقص ايراد البطريركية حتى وصل الى درجة العدم

ولقد كان هذا الحال دافعا للبطريرك الى الندم والتفكير في تعديل لائحة الانتخاب وقصره على الرهبان الذين لم يتعدوا درجة القمص الا أن غيره من الاساقفة الذين كانوا ينتظرون موت البطريرك العجوز بفارغ الصبر لينالوا حظهم من هذا الكنز وقف في سبيل هذه الامنية واذا كان الله قد شاء ان يرحم

هذه الامة من هذا الخلاف ليتعظوا بما فات منهم ويعودوا الى سابق قناعتهم وزهدهم وتقاليـــدهم حين مات الانبا مكاريوس بعد عام واحد الا أن هذا الجشع وروح العناد والتحدى للأمة ظهـــرت بشكل واضح مرة أخرى فى جماعة المطارنة والاساقفة فتقدم للترشيح للمنصب الانبا يوساب مطران جرجا وكان سابق تعليمه فى أثينا واتقانه الفرنسية واليونانية دافعـــا لكثيرين أن يحسنوا الظن فيه فقبلوا ترشيحه رغم مخالفة ذلك للتقاليد .

وكان عهده أسوأ ما شهدت الامة من عهود . اذ تسلط عليه جمـاعة من الجهلة غير المسئولين . وتصرفوا فى شئون الاقبـــاط المالية والروحية تصرفات شاذة . وانتشرت السيمونية واصبحت صفقات هذه المناصب تعقد على قارعة الطريق فى صراحة مخزية . بل حررت لاجلها عقود وصكوك . مما حدا بالاقباط وبعض المطارنة أن يطلبوا وقف هذا الهوان .

وكان تخلى بريطانيا عن انتدابها على فلسطين وتركها هذه البلاد دون أن تقيم بها حكومة تتسلم منا السلطات سببا فى اعلان يهود فلسطين قيـام دولة اسرائيل مما أدى الى زيادة شعور السخط من المصريين وكان ان قررت الحكومة المصرية ومعها الحكومات العـــربية دخول الجيوش العربية الى فلسطين من أجل الاطاحة بحكومة اسرائيل الجديدة ووضع الامر فى يد العرب ولكن عدم استعداد الحكومات العربية للحرب وتفشى الخلاف بينهم ومعهـــا أسباب أخرى كثيرة أدت الى هزيمة الجيوش العربية وكان طبيعيا أن يساهم المسيحيون بكونهم جزءا من الجيش المصرى فى هذه الحرب وأن يسقط منهم ضحايا كما سقط غيرهم .

وزاد السخط بين المصريين حين تأزم الموقف اكثر من ذلك بين الحكومتين المصرية والبريطانية بسبب ميل الأخيرة الى عدم الجلاء عن مصر استجابة لطلب الاولى فى عدم موافقة الثانية أيضا على اعتبار المسألتين المصرية والسودانية مسألة واحدة واصرارها على عدم حل المسألة السودانية الا بعد الرجوع الى الشعب السودانى منفردا عن الحكومة المصرية مما أدى بالحكومة المصرية الى الغاء معاهدة الزعفـــران وتلقيب ملك مصر بلقب جديد هو « ملك مصر

والسودان » وتعويلها على سن دستور خاص بالسودان يقرر نوع الحكومة التى ستقام هناك وقد أدى هذا الامر الى الهاب شعور الشعب المصرى كله بالسخط على بريطانيا وظهور حركة المقاومة المسلحة واعتدائها على قواعد الجيش البريطانى بمنطقة القنال وكان طبيعيا أن يكون شعور المسيحيين كجزء من الأمة المصرية لا يختلف مطلقا عن شعور بقية افراد الامة واشترك منهم كثيرين فى هذه الحرب التى أدت الى سقوط ضحايا آخرين من المصريين سواء من المسلمين والمسيحيين .

وكان الملك يخاف هذا التوتر الشديد بين الحكومتين وهو الحريص على صفاء العلاقة مع بريطانيا لانه يراها الضمان الوحيد لعرشه اذ كان فى نفس الوقت يعرف تماما ما يكنه له المصريون من كره وسخط بسبب مسلكه الفاسد وفضائحه التى كانت على كل لسان . فكان أن دبر وبعض انصاره المجهولين حتى الآن أمر حريق القاهرة يناير سنة ١٩٥٢ .

وفى رأيى انه كان المدبر الوحيد لهذا الحريق والدليل على ذلك ما فعله عمه توفيق من حريق الاسكندرية غداة اشتعال الشعور الوطنى فى سنة ١٨٨٢ ومناصرته للحكومة العرابية وقد أدى هذا الحريق كما نعلم الى ضرب الحركة العرابية من الخلف ثم الاحتلال البريطانى للبلاد .

وقد أدى حريق القاهرة فى يناير سنة ١٩٥٢ الى نفس النتيجة وهى ضرب حركة المقاومة المسلحة فى منطقة القنال ثم اقالة حكومة الوفد التى شجعت على هذه الحركة ثم اطلاق يد الملك فى اقامة ضروب من الحكومات المتوالية يرضى بالتفاهم مع الانجليز وفقا لما يريدون .

هذا فى الوقت الذى كان بعض الضباط الذين اشتعلت فى نفوسهم روح السخط على الملك من جراء موقفه فى حرب فلسطين ثم من جراء فضائحه التى شاعت على كل لسان كما ذكرنا ثم زيادة نفوذ غير المسئولين الى حد تدخلهم فى جميع الشئون لغير المصلحة المصرية قد تجمعوا فى منظم سرى هدفه الاطاحة بهذا الملك الفاسد . والعمل على تقويم المصالح المصرية التى فسدت واهمها الجيش ثم العمل على انهاء الاحتلال البريطانى وحل المسألة السودانية .

وكانت الحالة بعد يناير سنة ١٩٥٢ تزداد سوءا من جراء انطلاق يد الملك فى اقالة واقامة الوزارات المصرية على نحـــو واضح سوى الرغبـــة فى اظهـــار سلطته المطلقة ومنح المكافآت لـــكل من وقف فى صفه واقصاء كل من عمل على معاكسته واستمر التنظيم السرى ينمو تحت الارض ويبلور أهدافه ووسائله حتى قام بحركته المباركة فى ٢٣ يوليو من نفس السنة التى انتهت بزوال الملكية واقامة الجمهورية على قواعد جديدة أهم ما يعنينا منها المساواة التامة بين جميع افراد الشعب دون اعتبـــار لجنس أو دين أو مذهب .

خط همانون نقلا عن ((العـــالم العربى الحديث))

للدكتور جلال يحيى ص ٢٠٢ وما بعدها

لا يخفى أنه منذ ابتداء دولتنا كانت الاحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيعة فى غاية المراعاة الـكاملة ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وثبوتها مع راحة جميع الرعية ورفاهيتهم وعمار البـلاد فى غياية ما يكون من الكمال ولكن منذ ١٥٠ سنة لم يعد انقيـــاد ولا امتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيعة لسبب ما طرأ عليهـــا من الحوادث الكثيرة ، ولهـذا تحـــولت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدمار واية مملكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تؤول الى الاضمحلال ومنـذ جلوس سلطتنا على تخت الخلافة اتجهت أفكارنا الخيرية الى عمـار البلاد وراحة العباد . فنظرا الى مواقع ممالك دولتنا العلمية واراضيها الخصبة وقابلية اهلها واستعدادهم اذا أخذ فى عمل الوسائط اللازمة ، يشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى فى برهة خمس أو عشر سنين .

فاعتمادا على عون الله تعـالى واستعدادا بروح نبينا قد شوهد من الأمور المهمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية وممالـكنا المحروسة ونتيجة خلاصة هذه القوانين هن عبـارة عن منية الحياة وصيانة الوطن وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الويركو وطريقـــة آخذ العساكر ومدة استخدامهم فلا يوجد شىء فى الدنيا أفضل من الحياة والوطن والشرف . فالانسان اذا نظر الى هذه الامور وكانت على خلاف رضاه يئس من الحياة ويبادر الى حفظ حياته وشرفه بأعمال يؤدى بها الدولة والبـلاد . وبخلاف هذا اذا كان مطمئنا على حياته وعرضه وشرفه لا يحيـد عن طريق الاستقامة ويكون مجتهدا فى حسن خدمة الدولة والملة . واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيتأخر عن الاهتمام فى كل مايؤول لنجاح الدولة وعمار

البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئنا عليه فيكون مهتما بأعمـــالـه ومجتهدا فى توسيعها وتضاعف عنده الغيرة للدولة والله يحب الوطن . ويبذل نفســه دونها فهذا الامر يجب ان يكون مستعدا لكل فعل حميد . وأما ترتيب مال الويركو (اى مطالب الاميرية) فهو من أهم الامور لكون الدولة يقتضى لهـا نفقات كثيرة لتجهيز العساكر وللدول أن تأخـذ النفقات من الأهالى لصيانة المملكة .

ولقد أمرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحولات بيد شخص واحد الامر الذى كان الاقدمون يعتقدون أنه أصل كل سعادة وتفرض الاموال الاميرية على انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك . وأن لا يطلب منه شىء خلافه ومن الامور المهمة أيضا وضع قوانين لتحسين مصاريف عساكرنا البرية والبحرية .

ومن حيث ان صيانة البــلاد أمر واجب وفرض لازم فعلى الاهالى أن يبذلوا انفارا للعسكرية فقد أمرنا بوضع قوانين فى كيفية أخذ الانفار على قدر امكان كل مكان ومدة اقامتهم فى سلك العسكرية أربع سنين أو خمس لانه اذا اخذنا انفارا اكثر من طاقة الاماكن أو مكثوا مدة حياتهم العسكرية يكون ذلك ظلمـــا وضررا على العباد والبلاد ويصير الانفار يأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة ومن الآن فصاعدا لا يقاص أحد لاسرا ولا جهرا بأى نوع كان من القصاص الا بعد الفحص والتدقيق تطبيقا لشريعتنا الالهية ولا يسمح لأحد أن يهين شرف الآخر كائنا من كان .

ولكل واحد الحـرية الكاملة أن يتمتع بأملاكه وأمواله دون معارضة . كما أن أقارب المذنب لا يقـــاضون بذنبه ولا يحرمون من ميراثه اذا كانوا أبرياء .

فلتعلم هذه الترتيبات الى جميع رعايانا من أى ملة كانت وليتمتع بهـا الجميع دون استثناء وليكن اطمئنانا كاملا ممنوحا منا الى جميع أهالى المملكة

على حياتهم وشرفهم واموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة ولقـــد امرنا بوضع مجلس للأحكام العدلية يكون فيه وزراؤنا وكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيه بالحرية الكاملة لأجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حيـــاتهم واموالهم وتعيين الاموال الاميرية وأما الشرائع المختصة بترتيب العســاكر فتصير المفاوضة بهـــا فى المجلس العسكرى تحت نظارة السر عسكر وكل ما يرتبوه من الاشياء المستحسنة يعرض لسدتنا السلطانية فنشرفهـــا فى أعلاها خطا بيدنا الملوكية لأجل المصادقة ولما كانت هذه الترتيبات ليس لهـا عنـــاية سوى تقـــوم الديانة والدولة والشعب وخـير المملكة فعظمتنا الشاهانية نتعهد أن لا تفعل شيئا مخالفـا لها . وتأكيدا على الاقامة بعهدنا هذا نقسم بالله العظيم أمام كل العـالم ووكلاء رجال الدولة فى بيت الحرمة الشريفة ونحلفهم ايضا وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات يصير على قدر ذنبه مع قطع النظر عن رتبته واعتبار . وبما أن للموظفين ماهيـات ثابتة فيجرى القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التى تحـرمها الشريعة الالهية وتكون سببا لسقوط المملكة وبما أن هذه القوانين المتقدم ذكرها قـد جعلناها عوضا عن القـــوانين القديمة فنعلن ارادتنا الملوكية فى الاستانة العلية وفى سائر ممالكنا المحروسة وتعطى صورها ايضا الى سفراء الدول المتحابة الموجودين فى دار السعادة العلية لتكون دولتهم شهودا على دولتنا الى ما شاء الله وعد ذلك ليحفظنا الله بحفظـــه الالهى وكل من خالف هـــذه الترتيبات فيكون موضوعا للعنة الالهية الى الأبد آمين .

مراجع البحث

ابراهيم امين غالى	:	الدبلوماسية الخديوية والمطامع الصهيونية فى شبه جزيرة سيناء .. مقـــال فى مجلة السياسة الدولية .
ابراهيم عبــده	:	تطور الصحافة فى مصر .
ابن تغرى بردى	:	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
احمــد شفيق	:	مذكراتى فى نصف قرن .
احمد عزت عبد الكريم	:	تاريخ التعليم فى مصر .
امين سامى باشا	:	التعليم فى مصر .
توفيق اسكاروس	:	نوابغ الأقباط ومشاهيرهم .
الجــــــبرتى	:	تاريخ الجبـــــرتى .
جولدشتين	:	الحضارة المصرية (ترجمة أحمد فخرى) .
حبيب المصرى	:	مذكرات خاصة غير منشورة .
حسين هيــكل	:	بطرس غالى (مقال فى المجلة الجديدة).
دافيــدسون	:	صحوة افريقيا (ترجمة محمد عبد القادر حمزة) .
رفعت رمضان	:	مصر والسيادة على السودان .
رؤوف حبيب	:	المعلم يعقـــوب (مقال فى صور من تاريخ القبط) .
زاهر رياض	:	١ ــ كنيسة الاسكندرية فى أفريقيا .
		٢ ــ مصر وأفريقيا .
		٣ ــ المعلم يعقوب (مقـــال فى مجـــــلة المقتطف) .
الـــزبير	:	الزبير باشا رجل السودان .
ساويرس بن المقفع	:	تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية .

الســـــخاوى : البدر الطالع بمحاسن من فى القرن السابع
سليم حسن واحمد السكندرى : تاريخ مصر من الفتح العثمانى .
عبد الرحمن الرافعى : ١ ـ تاريخ مصر فى عهد الخـــديوى اسماعيل (مجموعة تاريخ الحركة الوطنية) مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .
على أمين : الكتاب الممنوع .
حسين كمـــال : تاريخ السودان القديم .
على أبرهيم : تاريخ المماليك البحرية .
فتحى رضـــوان : مصطفى كامل .
الشهيد محمـــد فريد .
السكندى : القضـــــــاة والولاة .
محمد فؤاد شكرى : مصر والسـودان .
الحملة الفرنسية على مصر وظهـــــور محمـــد على .
المقـــــريزى : السلوك فى معرفة دول الملوك .
ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر .
ورن : صـــفحة من تاريخ القبط ترجمة جمعيـــة مارمينا .
يوسف جرجس : الرحلة البطريركية .
يوسف خليل : انجلترا والجلاء عن مصر .
يونان لبيب : الحياة النيابية فى مصر فى عهد الاحتلال .
رمزى تادرس : الاقباط فى القرن العشرين
تاريخ تكلا هيمانوت مخطوط بمكتبـــة الدار البطريركية .

الـكتاب الأخضر المصرى بشأن السودان
تذكار المؤتمر القبطى .
المؤتمر المصرى .
المدرسة الأكليريكية .
السنكسار .
الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد .
عـــلاوة على جرائد الأهرام . الوطن .
اللواء . المقطم .
ومجلات : آخر ساعة ــ الايمــــان ــ
الأنوار . السياسة الدولية .

المراجع الأجنبية :

Anis : England and Suez Route in 18th Century

Abbas Mikky : British Policy in Sudan.

Budge. S. W. : History of Ethiopia and Nubia.

Baedeker : Egypt.

Gorbal and Others : The Unity of the Nile Valley

George Sobhy : Education in Egypt.

Kiriakos M. : Copts and Muslims under British Rule.

Levingstone : In the Darkest Continent.

Milner : Egypt and the Egyptian Question.

Ohr Walder : Ten Years in Mahdy's Captivity.

Omar Al-Tounsy : Voyage à Darfour (Traduction).

Cambridge Medieval History : Vol IV .

Pankhurst R. : Ethiopia.

المؤلف

دكتور. زاهر رياض

دكتوراه فى التاريخ الإسلامى
(جامعة القاهرة)

عضو بالجمعية التاريخية المصرية

عضو بالجمعية الجغرافية المصرية

عضو بجمعية الآثار القبطية

عمل مدرساً بجامعة القاهرة وأستاذاً مساعداً بمعهد الدراسات الأفريقية .

عمل أستاذاً زائراً بالنمسا وألمانيا الغربية والجزائر .

له سبعة عشر مؤلفاً